أعمدة الاستعمار الأميركي
و
مصرع الديموقراطية في العالم الجديد

للكاتبين الأميركيين الشهيرين
فيكتور بيرلو و البرت إ. كان

تعريب
منير البعلبكي

أعمدة الاستعمار الأميركي
و
مصرع الديموقراطية في العالم الجديد

للكاتبين الأميركيين الشهيرين

فيكتور بيرلو و البرت إ. كان

تعريب

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

ص. ب ١٠٨٥ - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

آذار (مارس) ١٩٨٠

أعمدة الاستعمار الأميركي

للعالم الاقتصادي الأميركي
فيكتور بيرلو

١ . نشوء الاستعمار الاميركي

●

ما هو الاستعمار ؟ وما هو الاستعمار الاميركي، على الخصوص؟ أهو سياسة العصا الغليظة التي نادى بها ثيودور روزفلت * ؟ أهو الاستيلاء على المستعمرات ؟ اهو حروب العدوان والتوسع الاقليمي ؟ أهو مشروع مارشال ؟ أهو نموّ الروح العسكرية واضطهاد الزنوج ؟

هذه كلها من عناصر الاستعمار . إنها تؤلف السياسات والاعمال الاستعمارية . ولكنّ الاستعمار شيء اكثر من ذلك . إنه مرحلة تاريخية من مراحل الرأسمالية . والواقع ان جميع الاعمال والسياسات تنبع من مرحلة التطور التي بلغتها الرأسمالية اليوم ، وهي اعلى مراحلها وآخرها .

لقد لخص لينين في كتابٍ له عوامل الاستعمار الاقتصادية الرئيسية على الوجه التالي :

(١) تركيز الانتاج ورأس المال الى درجة عالية جداً تؤدي آخر الأمر الى نشوء احتكارات تلعب دوراً حاسماً في الحياة الاقتصادية .

---

* يقصد سياسة الشدة وقلة المرونة التي اتبعها هذا الرئيس الاميركي في علاقاته مع دول اميركة اللاتينية وغيرها . [المعرب]

(٢) اندغام رأس المال المصرفي برأس المـال الصناعي ونشوء الاوليجاركية المالية * على اساسٍ من هذا الاندغام .

(٣) تصدير رأس المال الى البلدان الاجنبية .

(٤) تشكيل الاحتكارات الرأسمالية الدولية الـتي تتوزع خيرات العالم في ما بينها .

(٥) تقسيم العالم كله تقسيماً اقليمياً في ما بين الدول الرأسمالية الكبرى » **

فالاستعمار هو تلك المرحلة من الرأسمالية التي تسود فيها هذه العوامل والتي يرجع تاريخها الى اوائل هذا القرن .

ولكن من هم الاستعماريون الاميركيون ؟ ليس من ريب في ان الكثرة الغامرة من الاميركيين لا يدَ لهـا في الاحتكارات الصناعية والمالية على اختلافها . فالمواطن العادي لا يملك رأس مال يستطيع ان يصدّره أو يفيد منه بطريقة أخرى . إنه لا يشارك في المحالفات الاقتصادية الدولية وليس له نصيب في الفتوح الخارجية .

إن الشعب الاميركي ليس استعمارياً . الاستعماريون في تلك الحفنه القليلة من الرجال الذين يملكون اميركة ويسيطرون عليها . إنهم أمراء المال من مثل مورغان Morgan، وروكفلر Rockefeller، وميلون Mellon ، والبطانة التي تحيط بهم ، وبعض رجال السياسة وقـادة الجيش ومحرري الصحف والمسؤولين عن شركات السينما

* الاوليجاركية نظام من الحكم تستبد بالسلطة العليا فيه فئة قليلة جداً من المواطنين . [المعرب]

**Lenin, Imperialism, The Highest Stage of Capitalism, p.89, N. Y. 1939.

الذين يأتمرون بأمرهم . ومع ذلك فليس الاستعماريون الاميركيون غير قلةٍ قليلة جـداً . إنهم لا يختلفون عن شعب الولايات المتحدة فحسب بل هم الدّ اعداء هذا الشعب أيضاً . ومن عجبٍ انهـم يخلعون على سياستهم الاستعمارية اسم « السياسة الاميركية » وكأنها تعبير عن ارادة الشعب كله ، وانهم يُلبسون العدوان في الخـارج لباسَ الدفاع عن هذه البلاد والحفاظ على حريات شعبها المسالم !..

جذور التوسع الاستعماري

والحق ان الاستعمار الاميركي لم ينشأ فجاءةً خـلال نصف القرن الذي مضى . إنه ثمرة الاحداث التاريخية السابقة في الولايات المتحدة وفي العالم . فبعد انقضاء حرب الاستقلال أخذت الرأسمالية الاميركية في التوسع الاقليمي على حساب الهنود، والمكسيكيين، ومختلف الدول الاوروبية الاستعمارية . وهكذا اصبحت الولايات المتحدة دولة ضخمة قارّية الاتساع ، بعد ان كانت من قبل رقعةً من الارض صغيرةً تمتدّ على الساحل الشرقي .

وافتتحت الحربُ الاهلية عهداً جديداً . ففي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر نمت الصناعة في الولايات المتحدة بأسرع مما نمت في ايما بلدٍ آخر . وفي حـين توسّع سادةُ الدول الاوروبية من طريق الاستعمار في ما وراء البحار والمحيطات، عُني رأسماليو الولايات المتحدة بالتوسع داخلَ حدود بلادهم السياسية . فبدلاً من ان يلتمس مالكو المصارف والسكك الحديدية والفولاذ والنفط مواردَ لهم في ما وراء البحار انتزعوا الاراضي من الهنود،

وحرموا المزارعين حقهم في فك ممتلكاتهم المرهونة ، وامتصوا ارباحاً اسطورية من طريق تجارة الرقيق في الولايات الجنوبية . ليس هذا فحسب ، بل لقد استوردوا العمال من اوروبة بالملايين ، واستخدموا مئات الالوف من المكسيكيين والصينيين والفيليبينيين في انشاء السكك الحديدية والمزارع الرأسمالية في البقاع الجنوبية الغربية بأجور بخسة واحوالٍ من العمل غيرملائمة. وفوق هذا كله شيّد الرأسماليون الاميركيون ثرواتهم الأولى على آلام الملايين من الزنوج الذين اختُطفوا من ارجاء إفريقية وآلام ابنائهم وبناتهم في الاجيال التي تلت .

وبينما كانت الرأسمالية الاميركية تتوسع في الداخل قادت عمليةُ المنافسة التي ينطوي عليها النظام نفسه الى نزعة جديدة هي جمع البيوت التجارية المتناحرة وتكتيلها في منظمة واحدة تحتكر المادة وتتحكم في تعيين اسعارها .

وحوالي سنة ١٨٩٠ انتهى نمو الاحتكارات المختلفة وتكتلها الى ان يُنزلا أذى كبيراً بمصالح العمال والمزارعين وصغار التجار. حتى إذا هاج الرأي العام هياجاً كبيراً اضطرت الحكومة الى إصدار قانون يضع حداً لجمع الشركات الاستثمارية الكبرى في ما يُعرف بالكتل المتحدة او التروستات Trusts ؛ ولكن هذا التشريع (وقد اطلق عليه اسم قانون شيرمن المضاد للتروست *

* اعلن هذا القانون عدم شرعية « أي عقد أو اتحاد يتخذ شكل تروست أو أي شكل آخر ، أو أية مؤامرة من شأنها التضييق على الاتجار بين الولايات المختلفة أو بين الولايات المتحدة والدول الاجنبية . » [المعرب]

Sherman Anti-Trust Act) لم يكن فعالاً بالكلية لأن الحكومة الرأسمالية في الولايات المتحدة كانت ولا تزال تمثل أقوى الجماعات الرأسمالية في البلاد ، أي الشركات الاحتكارية نفسها التي يُفرَض فيها مكافحتها ...

أما اندغام رأس المال المصرفي برأس المال الصناعي فقد استُهِلّ بالدور الرئيسي الذي لعبه بيت مورغان الماليّ في تشكيل التروستات في حقلي الفولاذ والمعدات الكهربائية ، والدور الذي لعبه بنك ميلون في تشكيل تروست الالومنيوم ، وإقبال آل روكفلر على شراء اسهم الـ « ناشيونال سيتي بنك » وسيطرتهم على الـ « تشايس ناشيونال بنك » . ولم تدخل سنة ١٩٣٠ حتى كانت هنالك ثماني مجموعات مالية ضخمة تسيطر على ٦٢ بالمائة من صناعات الولايات المتحدة الثقيلة ، ووسائل مواصلاتها ومصارفها ، كما جاء في تقرير رسمي اصدرته الحكومة الاميركية نفسها * .

وهذا الوضع قاد الى تجمّع الرساميل تجمعاً فاحشاً في أيدٍ قليلة جداً . وإذ كان قانون الرأسمالية هو الكسب المستمرّ فقد تعيّن على الشركات الاحتكارية ان تبحث عن حقول جديدة توظف فيها رساميلها الفائضة . ومن هنا التمس اصحاب الرساميل المالية الاميركية مصادرَ للربح خارج حدود الولايات المتحدة القاريّة . وهكذا اخذت الولايات المتحدة تصدّر رأس المال الى البلدان الاجنبية وهي التي كانت من قبلُ بلداً يستورد رؤوس

* U. S. National Resources Committee, The Structure of the American Economy, Part 1.p. 317, Washington, 1939.

الأموال من الخارج .

ولم تكد الشركات الاميركية تغزو البلدان الاجنبية حتى عملت على اقتسام الممتلكات والأسواق فيما بينها وبين زميلاتها الأوروبية . فمنذ اوائل القرن الحالي اقتسمت كتلة روكفلر المتحدة منابع النفط المعروفة آنذاك واسواقه العالمية فيما بينها وبين شركات روتشيلد ونوبل . كما اقتسمت شركة « جنرال ايلكتريك » التي يسيطر عليها بيت مورغان المالي اسواق المعدات الكهربائية في العالم مع شركة « جنرال ايلكتريك » الالمانية المعروفة بالـ A.E.G. .

ويقضي منطق الاستعمار بأن تستتبع السيطرة الاقتصادية سيطرةً سياسية وعسكرية . فلا عجب اذا ما وجدنا الدول الاستعمارية الكبرى تسارع ، خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، إلى بسط سلطانها السياسي والعسكري على مناطق مختلفة من العالم لكي تمكّن شركاتها الاحتكارية من استثمار تلك المناطق على هواها . ولم يكد ذلك القرن يؤذن بالانصرام حتى كانت الدول الاوروبية قد استعمرت بصورة رسمية كامل افريقية تقريباً والشرق الاقصى باستثناء الصين ، في حين امست الصين نفسها ، وسائر آسية ، واميركة اللاتينية مناطق نفوذ للرساميل الأوروبية . اما الولايات المتحدة فلم تهيمن ، قبل سنة ١٨٩٨ ، إلا على آلاسكا ، وهاوايي ، وجزء من جزائر ساموْا .

وهكذا نجد ان عوامل الاستعمار الرئيسية الخمسة التي نصّ عليها لينين قد نشأت في الولايات المتحدة وكان نشوؤها على نطاق

عالميّ . وتلك هي جذور سياسات الحرب والكسب في الخارج ، والرجعية والتعصب القومي في الداخل ، هذه السياسات التي تُعتبر من ابرز خصائص الاستعمار ومميزاته . وقد مهّد هذا كله السبيل امام كايزر ، وسيسل رودس ، وثيودور روزفلت وغيرهم من بناة الامبراطورية الاميركية الذين كانوا يمثلون الجبهة السياسية للرساميل المالية .

والواقع أن عضو مجلس الشيوخ ألبرت بفريدج ، أحد دعاة الاستعمار الاميركي الأولين ، وصف سياسة التوسع هذه حين قال في خطاب القاه سنة ١٨٩٨ :

« إن المصانع الاميركية تنتج اليوم اكثر مما يستطيع الشعب الاميركي ان يستهلك ، والتربة الاميركية تنتج كذلك اكثر مما نستطيع ان نستهلك . ومن هنا نرى ان القدر قد رسم لنا سياستنا : إن تجارة العالم يجب ان تكون بيدنا ؛ وليس من شك في اننا سنستولي عليها كما علّمتنا أمّنا ، انكلترة ، أن نفعل . ولسوف ننشىء قواعد تجارية في ارجاء العالم كله لتوزيع المنتجات الاميركية . وسنملأ ماء المحيط باسطولنا التجاري . وستنهض حول مراكز تجارتنا مستعمرات كبرى تحكم نفسها بنفسها ولكنها ترفع علمنا وتتاجر معنا ... * »

وليس من شك في أن العمال في المصانع والمزارع الاميركية لم يُنتجوا في يوم من الايام ، ما يسدّ حاجة الشعب . ولكنهم انتجوا خلال الخمسين السنة الماضية اكثر بكثير مما أجازت الرأسمالية

* Quincy Howe , A World History of Our Own Times, pp.128- 29, N.Y.,1949.

للشعب ان يستهلكه . والمحاولة الاستعمارية لحل هذا التناقض إنما تتمثل في ما اقترحه بيفريدج الناطق باسم الرأسمالية .

طرائق التوسع الاستعماري

لقد نُشِّيء الشعب الاميركي على الاسطورة القائلة بان جيوش الولايات المتحدة غير عدوانية nonaggressive ، وان المشاريع التجارية الاميركية تغزو العالم من طريق المنافسة السلمية وخدمة المستهلكين . وإنما اهدف في هذا الكتاب الى تقويض هذه الاسطورة واصفاً طرائق العمل التي تصطنعها بيوتات وول ستريت* Wall Street وصفاً تفصيلياً دقيقاً .

والحق ان استخدام القوة العسكرية استخداماً عدوانياً كان ولا يزال هو الوسيلة الرئيسية التي تعتمدها الولايات المتحدة في توسعها الاستعماري . ففي سنة ١٨٩٨ شنت الولايات المتحدة حرباً استعمارية لأعادة تقسيم العالم ؛ وكانت هذه الحرب ثانوية خاضتها ضد عدوٍ مستضعف ، هو اسبانية . ومع ذلك فقد كانت غنيمتها

* حي المال في مدينة نيويورك وهو يسيطر كما سنرى على الحياة الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة سيطرة شبه كاملة . يدلك على ذلك ما قالته ماري ليز احدى زعيمات الحزب الشعبي Populist Party المطالب بحقوق المزارعين: « ان وول ستريت يملك هذه البلاد . فلم تعد حكومتنا حكومة الشعب بواسطة الشعب ولمصلحة الشعب ، بل حكومة وول ستريت بواسطة وول ستريت ولمصلحة وول ستريت ... والواقع ان قوانيننا هي نتيجة مسلك من شأنه ان يكسو الرذيلة بالحلل الغالية ، والفضيلة بالخرق البالية . »

[المعرب]

ضخمة هائلة : — استولت على الفيليبين وبورتو ريكو ؛ وسيطرت بصورة غير رسمية على كوبا ؛ وكسبت منطقة نفوذٍ واسعة تشمل القسم الشمالي من اميركة الجنوبية وكامل اميركة الوسطى ؛ وبسطت سلطانها العسكري على بحر الكاريبيان وعلى كثير من القواعد المهمة في المحيط الهادىء . ليس هذا فحسب ، بل لقد امتد نفوذ الولايات المتحدة المتعاظم ، منذ ذلك الحين ، تعاظماً كبيراً الى بلدان اميركة اللاتينية حيث كانت الرساميل البريطانية والفرنسية هي صاحبة اليد العليا .

ولم تكن الحرب ضد اسبانية غير بداية متواضعة . ذلك بان شعوب تلك البلاد التي بسطت اميركة سلطانها عليها لم تكن راغبة في ان تستبدل بمستثمريها الانكليز او الاسبان مستثمرين جدداً من وول ستريت . فما كان من امراء الاستعمار الاميركي إلا ان خاضوا غمرات الحروب العدوانية او التدخل المسلح ضد شعوب الفيليبين ، والمكسيك ، وكوبا ، ونيكاراغوا ، وباناما ، وهايتي ، وكولومبيا ، والجمهورية الدومينيكية ، وكوستاريكا ، وهوندوراس ، والصين .

وإنما يتجلى الدور الذي لعبته القوة العسكرية في تدعيم سيطرة وول ستريت الاقتصادية على البلدان نصف المستعمرة في هذه الكلمات التي لخص فيها الميجور جنرال سمدلي بتلر حياته العسكرية:

« لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاماً في خدمة جيشنا الاميركي ، كنت في معظمها اشبه بقاطع طريق يعمل لمصلحة وول ستريت والشركات والمصارف الكبرى ...

« وهكذا ساعدتُ على جعل المكسيك مكاناً آمناً لشركات البترول الاميركية ، سنة ١٩١٤ ؛ وعلى جعل هايتي وكوبا ارضاً يستطيع الـ « ناشيونال سيتي بنك » استغلالها ... ومهدتُ السبيل أمام بنك الاخوة براون لاستثمار نيكاراغوا سنة ١٩٠٩ – ١٩١٢ . وفتحتُ ابواب الجمهورية الدومينيكية في وجه شركات السكّر الاميركية ، سنة ١٩١٦ . . . أما في الصين فقد ساعدتُ شركة ستاندرد اويل على ان تشق طريقها ، سنة ١٩٢٧ ، في سهولة ويُسر . » *

وإذا كانت الامبراطورية الاميركية قد استهلت حياتها بالحرب والعدوان فقد حققت نموّها الأعظم بالطريقة الدامية نفسها . والواقع ان جميع ما كسبه الاستعمار الاميركي بعد ذلك ، تقريباً ، ناشىء عن الدور الذي مثلته في الحربين العالميتين الاولى والثانية وعن اعمالها وتهديداتها العسكرية في السنوات التي عقبت الحرب العالمية الثانية .

ولكن التوسع الاميركي لم يُحَقّق كله بالطرائق العسكرية . فقد لعب الضغط الاقتصادي دوره المهم في ذلك ايضاً . وهذا الضغط يشمل ، في ما يشمل : (١) تقديم القروض الى البلدان المستضعفة والتي خرّبتها الحرب ، بشروط مناسبة للشركات الاميركية . (٢) عقد الاتفاقات التجارية التي تحظر حماية الصناعات في الدول المستضعفة من خطر الاحتكارات الاميركية الضخمة . (٣) منع السفن من السفر الى بعض البلدان وشنّ الحرب على

* Smedley D. Butler in Common Sense, Nov., 1935.

عملائها الرسمية . (٤) تقوية العناصر الرجعية في البلدان الاخرى لكي تستطيع خدمة مصالح وول ستريت الواسعة . (٥) عقد المعاهدات التي تمكّن الشركات الاميركية من الاستيلاء على موارد الشعوب الاخرى استيلاءً غير محدود . (٦) التدخل الديبلوماسي لانتزاع الامتيازات لمصلحة شركات اميركية بعَيْنها (٧) تعيين المستشارين الماليين الاميركيين وجامعي الضرائب ابتغاء السيطرة على مالية البلدان الضعيفة .

وطبيعي أن تسير الطرائق العسكرية والطرائق الاقتصادية جنباً الى جنب . ذلك بان قوة الاستعمار الاميركي الاقتصادية تقدّم الأساس الذي تقوم عليه قوته العسكرية . في حين ان الضغط الاقتصادي او الديبلوماسي لا يجدي إلا اذا دعّمه تدخل عسكري أو تهديد باللجوء الى مثل هذا التدخل . وهكذا تلتقي جميع الأساليب في خطة توسعية عامة تكون « سلمية » حيناً ، وشبه حربية حيناً ، ولكنها موجهة ابداً ضد شعوب البلدان التي يتفق ان تقع ضحية المطامع الاميركية .

وتتعاون الكتل الاحتكارية المتحدة او التروستات اوثق التعاون مع الحكومة المركزية على تحقيق هذا البرنامج . والواقع ان الشخصيات السياسية والعسكرية كثيراً ما تتناوب المناصب الكبرى في وول ستريت وواشنطون . وهكذا نرى الدوائر الحكومية تتولى زمام السلطة الاقتصادية في بعض الأوقات ، على حين تمارس البيوتات المالية الكبرى هذه السلطة ، بصورة مباشرة ، في اوقات اخرى . اما السلطة العسكرية فتمارسها الحكومة عادةً ،

ولكن بعض الشركات الكبرى قد تمارسها احياناً بصورة مباشرة من طريق القوى المسلحة والحكومات المطواعة التي تقيمها في البلدان الخاضعة لسلطانها .

والحق ان ستراتيجية الولايات المتحدة الاستعمارية إنما أريد بها ان تحقّق اهدافها بأدنى ثمن ممكن وذلك من طريق تسخير الحلفاء، ورشوة الاعداء . إنها توجّه ضربتها ، في المحلّ الاول، الى جماعات الشعب العاملة والى الحركات التحرّرية الوطنية في البلدان المستعمَرة ونصف المستعمَرة . إنها تتحالف مع أكثر الطبقات رجعيةً في تلك البلاد ، ومع طبقة الاقطاعيين عادةً ، كما تتحالف مع الدول الاستعمارية المنافسة لها ايضاً . واكثر هذه المحالفات استمراراً التحالف الانكليزي الاميركي الذي لعب دوراً بارزاً في الحرب الاسبانية الاميركية ،وفي الحربين العالميتين الاولى والثانية، وفي السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية .

اشكال الحكم الاستعماري ونصف الاستعماري

يزعم المدافعون عن وول ستريت ان الولايات المتحدة ليست دولة استعمارية لأنها لا تملك امبراطورية استعمارية ضخمة كالامبراطورية البريطانية. وإنه في الواقع لدفاعٌ خاسر يحاول ان يخلط ما بين الشكل والجوهر . ذلك ان **جوهر** الاستعمار هو فَرْض السيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية على الشعوب المستضعفة . اما **أشكال** الاستعمار فتشمل ضم البلد المغلوب على امره الى اراضي البلد الفاتح ، وإنشاء المستعمرات ، وإقامة الحكومات

المستقلة اسمياً والخاضعة للدولة الاستعمارية عملياً . وهذا الضرب الاخير هو شكل الحكم نصف الاستعماري .

وهناك بين المستعمرات وأنصاف المستعمرات اشكال انتقالية مختلفة ، منها الانتداب ، والوصاية ، والدومنيون . وحتى الفارقُ الرسمي بين المستعمرات وأنصاف المستعمرات ليس كبيراً دائماً . وهكذا نجد البريطانيين يلجأون في مستعمراتهم الى الاستعانة بالقوات الوطنية وبالامراء الوطنيين والمجالس المحلية ما دام هؤلاء دُمىً متحركةً في ايديهم ، فِعْلَ الولايات المتحدة في أنصاف المستعمرات الخاضعة لها . بل إن شكل الحكم الاستعماري ليس دائماً اكثر استبداداً ولا أبشع استغلالاً من شكل الحكم نصف الاستعماري . ومن هنا نرى ان الوَضْع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لسكان **المستعمرات** البريطانية في جزائر الهند الغربية ليس على التحقيق اسوأ من وَضْع سكان **أنصاف المستعمرات** الاميركية في اميركة الوسطى وبحر الكاريبيان .

وليس من ريب في ان الولايات المتحدة عملت على انتزاع المستعمرات بالقسوة نفسها التي تصطنعها الدول الاوروبية ، حيثما وجدتْ ذلك مناسباً وميسوراً ، شأنها في بورتوريكو، وهاوايي، والجزر العذراء ، وآلاسكا ، ومختلف جزر المحيط الهادىء ، وحتى وقتٍ قريبٍ في الفيليبين . وبعد الحرب العالمية الثانية فقدت الولايات المتحدة جزءاً من امبراطوريتها الاستعمارية نتيجةَ منحها « الاستقلال » للفيليبين ، ولكنها توسعت بالفعل ، بما ضمّت اليها من جزائر مختلفة في المحيط الهادىء ، وتوسّعت،بالقوة potentially

من طريق احتلالها المانية الغربية واليابان احتلالاً عسكرياً .

بيد ان الاستعمار الاميركي لم يلجأ ، في معظم البلدان التي خضعت له ، الى اشكال الحكم الاستعمارية ، لان شكل الحكم نصف الاستعماري المستقلّ استقلالاً اسمياً أثبت انه اكثر مرونةً وأدعى الى اعطاء الاستعمار الاميركي ميزةً على الاستعمار الاوروبي المنافس . أضف الى ذلك ان أمراء وول ستريت الاستعماريين اضطروا الى ان يُدخلوا في حسابهم تقاليد الشعب الاميركي الديموقراطية ، هذا الشعب الذي اشترى حريته بما سفك من دماء في حرب ثورية شنها على مستعمريه ؛ وان المزارعين والطبقات الوسطى من اهل المدن اخذت تقاوم ، في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، سلطان وول ستريت وشركاته الاحتكارية الجشعة .

وهكذا آثر الاستعمار الاميركي ان يصطنع اشكالاً جديدة من الحكم الاستعماري وعمد رجاله الى تضليل الرأي العام ، فقالوا ان هذه البلاد ، الولايات المتحدة ، لا تطمع في مغانم إقليمية ، ولكنها حريصة على رفاهية الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ليس غير! ومنذ الحرب العالمية الثانية وأمراء وول ستريت يُفيدون إفادة خاصة من هذه النغمة اللا إستعمارية المضللة . إنهم يحاولون ان يتوسعوا ، تحت هذا القناع ، في كل مكان. وان واشنطون لتسعى الى استغلال حركة التحرير المضطرمة نيرانها في آسية كلها ، كما استغلت قبل خمسين سنة نزعات التحرر في المستعمرات الاسبانية.

ومن سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٥٠ والخطة الاميركية الرئيسية

تقوم على مدّ المستعمرين الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين بالمال والسلاح ابتغاء القضاء على حركات التحرر الوطني في المستعمرات في حين تقضي بالعمل من وراء حجاب على إنشاء حكومات « مستقلة » تنبري لانقاذ البلاد من الشركات الاستعمارية الاوروبية وإحلال الشركات الاميركية محلها . وقد استُعملت طرائق مشابهة في اوروبة التي غدت اليوم هدفاً مباشراً من اهداف وول ستريت الكثيرة .

حتى اذا كانت سنة ١٩٥٠ صار اصطناع هذه الأساليب امراً اكثر صعوبة واشد عُسراً . ذلك بان شعوب البلدان المعنية ما عادت تُخدع بأقنعة الاستعمار على اختلافها. وفي آسية على الخصوص عزّزت هذه الشعوب تنظيمها وقوتها العسكرية ورفعت النضال التحريري الوطني في سبيل الارض ، والقدر الكافي من الطعام ، والاستقلال الصحيح الى درجة عجزت معها الحكومات العاملة بوحي الاستعمار عن الصمود في الميدان فاذا هي تبدو على حقيقتها من الافلاس والفساد . وهكذا دشنت اميركة خطة توسعية جديدة ، في كوريا ، فاستخدمت قواتها المسلحة ، تعاونها قوات الدول الاوروبية الاستعمارية ، بوصفها الأداة الرئيسية لفرض الاوضاع الاستعمارية وتخليدها أبدَ الدهر .

٢ . امبراطورية وول ستريت ...

كثيراً ما تُسمع في غرف اللجان البرلمانية بواشنطون شهادات صريحة حول الاحتكارات الضخمة والمشكلات التي يواجهها صغار التجار ، فينبري ممثلو الامة الى الهجوم على تلك الكتل الاحتكارية وأساليبها في العمل ، ويصوّرون المصير المحزن الذي ينتظر صغار التجار ، حتى إذا خُيّل لهم انهم أرضوا رغبات الرأي العام رجعوا الى جدول الاعمال فأقروا مجموعة من التشريعات الموحى بها من تلك التروستات نفسها ...

ومهما يكن من أمر فان هذه المناقشات تمر مر الكرام باخطر ما تقوم به هذه التروستات الكبرى من نشاط ، أعني مناوراتها الدولية الخطيرة . فبينا تجد عدداً من رجال الكونغرس يخذلون هذه التروستات في بعض مشاريعها الداخلية نرى قليلاً منهم يجرأون على خذلانها في مصالحها الخارجية التي تُجلّل عادةً بالراية الاميركية . وعضو مجلس الشيوخ الذي يصوت ، يوم الاثنين مثلاً ، ضد التروستات العملاقة هو نفسه الذي يعطي صوته ، يوم الثلاثاء ، لامبراطورياتها العالمية الواسعة باسم « المعونة الدولية » او « الدفاع الوطني » .

والواقع انه ليس في حقل « الشؤون الخارجية » او « السياسة العسكرية» ما لا يتصل بأخص مصالح الشركات المتكتلة وأجشعها. ففي جميع اجزاء العالم ، من تشيلي الى غواتيمالا ، ومن اليونان الى المانيا ، ومن كوريا الى ليبيريا ، حيث تتدخل الحكومة الاميركية عسكرياً او ديبلوماسياً باسم « الحرية » او « مقاومة الشيوعية » يكون الدافع الحقيقي هو النحاس او الفاكهة ، النفط او الصناعة الثقيلة ، الذهب او المطاط . . .

والسذّج من الاميركيين الذين يعتقدون اننا لا نملك امبراطورية استعمارية ضخمة ينسون ان شركاتنا الاستثمارية تملك اضخم امبراطورية مالية عرفها التاريخ . وان الغرض الذي تهدف اليه سياسة الحكومة عندنا هو توطيد سلطانها السياسي وتوسيع رقعته لكي تمكّن من وراء ذلك لهذه الامبراطورية المالية وتزيدها قوةً وبَسْطةً .

وإذا كانت الصناعة الاميركية مصفدة بأغلال الاحتكار فأن تصدير رأس المال الى البلدان الاجنبية خاضع لاحتكار أدهى وأمر.

وتفصيل ذلك ان بضع مئات من الشركات تسيطر على الاقتصاد الوطني في داخل الولايات المتحدة . ولكن قلة قليلة من هذه الشركات تملك من القوة الاقتصادية والسياسية ما يمكنها من ان تنتزع ممتلكات اجنبية واسعة ، وتحصل على الارباح الخاصة التي تنشأ عن انخفاض مستوى الاجور في المستعمرات والبلدان الاجنبية، وتتخلص من مزاحمة الشركات البريطانية والالمانية وغيرها من التروستات الاستعمارية، وتهيمن على الحياة السياسية في بلدانٍ برمتها

كجزء لا يتجزأ من الخطة الرامية الى فرض السيطرة الاقتصادية عليها .

ففي سنة ١٩٤٣ كانت ثمة مائة شركة اميركية كبرى تملك ٧٠٪ من موجودات مختلف المشروعات الخارجية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة * . ولكنّ امواج السياسة الدولية كانت أعتى من ان تطيقها معظم هذه الشركات في ما بعد الحرب العالمية الثانية . وفي سنة ١٩٤٧ استأثرت عشر شركات بتصدير ما يزيد على ٧٥ ٪ من الرساميل الجديدة الى البلدان الاجنبية ** .

وليس من ريب في ان حاجات هذه التروستات العشر ومطالبها مسؤولةٌ الى حدّ بعيد عن مختلف التطورات التي طرأت على السياسة الخارجية الاميركية منذ انقضاء الحرب العالمية الثانية . وإذن فمن الضروريّ ان ندرس المركز العالمي الذي تتمتع به كبريات الشركات الاميركية واقتسامها الصناعةَ والموارد العالمية في ما بينها وبين زميلاتها البريطانية والهولندية والفرنسية وغيرها .

وإنما يتجلّى اقتسام العالم وتوزعه بين التروستات الكبرى اوضح ما يتجلى في المواد الصناعية الأساسية : النفط والمعادن . وهذه المنتجات تُستَخرج (وتصفّى في بعض الاحيان) في المستعمرات وانصاف المستعمرات ثم تُحمل الى المراكز الامبراطورية حيث تُعَدّ في اشكالها النهائية ومن ثمّ تُباع في الاسواق العالمية . .

---

* U. S. Treasury Dept. , Census of American-Owned Assets in Foreign Countries, p. 29, 1947.

** U. S. Dept of Commerce, Survey of Current Business, Nov., 1949, p. 20.

شركات النفط المتحدة تقتسم العالم في ما بينها

تحتلّ شركة ستاندرد أويل (نيو جيرزي) أكبر جزء من امبراطورية روكفلر النفطية . وقد انتجت هذه الشركة او سيطرت على خمس ما أنتجه العالم الرأسمالي كله من النفط في سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٤٩ تقريباً . والحقّ انها اصدرت سنة ١٩٤٩ خريطةً للعالم تمثل مناطق إنتاج النفط الاربع عشرة التي تهيمن عليها ، ومواقع مصافيها الاربعين ، وعدداً لا يُحصى من اسواقها الواسعة . وقد تعجب إذا علمتَ ان المناطق المظلّلة باللون الاخضر والتي ترمز الى اسواق هذه الشركة العالمية تمثّل مواطن يبلغ مجموع سكانها ١،٦٧٠،٠٠٠،٠٠٠ نسمة أي ٧٢٪ من مجموع سكان العالم كله . وإذا استثنينا من هذه الرقعة الجزء الاكبر من الصين وشمالي كوريا ، بلغ مجموع سكان الاسواق التي تسيطر عليها شركة ستاندرد اويل اوف نيو جيرزي ١،٢٦٢،٠٠٠،٠٠٠ نسمة او ٨٠٪ من السكان في العالم الخاضع لسلطان الرأسمالية .

واليك فيما يلي جدولاً بيانياً باسواق هذه الشركة الهائلة ونسبتها الى اسواق الشركات الرأسمالية مجتمعةً ، كما كانت سنة ١٩٤٩ :

	عدد السكان (بالملايين)		
	مناطق شركة ستاندرد أويل	مجموع مناطق الشركات الرأسمالية	حصة ستاندرد أويل من المجموع
اميركة الشمالية بكاملها	١١٣	٢٠٦	٥٥ بالمئة
الولايات المتحدة وحدها	٧٤	١٤٤	٥٢ »
اميركة الجنوبية	٩٦	١٠٣	٩٣ »
أوروبة	٢٣٩	٢٩٧	٨٠ »

	مناطق شركة ستاندرد أويل	مجموع مناطق الشركات الرأسمالية	حصة ستاندرد أويل من المجموع
آسية	٧١٨	٧٦٧	٩٤ بالمئة
اوقيانوسية	١٢	١٢	١٠٠ »
إفريقية	٨٤	١٨٨	٤٥ »
العالم (الرأسمالي)	١٢٦٢	١٥٧٣	٨٠ »

ولاتنفرد شركة ستاندردأويل بحقّ العمل في معظم هذه المناطق . فهي تتقاسمها مع واحدة او اكثر من التروستات الأخرى ، على اساسٍ من توزّع الاسواق وتحديد الأسعار بالاتفاق . والواقع ان العالم الرأسمالي تكاد تتوزعه كله سبعٌ من تروستات النفط ، يملك آل روكفلر ثلاثـاً منها ، ويملك « ميلون » Mellon واحدة ، وتملك الخامسة شركاتٌ اميركية اخرى ، اما السادسة فبريطانية ، واما السابعة فبريطانية هولندية . *

وقد تنفرد كل من هذه التروستات في العمل حيناً . فشركة ستاندارد اويل (نيوجيرزي) مثلاً تسيطر على انتاج البترول في كولومبيا بواسطة شركة مساعدة هي التروبيكال أويل كومباني . وقد تنهض ببعض المشروعات الاخرى شركات خاصة تندمج فيها مصالح اثنتين او اكثر من الكتل السبع الكبرى . وهكذا فان امتياز النفط في المملكة العربية السعودية تملكه شركة البترول

* وهذه التروستات السبع هي : (١) ستاندارد اويل اوف نيو جيرزي (روكفلر) (٢) شركة شل (رساميل هولندية بريطانية) ؛ (٣) شركة النفط الانكلو ايرانية (بريطانية) ؛ (٤) شركة سوكوني فاكيوم (روكفلر) ؛ (٥) شركة تكساس (روكفلر ، ومورغان ، وغيرهما) ؛ (٦) ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا (روكفلر وغيره) ؛ (٧) شركة نفط الخليج (ميلون) .

العربية الاميركية (آرامكو) التي تسهم فيها اربع من شركات الولايات المتحدة الكبرى * وهذه الشركات الاربع تجتمع مع مجموعة شل الهولندية في شركة خاصة تملك امتياز النفط في غينيا الجديدة . في حين تجتمع شركة نفط الخليج وشركـة النفط الانكلو ايرانية في شركة بترول الكويت .

وفي سنة ١٩٣٩ كانت هذه الشركات السبع تهيمن على ثمانين بالمائة من مجموع انتاج البترول خارج الولايات المتحدة والمكسيك والاتحاد السوفياتي . وقد تعاظمت حصتها منذ ذلك الحين .

شركات المعادن الدولية

وتتوزع انتاجَ النحاس في العالم الرأسمالي ثلاث شركات اميركية كبرى وعدد من الشركات البريطانية والبلجيكية . اما الثلاث الاميركية الكبرى (شركة آناكوندا للنحاس Anaconda Copper وشركة كنيكوت للنحاس Kennecott Copper وشركة فلبس دودج Phelps Dodge) فتسيطر على ثلاثة ارباع احتياطي النحاس في الولايات المتحدة ، وعلى ثلث النحاس في العالم الرأسمالي خـارجَ الولايات المتحدة .

ويؤخذ من تقرير اصدرته لجنة التجارة الفدرالية ان ثمة ستة رجال « يسيطرون بصورة مباشرة او بصورة غير مباشرة عـلى سياسة انتاج النحاس العالمي وتقرير اسعاره » ** واليك اسماء هؤلاء

* هي ستاندرد اويل (كاليفورنيا) وشركة تكساس ، وستاندرد اويل (نيو جيرزي) ، وشركة سوكوني فاكيوم.

**Report of the Federal Trade Commission on the Copper Industry, pp. 174 ff., 1947 .

الرجال الستة والشركات التي يمثلونها :

كورنيليوس كيلي (شركة آنا كوندا) ؛ **إ.ت. ستانارد** (شركة كنيكوت) ؛ **فرد سيرلز الصغير** (خبير شركة مورغان في التعدين والنفط ، ونائب رئيس شركة نيومونت للتعدين) ؛ **آ. تشاستر بيتي** (مناجم النحاس الروديسيّة) ؛ **روبرت ستانلي** (شركة النيكل الدولية) ؛ واخيراً **لويس كايتس** (شركة فلبس دودج) .

وهؤلاء الرجال يتنافسون على انتزاع حصة الأسد ، ولكنهم يلتقون ويتعاونون على استغلال العمال الذين ينتجون النحاس ابشع ما يكون الاستغلال ، وعلى إقامة العراقيل في وجه جميع الدخلاء الراغبين في ان تكون لهم حصة في ذلك الاستثمار .

وخمسة من هؤلاء الرجال الستة اميركيون ، وواحد بريطاني (آ. تشاستر بيتي) . وهذا دليل لا يُتَّهَم على ان وول ستريت يسيطر على شركات النحاس الدولية سيطرةً شبه كاملة . واذا كان آل روكفلر يسيطرون على النفط فأنّ بيت مورغان المالي هو المسيطر على صناعة النحاس . فمنذ سنة ١٩٤٥ ومورغان وشركاؤه والمصارف المتحالفة معه يملكون ست عشرة مديرية في شركات النحاس الكبرى، في حين يملك الـ « تشايس ناشيونال بنك » الذي تسيطر عليه مجموعة روكفلر سبع مديريات ليس غير .

ومَثَل فُرِدْ سيرلز الصغير ، احد الرجال الستة الذين اشرنا اليهم آنفاً، يصوّر لك مدى اندغام الحكومة الاميركية بالشركات الاستثمارية والمصارف الكبرى . ففي اثناء الحرب العالمية الثانية

كان هذا الرجل يحتلّ عدة مناصب رئيسية تهمّ بيت مورغان المالي الى حدّ بعيد . وكان احدها منصب « مستشار الانتاج » لجيمس برنز الذي كان يومذاك مديراً لمكتب التعبئة الحربية . وفي سنة ١٩٤٦ عندما اسندت وزارة الخارجية الى المستر برنز فزع زعماء افريقيا الجنوبية الغربية الى منظمة الامم المتحدة والتمسوا مساعدتها في صراعهم للتحرر من نير المستعمرين العِرْقيين في جنوبي افريقية . فما كان من مندوبي الولايات المتحدة في تلك المنظمة إلا ان قاموا بحملة تخريبية حالت دون نصرة الزعماء الافريقيين . وقد كافأت حكومة جنوبي إفريقية المستعمرين البريطانيين والاميركيين على موقفهم ذاك بان عهدت اليهم في استثمار مناجم النحاس الغنية في جنوب غربي إفريقية ، وكانت تستثمرها من قبل شركة المانية صُودرت اثناء الحرب العالمية الثانية . اما حصة بيت مورغان المالي وشركة نيومونت للتعدين * فكانت ثلثي الاسهم ليس غير . . . ومن طريق توظيف مليون دولار نقداً في هذا المشروع استطاع المساهمون البريطانيون والاميركيون الجُدُد ان يجنوا ارباحاً صافية بلغت تسعة ملايين دولار في ثلاث سنوات .... وفي سنة ١٩٤٧ ترك جيمس برنز وزارة الخارجية ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى عُيّن مديراً لشركة نيومونت للتعدين !

وهذا التعقيد الذي نراه في تنظيم احتكار النحاس العالمي لا اثر له في احتكار النيكل . فهناك شركة واحدة ، هي شركة النيكل الدولية ، تنتج خمسة اسداس النيكل في العالم الرأسمالي كله. وبدلاً

(*) اللذين يعمل فرد سيرلز لحسابهما .. [المعرب]

من ان تنبري سائر المجموعات الأميركية والبريطانية والكندية الى تنظيم شركات مستقلة ، نراها توازن قواها من طريق امتلاك الأسهم والتنافس على المديريات في هذه الشركة المفردة. وهنا ايضاً تحظى الولايات المتحدة بالنصيب الأكبر من الغنيمة . ففي اواخر سنة ١٩٤٩ كان الأميركيون يحتلون رئاسة اللجنة التنفيذية لشركة النيكل الدولية وسبعة مقاعد من تسعة تتألف منها هذه اللجنة .

والواقع انجون فوستر دالز* احد الكواكب اللامعة في السياسة الخارجية الأميركية منذ انقضاء الحرب العالمية الثانية هو مدير اللجنة التنفيذية لشركة النيكل الدولية واحد اعضائها ، ورئيس مكتب سوليفان وكرومويل القانوني الذي تعتمده الشركة وتستشيره في كل "مهمٍ" من امرها .

اما الالومنيوم فتستبد به مجموعة رأسمالية واحدة هي اسر ميلون Mellon . وهذه الشركة العائلية (شركة الالومنيوم الاميركية Aluminum Corp. of America وتعرف اختصاراً باسم آلكووا Alcoa) تُسيطر على القسم الاعظم من إنتاج الالومنيوم العالمي من طريق سيادتها المطلقة على هذا الميدان ، في الولايات المتحدة وكندا ، وسلطانها على الشركات النروجية والايطالية ، وامتلاكها لحقول مادة البوكسيت في غينيا البريطانية والهولندية ، وفي يوغوسلافية وفرنسة . وتعاظمَ نموّ « آلكووا » تعاظماً هائلاً اثناء الحرب العالمية الثانية عندما اخذ انتاج الطائرات الحربية يستهلك مقادير قياسيةً من الالومنيوم . وفي الوقت نفسه أزيحت من الميدان ، موقتاً ، منافستها العالمية الرئيسية أعني تروست

* وهو وزير الخارجية الاميركية الحالي . [المعرب]

الالومنيوم الالمانية. والواقع ان إنتاج شركة « آلكووا » تضاعف ثلاث مرات في ما بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٨ ، وان حصتها من مجموع انتاج العالم الرأسمالي ازدادت من ٤٠ ٪ الى ٦٥ ٪ ، على الرغم من ان شركتين جديدتين ، كايزر Kaiser ورينولدس Reynolds ، اقتحمتا ميدان إنتاج الالومنيوم في الولايات المتحدة. وبانشاء هاتين الشركتين صارت الرساميل الاميركية تهيمن على نحو ٨٥ ٪ من مجموع إنتاج الالومنيوم الاولي في العالم الرأسمالي.

الامبراطوريات الصناعية

ولكن سلطان الشركات الاميركية الكبرى في البلدان الاجنبية ليس مقصوراً على استخراج المواد الخام وإعدادها للاستهلاك إعداداً اولياً ، فالاحتكارات الصناعية الضخمة تُغرق اسواق العالم بمنتجاتها ايضاً. والواقع ان مصانع فورد وجنرال موتورز اخرجت وحدها ٤٠ ٪ من مجموع انتاج السيارات في العالم الرأسمالي كله ، باستثناء الولايات المتحدة، سنة ١٩٤٨ . ولجميع المصانع الاميركية الكبرى تقريباً مصانع فرعية منثورة في طول العالم الرأسمالي وعرضه.

والمركز المتفوق الذي تحتله مجموعة مورغان في الصناعات الكهربائية بالولايات المتحدة — ابتداء من الراديو الى مولد الطاقة ومن البراد الى التلفون — معروف مشهور . وهذه الامبراطورية تنتظم العالم بأسرهِ او تكاد .

وواسطة العقد في امبراطورية مورغان العالمية هي شركة جنرال اليكتريك ، اقوى التروستات الاميركية في ميدان الكهرباء .

والواقع ان هذه الشركة العملاقة تملك ما يتراوح بين ١٥ ٪ و ٤٩ ٪ من اسهم الشركات الكبرى المنتجة للمعـدات الكهربائية في اليابان ، وألمانية ، وفرنسة ، ومراكش، وانكلترة، وايطالية. كما تملك نسباً اخرى متفاوتة من اسهم الشركات المنتجة للمعدات الكهربائية في النمسا ، وبلجيكة ، وتشيلي، وهولندة ، واسبانية، والسويد ، وتركية . اما في الارجنتين ، والبرازيل ، والمكسيك واوروغواي ، وجنوبي افريقية ، والصين فتملك مصانع لانتاج المعدات الكهربائية لا يشاركها فيها احد .

ولا يزال توسع « جنرال ايلكتريك » الخارجي ينمو في اطراد. وقد بلغت الرساميل الجديدة التي وظفتها في البلدان الخارجية خلال السنوات الاربع التي عقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية ٨٥ مليون دولار . (نحو ربع مجموع الاموال التي وظفتها الشركة في تلك المدة نفسها .)

نظام المحالفات الدولية الاقتصادية

لقد درسنا الى الآن اقتسام ملكية المشروعات الصناعية من طريق تصدير الشركات الكبرى لرأس المال. فلننظر ههنا في ظاهرة جديدة من ظواهر الاستعمار البارزة وهي اقتسام اسواق العالم الرأسمالي من طريق نظام المحالفات الاقتصادية الدولية Cartel System . وقد تختلف هذه المحالفات في طرائقها ولكنها تلتقي جميعاً عند اصولٍ ومبادىء لا تعدوها .

اما اول هـذه المبادىء فالاحتفاظ بأسعارٍ احتكارية مرتفعة .

وثانيها احتكار الاسرار التقنية technical في ما بين الشركات التي تنتظمها المحالفة . وثالثها تعديل الانتاج من طريق أنصبة (كوتا) متفقٍ عليها ومبنيةٍ على اساسٍ من حالة الاسواق في العالم الرأسمالي. اما رابع هذه المبادىء فتقسيم الاسواق تقسيماً إقليمياً يجعل من هذه المنطقة او تلك سوقاً تستقل به بعض الشركات الوطنية ، ويوزع مناطق البيع في الاسواق الاخرى .

وفي ميسورك ان تكوّن فكرةً عن الارباح التي جنتها التروستات الاميركية من طريق المحالفات الاقتصادية الدولية المعقودة بعد الحرب العالمية الثانية إذا علمت ان شركة * الهندسة والسبك المتحدة في بيتسبورغ ** – وهي تقع ضمن دائرة نفوذ « ميلون » ولكنها متصلة ايضاً بأحد المصارف النيويوركية التي يسيطر عليها مورغان – هي اكبر التروستات التي تقتسم في ما بينها اسواق الفولاذ في العالم ، وانها عقدت سنة ١٩٤٧ اتفاقات مع الشركات الاجنبية المنافسة انحدرت بهذه الشركات الى مرتبة وكيل يبيع لحساب شركة الهندسة والسبك المتحدة ، لقاء عمولةٍ معينةٍ في معظم بلدان العالم ، ولكنها أذنت لها في ان تبيع منتجات من صنعها هي في مناطق محدودة جداً ، شرط ان تدفع الى شركة الهندسة والسبك ضريبةً عن هذه المبيعات ...

ومثل هذا الوضع كان قائماً ، قبل الحرب العالمية الثانية ، في صناعة المعدات الكهربائية. فقد ابتلعت شركتا جنرال ايلكتريك

* United Engineering and Foundry Company of Pittsburgh.

** بيتسبورغ مدينة في بنسلفانيا مشهورة بصناعة الحديد والفولاذ. [المعرب]

(مورغان) ووستنكهاوس (ميلون – روكفلر) سائر الشركات المنافسة لهما في الولايات المتحدة وقسمتا السوق المحلية في مابينهما.. ليس هذا فحسب بل لقد وظفتا رساميل كبيرة خارج الحدود الاميركية وقاسمتا الشركة الاجنبية اجزاء كبيرة من السوق العالمي . وفي سنة ١٩٣٠ تمّ اقتسام الاسواق في العالم الرأسمالي من طريق محالفة اقتصادية دولية Cartel عقدت بين تسعٍ من شركات المعدات الكهربائية العالمية وعلى رأسها الشركتان الاميركيتان العملاقتان ...

ولكن ما المعاني التي تستفاد من هذا كله ؟

يستفاد من هذا **أولاً**، ان المعدات الكهربائية الثقيلة لا يمكن ان تشترى في ايما بقعةٍ من العالم الرأسمالي من غير ان يدفع المشتري الجزية الخاصة التي تفرضها شركات الاحتكار التسع . **ثانياً** ، ان القوى الرأسمالية التي تقف من وراء الشركات الكهربائية في كلٍ من البلدان الاستعمارية تملك قوة النقض او « الفيتو » في ما يتصل بتطوير الطاقة الكهربائية وبالصناعات المسيرة بها في اقطار العالم الرأسمالي قاطبة . **ثالثاً** ، ان لمؤسسة مورغان ، بفضل مركزها الخاص ، وتدخلها العريض في الشركات الاخرى ، وسيطرتها العارمة على براءات الامتياز، الصوت الأعلى في هذا الاحتكار...

فاذا رغب نفر من اهل البرازيل مثلاً في ان يقيموا منشآت لتوليد الطاقة الكهربائية فيتعيّن عليهم ان يشتروا المولدات والتربينات turbines من الشركات المنتظمة في هذا الاحتكار الدولي ، ويدفعوا اليها الجعالة الدائمة التي تفرضها عليهم ، ويعهدوا في إقامة

هذه المنشآت الى مؤسساتٍ هندسية تربطها بشركات الاحتكار رابطة نسبٍ أو قربى . ليس هذا فحسب ، بل يتعيّن على اولئك البرازيليين ايضاً ان لا ينتهجوا ايما سياسة قد تعود بأذىً جدي على مصالح شركات الاحتكار في البرازيل ...

فاذا رغب البرازيليون في اجتناب الوقوع في هذا الشرك ففي ميسورهم ان يفزعوا الى شركة جنرال ايلكتريك البريطانية التي تملك الرساميل الاميركية ٤٠ بالمائة من اسهمها ، او الى شركة جنرال ايلكتريك الالمانية التي تبلغ حصة الرأسماليين الاميركيين ١٨ بالمائة من اسهمها ليس غير !... وحيثما تلفّت اولئك البرازيليون فلن يقعوا إلا على شركات خاضعةٍ إما لسيطرة جنرال ايلكتريك أو لسيطرة وستنكهاوس ...

امبراطورية المصارف

وكما تقف المصارف الكبرى من وراء الاحتكارات الصناعية في الوطن ، كذلك تشارك في النشاط الاقتصادي الذي تقوم به الشركات الاميركية في مختلف البلدان الأجنبية . وإنما تلعب هذه المصارف دور المُغْري بالتوسع الخارجي ، المُفاوِض من اجل تحقيقه . والواقع ان اصحاب مصارف التوظيف كانوا ، قبل عام ١٩٣٠ ، يقرضون المشروعات الأجنبية ويروّجون لها بصورة مباشرة ، ولكنهم فرضوا سيطرتهم منذ الحرب العالمية الثانية على ادوات اكثر فعالية . وليس من ريب في ان كل سنتٍ (فلس) من القروض الهائلة التي تعقدها الولايات المتحدة مع

البلدان الاخرى او التي تُقدّم الى هـذه البلدان من طريق البنك الدولي إنما يقدمها في الواقع أصحاب مصارف التوظيف الكبرى في اميركة . ولعلك تعجب إذا علمت أن ممثلي اصحاب المصارف هؤلاء ، المباشرين ، يحتلون المناصب الرئيسية في وكالات الأقراض والتسليف ، وأن رجالهم يديرون بأنفسهم وزارة المالية الاميركية ، وانهم قد انشأوا لجنة استشارية لتوجيه الحكومة في القضايا المالية الدولية ...

وفوق ذلك كله تشارك المصارف الاميركية ، مباشرة ، في مشروعات التوظيف المالي في الخارج . والحق ان للمصارف الأميركية الأربعة الكبرى : **ناشيونال سيتي** * ، **وتشايس ناشيونال** (روكفلر) **وغارانتي تروست** (مورغان) ، **وبنك اميركة** (جيانيني) ، فروعاً كثيرة خارج الولايات المتحدة ، وانها تتمتع بالنفوذ الأقوى في ميدان النشاط العالمي الذي تقوم به الرساميل الأميركية .

الامبراطورية الاقليمية

والحق أن تقسيم العالم ما بين الكتل الصناعية والمالية يجري جنباً الى جنب مع تقسيم العالم الرأسمالي تقسيماً جغرافياً الى امبراطوريات استعمارية تخضع كل منها ، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، لمركز معين من مراكز القوة والسلطان . واليك

* ولمورغان أعظم السيطرة على هذا المصرف الضخم الذي يبلغ عدد فروعه واحداً وخمسين فرعاً منثورة في أرجاء العالم . [المؤلف]

فيما يلي خريطة " تقريبية " للامبراطورية الاميركية . وقد اجتزأنا فيها بذكر البلدان التي رسخت فيها السيطرة الاميركية الاستعمارية رسوخاً جعل مرافقها القومية المهمة ملكاً للرساميل الاميركية او خاضعة لسلطانها . أما النجوم فتشير الى البلدان التي اعتبرها البروفوسور توماس باركر مون Moon منذ سنة ١٩٢٦ ، جزءاً من الامبراطورية الاميركية ، في كتابه الموسوم بـ « الاستعمار والسياسة العالمية . »

الامبراطورية الاميركية سنة ١٩٥٠

	عدد السكان سنة ١٩٤٧ (بالملايين)	التروستات الاميركية او المرافق التي تسيطر عليها
ألاسكا *	٠،١	شركات صيد الاسماك
كندا	١٣	شركات مختلفة
غرينلاند	٠،٠٠٢	شركة « آلكووا »
كوبا *	٥	تروستات السكر
المكسيك	٢٣	معادن مختلفة
ثمانية بلدان صغرى في اميركة الوسطى * وبحر الكاريبيان	١٥	شركة الفاكهة المتحدة ناشيونال سيتي بنك
بورتو ريكو*	٢	تروستات السكر
فنزويلا	٤	ستاندارد اويل (نيوجيرزي)
كولومبيا	١١	ستاندارد اويل (نيوجيرزي)
بـيرو	٨	و.ر. غرايس (النقل البحري) سيرو دي باسكو (النحاس)
شيلي	٦	شركة آناكوندا وشركة كنيكوت (النحاس)
بوليفيا	٤	شركة المعادن الاميركية (الصفيح)
البرازيل	٤٨	شركات مختلفة

غينيا (الهولندية والبريطانية)	١	شركة آنكووا (البوكسيت)
هوايي *	٠،٥	شركات السكر
الفيليبين *	٢٠	شركات مختلفة
العربية السعودية والبحرين	٦	اربع شركات كبرى للنفط
تركية	١٩	الكروميت
اسرائيل	١	شركات مختلفة
اليونان	٨	التبغ
ليبيريا	٢	شركة فايرستون للمطاط ، شركة الفولاذ الجمهورية
مجموع السكان	١٩٧	

وفي خمسة بلدان اخرى على الاقل نما النفوذ الاميركي نمواً كبيراً ، وشرعت الرساميل الاميركية تزحزح الرساميل البريطانية وغيرها عن مكانتها :

	عدد السكان (بالملايين)
الارجنتين	١٦
أسبانية	٢٨
مصر	١٩
طايلند	١٧
يوغوسلافية	١٦
مجموع السكان	٩٦

ولليابان (٧٨ مليون نسمة) والمانية الغربية (٤٨ مليون نسمة) وضعٌ خاص . فالقوات الاميركية المسلحة تحتل هذين البلدين ، والرساميل المالية الاميركية تسيطر على تجارتهما الخارجية . وقد وظفت شركات الولايات المتحدة اموالاً ضخمةً فيهما منذ انقضاء الحرب العالمية الثانية . ولكن اليابان والمانية الغربية بلدان متطوران ، لا يزال ابناؤهما يملكون معظم الصناعات الاساسية . والنضال الشعبي ضد الاحتلال الاجنبي في كلا البلدين قويٌّ الى

درجة حملت وول ستريت على التردد في بسط اشرافه المباشر على مرافق الاقتصاد الحاسمة . ومن هنا فأن الحكم الاستعماري الاميركي لما تُوطَّدْ اركانه توطيداً كاملًا في هذين البلدين .

وهكذا نستطيع ان نُجمل في ما يلي مناطق السلطان الاستعماريّ الاميركي كما تبدو سنة ١٩٥٠ ، آخذين بعين الاعتبار اختلاف ظلال السيطرة ودرجاتها :

	عدد السكان سنة ١٩٤٧ (بالملايين)
الولايات المتحدة الاميركية .	١٤٤
بلدان تسيطر الولايات المتحدة على مرافقها الاقتصادية سيطرة تامة .	١٩٧
بلدان في سبيلها الى الخضوع للسيطرة الاميركية .	٩٦
بلدان تحتلها الولايات المتحدة احتلالاً عسكرياً ، ولكن حكمها الاستعماري لم توطد أركانه فيها .	١٢٦
مجموع سكان الامبراطورية الاميركية ، بمعناها الواسع .	٥٦٣

والحق ان سكان بريطانية ومنطقتها الاسترلينية يبلغ عددهم اكثر من هذا الرقم بقليلٍ . ولكن من الخطأ ان نستنتج من ذلك ان الامبراطورية البريطانية اكبر من الامبراطورية الاميركية . ذلك بأن قبضة الاستعمار البريطاني هي اليوم أضعف مما كانت امس . وإن عدداً من البلدان التي تشكل اجزاء رئيسية في تلك الامبراطورية بسبيل الانفصال عنها او الانضواء تحت راية الاستعمار الاميركي الاقوى . وفي بعض المناطق البريطانية

الأخرى يتصدّر الرأسماليون الأميركيون لمشاركة زملائهم الغنيمة في نسبٍ متزايدة ، وهو وضعٌ لا نجد ما يقابله في الامبراطورية الأميركية .

وهكذا نرى ان الامبراطورية الاميركية هي اليوم ، في الواقع ، اوسع واقوى امبراطورية استعمارية على ظهر هذا الكوكب . وأن نحواً من ثلث سكان العالم الرأسمالي ليعيشون ضمن نطاقها . وأياً ما كان فأن منطقة نفوذ رأس المال الاميركي أوسع من ذلك أيضاً . فهي تشمل جميع بلدان اوروبة الغربية المنتظمة في مشروع مارشال ، ومستعمرات هذه البلدان وأنصاف مستعمراتها . وليس من ريب في أن نفوذ اميركة العسكري والاقتصادي آخذٌ في التعاظم على تفاوت في القوة والسرعة ، في جميع هذه الأمصار . وكلما ازداد تورطُ العناصر التي تحكم تلك البلاد في مشروع مارشال ، والحلف الأطلسي ، وإعداد العدّة لحرب عالمية ثالثة انتهت حرية التصرف عندهم إلى أن ترسف في قيودٍ أشدّ ، وأغلالٍ أثقل .

وهذه المناطق ، اذا ما اضيفت الى بلدان الامبراطورية الاميركية نفسها ، تؤلف العالم الرأسمالي بقضّهِ وقضيضه .

٣ . وول ستريت ومأساة الزنوج ...

•

يبتز الاستعمار الاميركي اليوم ارباحاً ضخمةً من اجزاء العالم الرأسمالي جميعاً . ولكن الركن الأساسي الذي تقوم عليه ارباح وول ستريت الفاحشة ، والذي يدر على امراء هذا الحي المالي عائدات تفوق تلك التي يجنونها من ايما بلدٍ اجنبي منفرد ، هو اضطهاد الشعب الزنجي في الولايات المتحدة نفسها .

والواقع ان مكاسب عديدةً تمت للزنوج في السنوات التي تلت الحرب الأهلية مباشرةً . فقد احتل ممثلوهم عدداً من مقاعد الكونغرس ، واشتركوا في مجالس الولايات التشريعية ، وأسهموا مع حلفائهم البيض في إدارة عددٍ من حكومات الولايات الجنوبية . لقد قاتلوا من اجل ملكية الارض ، وحق التصويت ، وحق حمل السلاح ، وحق التعليم ، وضد ضروب الأيثار والتمييز على اختلاف اشكالها .

ولكن هذه الثورة الاميركية الثانية لم تُستكمل . وهي لن تبلغ كمالها إلا حين تتم للزنوج ملكية الارض التي حرثوها طوال اجيالٍ عديدة ، وبذلك يتوفر لهم اساس اقتصادي لتحقيق تحررهم الرسمي من العبودية . والذي لا ريب فيه ان الصناعيين من اهل

الشمال ، الذين سيطروا على الحكومة الفدرالية في عهد الحرب الاهلية،لم يكونوا راغبين في تحرير الشعب الزنجي تحريراً صحيحاً . كل ما كانوا يسعون بسبيله هو ان يحلوا محل مالكي العبيد الجنوبيين في استغلال الشعب الزنجي اقصى ما يكون الاستغلال . والحق ان النهج السياسي الذي اتبعه الحزب الجمهوري والجيش في الولايات الجنوبية كان تحالفاً مع مالكي العبيد السابقين لأخضاع الشعب الزنجي من جديد . اما النهج الاقتصادي الذي اختاره فكان يهدف الى منع الشعب الزنجي من امتلاك الأرض ، وإقامة نظام الانتاج على اساس جديد تكون حصة الأسد فيه لأصحاب المصارف والمصانع والتجار من اهل الشمال ، في حين يكون مالكو الاراضي الجنوبيون شركاء ثانويين ومناظرين عاديين .

وقد بلغت هذه العملية اوجها خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر عندما وجد ضغط الاحتكارات المصرفية والصناعية ، لأول مرة ، متنفساً كبيراً له في الجنوب . وفي هذا العقد على الخصوص والسنوات التي تلته مباشرة رُفعت القواعد للتنكيل بالشعب الزنجي في الجنوب . فوضعت دساتيرُ للولايات جديدةٌ على اساس التمييز ما بين السود والبيض ، وطُرِد الزنوج من مجالس الحكومات المحلية ومن الكونغرس الاميركي . وسُجّل في مدى ثلاث عشرة سنة نحو الفي حادثة من حوادث الاعدام غير المشروع الذي أنزل بالزنوج ظلماً وعدواناً .

وسار اخضاع الشعب الزنجي ، اقتصادياً ، مع حملة الارهاب والتنكيل جنباً الى جنب . فما هي الا فترة حتى أبعد العمال

الزنوج عن الأعمال ذات الرواتب العالية وحيل بينهم وبين بعض الصناعات بالكلية (المنسوجات القطنية مثلاً) . فالتمسوا الرزق من طريق القيام بأعمال البناء الشاقة ، والالتحاق بالمناجم . واتخذت إجراءات خاصة للحؤول بين الزنوج وامتلاك المزارع ، ولفرض العبودية الزراعية والعمل الصناعي ذي الأجل الضئيل على اكبر عددٍ منهم .

وفي الوقت نفسه ضيّق اصحاب المصارف والاحتكارات الصناعية الشمالية الخناق على الحياة الاقتصادية الجنوبية لكي يبتزوا الارباح الفاحشة من الشعب الزنجي المضطهد . فعززوا صناعة الفحم والحديد والفولاذ والقطن والتبغ ووسعوا شبكة السكك الحديدية واخضعوا ذلك كله ، على تفاوت في الدرجة ، لسلطان رأس المال الشمالي . وفي السنوات التالية تضاعفت الأموال الشمالية الموظفة في اصقاع الجنوب وامتدت الى صناعاتٍ جديدةٍ — كالنفط ، والطاقة الكهربائية ، والحرير الصناعي والمواد الكيميائية — امتداداً عجيباً جعل أنصبة الشماليين فيها اكبر من انصبتهم في الصناعات القديمة نفسها .

وهكذا حُوّل الجنوب ، عملياً ، الى نصف مستعمرة لوول ستريت ، وانتهى الزنوج الى ان يكونوا عمالاً شبه مسخرين في تلك المستعمرة .

ومع الايام ازداد عدد الزنوج واشتدت حاجة المصانع الشمالية وبخاصة ايام الحروب ، الى العمال . فشُجع ملايين من الزنوج على الانتقال الى الشمال حيث انزل بهم اقطاب المال انفسهم ضروب

الاضطهاد والاستثمار عينها، ولكن باشكالٍ اقلّ وضوحاً من تلك التي عرفوها في الجنوب .

استغلال الزنوج استغلالاً فاحشاً

والشعب الزنجي ، كالشعوب المستعمَرة ، لا يملك صناعةً ما ، وليس له غير نصيب ضئيل جداً في ملكية رأس المال باي شكلٍ من أشكالها . ومع ذلك فهو يقدّم مقداراً غير متوازن من العمل الثقيل الذي تجني منه الرساميل الاميركية أرباحها الأسطورية . فنحو ثلاثة أرباع العمال الذكور غير البيض كانوا يعملون في سنة ١٩٤٠ كزرّاع او عمال او مستخدمين . اما العمال البيض في هذه الحقول فبلغت نسبتهم الثُلث تقريباً .

وهكذا فأن طفيليّة الحياة الاميركية المتعددة الجوانب التي تعتنق عدة ملايين من السكان ، واجور العمال الفنيين المرتفعة نسبياً إنما تنهض الى حدٍ غير يسير على كدح الشعب الزنجي القاصم للظهور في المزارع والمدن .

وفي سنة ١٩٤٧ بلغ متوسط دخل العامل الابيض ١٩٨٠ دولاراً سنوياً، في حين بلغ متوسط دخل العامل غير الابيض ٨٦٣ دولاراً ، أي ٤٣،٦٪ من دخل زميله الابيض . *

وهذا الفرق الذي ينيف على ١١٠٠ دولار يمثل مقدار الدخل الاضافي والارباح الفاحشة التي يبتزها اصحاب العمل من العامل

* U. S Dept. of Commerce, Report P - 60, Incomes of Families and Persons in the United States, 1947, table 22, p. 29.

الزنجي المتوسط زيادةً على الارباح السوّية normal التي يجنونها من العامل الابيض . والواقع ان الدعاية البيضاء تزعم ان الزنجي دون زملائه البيض مقدرةً وبراعة ؛ وأنه أقلّ منهم انتاجاً، ومن أجل ذلك فهو غير جدير بأن ينال ما ينالون من أجور مرتفعة نسبياً ... وليس من ريب في ان الشعب الزنجي لا يتمتع بفرصٍ للتربية متكافئة مع تلك التي يتمتع بها البيض . وحتى الثقافة التي يُوفّق الزنوج الى اكتسابها في بعض الأحيان لا تغني عنهم شيئاً ، من هذه الناحية . فالاحصاءات الحكومية تُظهر أن الاميركي الابيض الذي درس أربع سنوات أو خمس سنوات في الجامعة يبلغ متوسط دخله السنوي ٢٠٤٦ دولاراً ، في حين ان الاميركي الزنجي الذي أتم مراحل الدراسة نفسها يبلغ متوسط دخله السنوي ١٠٤٧ دولاراً . والمواطنون البيض الذين لم يتجاوزوا مرحلة التعليم الثانوية لا يكسبون ضعف ما يكسبه الزنوج الذين يساوونهم ثقافةً فقط، بل يزيد دخلهم بنسبة ٤٠٪ على دخل خريجي الجامعات من الزنوج . ليس هذا فحسب ، بل ان الاميركيين البيض الذين لم يعدُوا مرحلة التعليم الابتدائي يكسبون اكثر من الزنوج الجامعيين ، ويبلغ متوسط دخلهم ٧٠٪ اكثر من متوسط دخل امثالهم من الزنوج *

وليس من ريب في ان إيثار البيض على السود في ميدان العمل هو رذيلةٌ في ذاته . ولكنه ليس القصة كلها بحالٍ من الاحوال . فالحق ان العامل الزنجي لا يُعطى اجراً اقل لقاء عملٍ أقل ، بل

* U. S. Dept. of Commerce, Report P-46, No. 5, Educational Attainment by Wage or Salary Income : 1940, p. 8, table 5.

لقاء عملٍ يَعْدِل العمل المطلوب من العامل الابيض او يزيد عليه من حيث الكمّ والكيف جميعاً .

صحيحٌ ان الزنوج معزولون في اعمـــال مخصوصة . ولكن هذه الاعمال ليست ، على أية حالٍ ، اسهل الأعمال او اقلها حاجةً الى البراعـة . إن عكس ذلك تماماً هو الصواب . فالعمل الذي يُسند الى الزنجي عادةً هو اكثر الأعمال مشقة ، وأشدها خطراً ، وأكرهها الى النفس ، وأبلغها إيذاءً للصحة . والعمال الذين يؤدون هذه المهامّ نفسها في الاتحاد السوفياتي إنما يُكافأون على ادائهم إياها بأجور اعلى ، وساعات من العمل اقلّ ، وعُطل اطول آجالاً .

ويلاحظ جنر ميردل Gunnar Myrdal في كتابـه « مأزقٌ اميركي » ان واحداً بالمئة من العمال في شعبة الادوات من شركة فورد للسيارات ، حيث الاجور مرتفعة جداً ، هم من الزنوج ، في حين ان ٤٧٪ من العمال في قسم الصبّ والسبـــك من الشركة نفسها ، حيث الاجور منخفضة جـــداً بالرغم من ان العمل هناك اشق واخطر وبالرغم من انه يقتضي براعة مماثلة ، هم من اصحاب البشرة السوداء * .

اما روبرت ويفر فينص في كتاب له عن مشكلة العمل عنـد الزنوج على ان الكثرة الكبيرة من العمال الزنوج في الشمال يعملون في مصانع الصبّ ، وغيرها من المصانع الحارّة ، الكريهـة ، التي تقدّم الى عمالها اجوراً منخفضة نسبياً ** .

* Myrdal, An American Dilemma, Vol. II, pp 1076 ff.

* * Robert C. Weaver, Negro Labor, a National Problem, p. 8. N. Y., 1946.

وفي ميسور القارىء ان يكوّن فكرة عن الأحـــوال التي يعمل هؤلاء الزنوج في ظلها من تقرير وضعته بعثة بريطانية زارت سنة ١٩٤٩ مصانع سبك الفولاذ في الولايات المتحدة بدعوة من ادارة مشروع مارشال ، لتعليم الاوروبيين «طريقة العيش الاميركية» . فقد وجدت هذه البعثة ان ٥٥ ٪ من الخمسة والسبعين الف عامـل هم من الزنوج و ١٥٪ هم من «العمال الاوروبيين بولونيين وتشيكيين وإيطاليين وغيرهم» ، و ٣٠٪ هم من « العمال الاميركيين البيض » .

اما عن احوال هؤلاء الزنوج الذين يؤلفون الغالبية الكبيرة من العمال المنتجين في تلك المصانع ، والذين يقدّم كلٌ منهم مجهوداً يزيد ما بين ٥٠ ٪ الى ٩٠ ٪ على ما يقدمه زملاؤه في مصانــــع الصبّ والسبك البريطانية ، فيقول التقرير إن البعثة وجدت العمال الزنوج « منهمكين في عملٍ شاقّ الى حد بالغ ، حاملـين بأيديهم مطارق ثقيلة من حديد . » وان هؤلاء العمال يشتغلون شغـــلًا متواصلًا « فلا يكاد النهار ينتصف وتعلن الصفارة بدء عطلة الظهيرة حتى ينطرحوا على وجوههم ، حيث يعملون ، ويستسلموا لسلطان الرقاد . » ويشير التقرير فوق ذلك الى انعدام الوقاية من تتريب الرئة بسبب استنشاق الرمل والتراب Silicosis و « تضحية السلامة على مذبح السرعة » و « جوّ الاهمال الذي يسود الأبنية جميعاً » .

وتعزو البعثة هذه الاحوال كلها الى رغبة اصحاب الاعمـــال « القساة القلوب » في ان ينتزعوا من عمالهم اعلى قدْر ممكن من الانتاج حتى في ايام الكساد . ولكن لمـاذا يرتضي الزنوج القيام بهذه الاعمـال التي يعافها معظم العمال البيض ؟ هنا يزعم الزوار

Library

البريطانيون الذين اعتادوا استغلال الشعوب السوداء في إفريقية ، ان الزنوج « يجدون لذة كبيرة » في هذا النوع من العمـــل ، وانهم يشتغلون في ازدراء كامل للنصب والاعياء ، وانهم «يألفون» الحرارة المرتفعة ارتفاعاً كبيراً ... *

وفي الزراعة يظهر الاضطهاد الاستعماري الذي يخضع له الزنوج في اكثر اشكاله تطرفاً . فغالبية الزراع الزنوج يعملون على أراضٍ ليست ملكاً لهم ويقدمون ما يزيد على نصف غلالهـم اجوراً للمالكين . واكثر من هؤلاء عدداً اولئك الزنوج الذين يستأجرهم اصحاب الاراضي لقاء أجرٍ معلوم ، وهذه الفئة هي التي تعاني من الاستغلال أشده وأقساه . ففي تموز سنـــة ١٩٤٧ كان متوسط التعويض اليومي المدفوع الى الأجير المزارع في الولايات الغربية الشمالية الوسطى حيث يُستخدم عدد قليل جـــداً من الزنوج ، ٦ دولارات و ٥٢ سنتاً. اما في الولايات الشرقية الجنوبية الوسطى حيث نصف العمال الزراعيين تقريباً من الزنوج ، فقد بلغ متوسط ذلك التعويض ٣ دولارات و ٢٤ سنتاً . ليس هذا فحسب ، بل إن متوسط دخل جميع الأسر البيضاء العاملة في المزارع بلغ ٢١٥٦ دولاراً سنة ١٩٤٧ ، في حين بلغ متوسط دخل جميع الأسر الملونة ١٠٢٦ دولاراً — اي ان الفرق بين الدخلين يكاد يبلغ نفس الفرق الذي وجدناه قائماً بين دخل العامل الصناعي الأبيض ودخل العامل الصناعي الأسود ، وهو ١١٠٠! دولار ... **

* Anglo - American Council on Productivity, Steel Founding, London, 1949.

** Incomes of Families and Persons in the United States 1947, p. 16, table 2.

ولكن كم تبلغ الأرباح الفاحشة التي يبتزها الاستعمار الاميركي من استغلال الشعب الزنجي استغلالاً إضافياً ؟ إن في ميسورنا ان نقع على جواب تقريبي إذا اعتبرنا فرق الألف ومئة دولار الذي أشرنا اليه ربحاً إضافياً ، ثم ضربنا هذا الرقم بعدد العمال الزنوج المنتجين في حقلي الزراعة والصناعة ، وقد بلغ سنة ١٩٤٧ نحو ثلاثة ملايين ونصف ، وعندئذ تكون النتيجة ربحاً إضافياً إجمالياً يبلغ اربعة مليارات دولار تقريباً .

والواقع ان هذه العملية الاحصائية لا تشمل غير منتجي السلع من العمال الزنوج . انها تُسقط من الحساب ، مثلاً ، مئات الالوف من النساء الزنجيات اللواتي يتركن بيوتهن ليخدمن في منـــازل المواطنين الاثرياء لقاء عشرة دولارات اسبوعيـاً ، في الجنوب ، وما بين عشرين الى خمسة وعشرين دولاراً اسبوعيـــاً في الشمال (باستثناء مدينة نيويورك .)

وأياً ما كان فان رقم الاربعة مليارات دولار يمثل تقديراً محافظاً لما يكسبه الاستعماريون الاميركيون من اضطهاد الشعب الزنجي لانه يهمل مورداً مهماً من موارد الربح الفاحش اهمالاً كلياً . وتفصيل ذلك ان الشعب الزنجي في الولايات المتحـــدة ، يُقتضى اسعاراً أعلى من الاسعار الاحتكارية العادية السائدة في هذه البلاد . ففي الريف الجنوبي يتعين على السكان الزنوج ان يدفعـوا اسعاراً اضافية في مخازن القرى ... وفي المدن يُعزل الزنوج في مناطق مخصوصة من مثل منطقة « هارلم » Harlem في نيويورك ، حيث تباع السلع ، على رغم رداءتها النسبية ، بأسعار أعلى ممـــا تباع في المناطق المجاورة . وانما تتجلى هذه النزعة الى استغلال الزنوج ابشع

ما تتجلى ، في اجور المنازل. والواقع ان احقر احياء العمال القذرة slums التي تعرفها مدينـــة نيويورك، والتي تملكها اكبر شركات التأمين وشركات الرهون وغيرها إنما تقوم في منطقـــة « هارلم » الآنف ذكرها . ولكن اجور المنازل ههنا اعلى منهـــا في سائر المناطق العمالية بنسبة خمسين بالمئة !...

اضف الى ذلك ان ايما محاولة إحصائية لا تستطيع ان تتسع لآلام البغي نصف العبودي" الذي يحيـــا في ظله ملايين الزنوج الاميركيين. فأسر الحصادين التي تتعاقد على العمل كأسر، يُكره افرادها جميعاً — الشيوخ والنساء والاطفال الصغار ابتداء من سن الخامسة — على ان يعملوا في الحقول من مطلع الفجر حتى الغروب. ومن طريق الديون العجيبة وسنن العبودية المقنّعة باقنعة رقاق يحيا هؤلاء الزنوج شبه سجناء او أسرى يحق لمالك المزرعة القاء القبض عليهم إذا ما حاولوا مغادرتها . اما المهاجرون الذين لم تعد الحاجة اليهم ماسة في المزارع الجنوبيـة فأنهم يعيشون تحت رحمة ملتزمي الاعمال بالمزارع الشمالية الرأسمالية وفي أُسرهم . . . وهل ننسى اخيراً ، مئات الالوف من الزنوج الذين يُعتقلون كل سنة ، في الجنوب ، لغير ما جريمة اقترفتها ايديهم ، ابتغاء إجبارهم على العمل المسخّر في مزارع السجون وفي الشوارع والطرق لمصلحة شركات الاغذية والملتزمين الذين يجنون ثمرات عملهم غير المأجور !

مظاهر الاضطهاد السياسي

إنّ في وضع الشعب الزنجي في الولايات المتحـدة مِصداقاً

لقول كارل ماركس المأثور : « لا يستطيع العمل ان يُعتق نفسه في البشرة البيضاء حيث يكون مُسترقاً أو مُستعبَداً في البشرة السوداء.» وليس من ريب في ان هذا المنطق ينطبق على الاستغلال الاستعماري الفاحش للشعوب المستضعَفة بشكل عام ولكنه في الحالة الخاصة بالشعب الزنجي ، يقع في قلب الوطن الأمّ ، ويترك اثره المباشر في وضع العمال البيض انفسهم .

ومهما يكن من امر فأن زعماء نقابات العمال في الولايات المتحدة ، باستثناء قلةٍ صغـــيرة من التقدميين ، يشجعون اضطهاد العمال الزنوج ويعملون على ترسيخ قواعده وتوطيدها . والواقع ان عدداً من نقابات الحرف التي تقتضي براعة خاصة يُحظر على الزنوج الانتماء اليها تحظيراً صريحاً ، في حين تُغلق عـــدة" من النقابات الاخرى ابوابها، بصورة غير مباشرة ، في وجه الزنوج من طريق نظام التدرّب والاجازة الذي تفرضه على اعضائها . ليس هذا فحسب، بل ان النقابات الصناعية القوية لتقصر تقصيراً فاضحاً في حمل اصحاب العمل عـلى منح عمـــالهم السود حقوقاً متساوية والحقوق التي يمنحونها عمالهم البيض، وفي النضال ضد قاعدة « آخر من يُستأجر ، وأول من يُسرّح ويُطرد » التي يطبقهـــا اصحاب العمل ضد الزنوج ، وفي الحيلولة دون فرض الأعمال الاكثر مشقة والأقل اجراً على العناصر الزنجية في المحل الاول ، وفي المطالبة بان يتولى العمال الزنوج بعض المناصب في النقابات الخ . . .

لقـــد انتشرت سموم التعصب العرقي في طول البلاد وعرضها وتسربت الى مجاري الحياة الاميركية جميعاً . فاذا بجماهير الشعب

تتعود اصطناع تعابير الاستخفاف والاحتقار في معرض الاشارة الى الشعب الزنجي والاقليات القوميــة الاخرى . والحق ان الطبقات الحاكمة قد حاولت قسمة الأمة الاميركية الواحدة إلى طوائف متباينة على اساسٍ من الأصل القومي . وعلى الرغم من ضروب الدعاية التي تصور الولايات المتحدة وكأنها « بوتقة تلتقي فيها الشعوب » لا يزال رجال السياسة يبنون حملاتهم الانتخابية عـــلى نداءات خاصة الى « الناخبين الايرلنديين » و « الناخبين البولنديين » ، و « الناخبين اليهود » و « الناخبين الايطاليين » ، و « الناخبين الزنوج » ...

وثمة مضامين أخرى أبعد مدى وأشد خطراً . ذلك ان الجماعة التي لا ترى بأساً في إنزال الأذى والاضطهاد بشعبٍ كاملٍ يحيا على ارض الوطن خليقةٌ بأن لا تتحمس للنضال ضد هذه الأساليب نفسها حين تُطبّق في جنوبي افريقية ، أو آسية ، أو اوروبة . والانتصار لسياسة التنكيل بالزنوج في الولايات المتحـدة يقود بصورة منطقية الى الانتصار لسياسة التوسع الاستعماري والحرب العدوانية في الخارج ، برغم ما تجره من عواقب وخيمة على الشعب الاميركي ككلّ ، وعلى عمال الولايات المتحـدة بوجه خاص . وهكذا فليس عجيباً أن نرى زعماء نقابات العمال المؤيدين لنظام اضطهاد الزنوج واستغلالهم يؤيدون اصرح التأييد برنامج التوسع الاميركي الاستعماري برمّته .

والواقع ان اضطهاد الشعب الزنجي هو عقِب آخيل * في

* آخيل هو بطل « الالياذة » لهوميروس . وقد أبدى في حصـار

الاستعمار الاميركي . ان من المتعذر اخفاءه باشكال الاستقلال كما هي الحال في انصاف المستعمرات ؛ وفي استطاعة كل من يزور الولايات المتحدة ان يراه بأم العين . إنه يسخر من جميع الادعاءات الديبلوماسية التي تسعى الى اظهار الولايات المتحدة بمظهر الحريص على مصالح الشعوب الملونة في آسية وافريقية ؛ ويفضح فضحاً بشعاً الدعاية التي تتبجح « بمستوى الحياة الاميركية الرفيع » ، هـذا المستوى الذي يُعتبر حراماً على خمسة عشر مليوناً من المواطنين الزنوج . . .

ولاجتناب هذه الفضيحة يسعى سادة الولايات المتحدة الى اصطناع الزنوج الذين لا يتورعون عن نصرة الاستعمار . ومما تجدر ملاحظته أنهم لا يُسندون الى هؤلاء الزنوج مناصب ذات سلطان حقيقي ، بل يضعونهم في مراكز لها شأنها في العلاقات العامة ، وبخاصة مع مواطني البلدان الاخرى . ومن اقرب الشواهد على ذلك تعيين رالف بانش والسيدة أديث سامبسون في منصبين من مناصب « الامم المتحدة . » ولمثل أغراض الدعاية هذه ، يتظاهر الرئيس ترومان بالعطف على قضية الزنوج ويؤيد مشروع حقوقٍ مدنيةٍ يهدف الى تحسين احوال الشعب الزنجي . فهو يلوم الكونغرس على عـــدم اقراره هذا المشروع ، ولكنه لا يحاول النضال من اجل اقراره ، ولا يعبىء قوى حزبه لانجاحه ، ولا يتنكر لاعضاء هـذا الحزب

طراودة من ضروب البسالة ما جعله مثلاً يضرب في القوة والرجولة والبأس الشديد ، ولم يسقط في الميدان الا بعد ان اصيب في احـد عقبيه بسهم مسموم سدده اليه « باريس » . وهكذا يكون المقصود من « عقب آخيل » هنا « نقطة الضعف » في الاستعمار الاميركي . [المعرب]

الذين يتزعمون حملة الكفاح ضد المشروع. وهو موقف مختلف جداً من مواقف العزم والصلابة التي يتخذها ترومان والحزبان الديموقراطي والجمهوري كلما رغبوا في اقرار تشريع يتصل من قريب او بعيد بالاستعداد للحرب او بالتوسع الخارجي .

٤ . النقطة الرابعة والدول غير المتطورة

●

في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ خاطب الرئيس ترومان جمهوراً من نساء الحزب الديموقراطي فقال :

« نحن مشهورون ، بعض الشيء ، بالمعرفة التقنية technical... وما أبتغي ان اقوم به هو ان اقدم الى شعوب العالم هذه المعرفة وذلك الفن... لخدمة السكان ومصلحتهم لا لاستغلالهم واستثمارهم.

وهذا هو المعنى الذي تفيده النقطة الرابعة .

« . . . إني لأقف في مكتبي وألقي نظرة على مصوّر الكرة الارضية الذي قدمه الي الجنرال إيزنهاور ... المصوّر نفسه الذي اصطنعه ليكسب الحرب في اوروبة .

« اني لارى انهاراً واودية ضخمة غير متطورة ... وليس من ريب في ان نهري الفرات ودجلة يمكن ان يحوّلا من جديد الى جنة عدن . ففي عهد نبوخذ نصر كان ذلك الوادي يُطعم ما بين اثني عشر مليوناً وخمسة وعشرين مليون نسمة... وان في استطاعته ان يفعل ذلك كرة اخرى ... »

وليس هذا اول وعد استعماري وُجّه الى الشعوب المستضعفة، ولكنه في اغلب الظن اكثرها إسرافاً . فطوال تاريخ الاستعمار

كان الحكام يغطون اغراضهم الاستثمارية بورقة من تين ينسجون أليافها من تظاهرهم بالحرص على خير الفئات المستثمرة ومصلحتها.

والواقع ان الرئيس ماك كينلي Mackinley برّر استيلاء الولايات المتحدة على الفيليبين بقوله ان هذا الاستيلاء واجب علينا لـ « رفع مستوى » الفيليبينيين و « تمدينهم » و «تنصيرهم».. ولكن الشيء الوحيد الذي ارتفع مستواه ، بعد الفتح ، هو ارباح الشركات التي استبدت بالاقتصاد الفيليبيني وسخرته لمصالحها . . .

وعندما قصد هارفي فايرستون، احد ملوك المطاط الاميركيين، سنة ١٩٢٥ ، الى ليبيريا احاط رحلته هذه بهالة من الدعاية الصارخة حول الخطط التي رسمها لخدمة تلك البلاد ونقل المدنية الى اهلها . حتى اذا انقضت خمس وعشرون سنة على هذا الاعلان كانت الحضارة الوحيدة التي حملها فايرستون الى ليبيريا هي مجموعة من القواعد الجوية والبحرية الاميركية ومنجم حديد تملكه شركة الفولاذ الجمهورية . * فلا يزال العمال المشتغلون في المزارع يعبّأون من افراد القبائل الاهلية بطريقة العمل الالزامي الافريقية المألوفة . ولا يزال الاميركيون يدفعون الى كل منهم ثمانية عشر سنتاً اجراً يومياً . وقد اطلقوا عليهم الرصاص ، سنة ١٩٥٠ ، عندما اضربوا مطالبين بزيادة في اجورهم لا تعدو ثلاثة سنتات يومياً ! !

وفي العقد الرابع من القرن الحالي وضع صمنر ويلز ، خبير الرئيس روزفلت في شؤون اميركة اللاتينية، «سياسة الجار الصالح» Good Neighbor Policy التي افترض ان تمثل اطراحاً

* احدى الشركات الاميركية الكبرى ، وقد مر ذكرها . [المعرب]

لـ « ديبلوماسية الدولار » وأخذاً بسياسة جديدة تقوم على إسداء « المعونة غير الانانية » الى دول اميركة اللاتينية ابتغاء تطوير اقتصادها وتعزيزه . فلما كانت سنة ١٩٣٩ كتب المراسل الديبلوماسي بلير بولز يقول : « الحق ان السياسة الاميركية تسعى ابداً إلى بسط سلطانها على أميركة اللاتينية كلها...بقي على صمنر ويلز أن يبدع اسلوباً يخدع الناس عن حقيقة السياسة الاميركية ويظهرها بمظهر البراءة والتجرد الخالصين ، في نصف الكرة الغربي ... » *

والواقع ان كثيراً من ملامح النقطة الرابعة الحقيقية يمكن ان تُرى من خلال تصريحات عرّابيها والمدافعين عنها . ففي ٣٠ آذار سنة ١٩٥٠ بسط ناظر الخارجية دين أتشيسون ، أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ، الاسباب الموجبة لبرنامج النقطة الرابعة. فقال إن ثلثي السكان في البلدان المتخلفة اقتصادياً لن يرتضوا الفقر والمرض اسلوباً لهم في الحياة ، بعد اليوم ، وأهاب بالرأسمالية ان تقدّم حلاً لهذه المعضلة ، وإلا وجّه هؤلاء السكان وجوههم شطر الشيوعية . وليس من ريب في ان مخاوف أتشيسون في محلها لان تلك الشعوب قد رأت إلى النجاح البالغ الذي اقترنت به الطريقة الشيوعية في آسية الوسطى السوفياتية التي كانت في يوم من الايام مستعمرات قيصرية معدمة فأخذت اليوم بأسباب الرقي وصُنّعت تصنيعاً زاهراً وغدت تشارك على قدم المساواة في إنشاء الحياة بالاتحاد السوفياتي .

* Blair Bolles, « Sumner Welles, a Close - up Portrait », in Scribner's Commentator, Dec., 1939.

فهل يقدّم إتشيسون بديلاً عملياً يستطيع ان يضاهي البرنامج الأشتراكي الذي اثبتت الايام نجاحه ؟ انه حين ينتهي الى الكلام التفصيلي جديرٌ بأن يخيّب آمال ايما إنسانٍ يتوقع العون من واشنطون في التطور الاقتصادي. فهو يقول : « احسبُ ان هناك فكرةً شائعةً تذهب الى اننا سوف ننشىء مصانع كبيرة ومناجم لتلك الشعوب المتخلفة اقتصادياً . فأنا اعلن ههنا ان ذلك غير صحيح . . . » .

واذا كانت هذه الفكرة شائعة شيوعاً كبيراً فلأن رجال حكومة واشنطون ظلوا طوال عامٍ بكامله يروجون للاسطورة القائلة بأن الولايات المتحدة عازمةٌ على ان تنهض بعبء برنامج تطويري اصيلٍ . ثم ما الذي يبقى من هذا البرنامج إذا استُبعدت المساعدة في ميدان التصنيع ؟...

كل ما يبقى هو « مساعدة » الفنيين الاميركيين . وقد اسهب اتشيسون في عرض الامثلة على ذلك ، فنص على ان خبيراً اميركياً اوصى احد المزارعين باستعمال سماد نيترات الصوديوم ، فعمل المزارع بنصيحة الخبير فبلغ إنتاجه من الحنطة ثلاثة اضعاف إنتاجه السابق ... ولكن اي نفع في مثل هذه النصيحة للكثرة الغامرة من الفلاحين الفقراء الذين لا قِبلَ لهم بشراء الأسمدة التجارية ، والذين لا يملكون ارضاً ما ولكنهم يكدحون عُمرهم من اجل رفاهية الأمراء الأقطاعيين والشركات الاستعمارية ؟ فواضحٌ إذن ان البرنامج اللاإستعماري الحقيقي — الأرض لاولئك الذين يحرثونها — خليقٌ بأن يكون اكثر استهواءً للفلاحين في البلدان

غير المتطورة ، ومن هنا كان هو البرنامج العملي الأوحد .

ومَثَلٌ آخر من اتشيسون : « في استطاعتنا ، مثلاً ، أن نساعد شعوب تلك البلدان في أمورٍ من مثل تعداد السكان بالأساليب الحديثة ووضع الاحصائيات الحيوية . وليس من حاجة الى رأس المال الموظف من اجل القيام بهذا كله . »

أجل ، فهذه « المساعدة الفنية » « رخيصة » جداً . « وليس من الضروري ان يكون الخبراء ثقاتٍ من الطراز الأول في فروع اختصاصهم . ولا ريب في ان هذا العمل يجب ان يستهوي الشبان الاميركيين الذين يتمتعون ببعض الكفاءة والخبرة . وأحسب ان في استطاعتنا ان نقع على مئات من الرجال الصالحين في الدوائر الحكومية والبلدية ، وفي المدارس والجامعات ، وفي المزارع والمصانع ومنظمات البحث الخاصة . والمشكلة الآن تتلخصُ في البحث عن هؤلاء الرجال ، وإخضاعهم لتدريب إضافي بسيط ، ثم اقناعهم بالسفر الى الخارج في خدمة امتهم وبلادهم . »

ببضع مئاتٍ من الشباب الطالع يعتزم اتشيسون ان يسدّ حاجات ثُلثي سكان العالم ، وان يقفَ اندفاعهم نحو التحرر الوطني ! وينبه ناظر الخارجية مستمعيه الى ان برنامجه « قد يحتاج — إلا في احوال قليلة — الى خمس سنوات او عشر سنوات او اكثر من ذلك ايضاً لكي يؤتي ثماره اليانعة . حسناً ، إن عشراً من السنوات لا تعدو ان تكون دقيقةً في حياة الأمة ، واقل من ثانية في حياة الحضارة . »

والواقع ان خمس سنوات او عشراً تعني حياةً او موتاً ،

شبعاً أو جوعاً ، صحة ً او مرضاً ، سلمـــاً او حرباً ، بالنسبة الى مئات الملايين من البشر ...

إن الناس لا يستطيعون الانتظار . وإنهم لن يأخذوا بفلسفة اتشيسون في « الدقائق » و « الثواني » . ولا خلاف في ان قيمة برنامجه الدعاوية محل شكٍ وارتياب . فعلام هذه الضجة كلها ؟ وما هي الحقيقة وراء هذه الوعود الفارغة ؟

واليك هذا المثل الذي يصور لك كيف تعمـــل « المساعدة الفنية » في الواقع . قال اتشيسون :

« لقـــد دعت الحكومة البرازيلية ايضاً ثلاثة جيولوجيين اميركيين رسميين لمساعدة خبرائها في البحث عن مصادر جديـدة للمواد الستراتيجية. وقد نتج عن هذه المساعدة المتواضعة اكتشاف منجمين من اضخم مناجم المنغنيز في نصف الكرة الغربي، منجمين لا يُقوّمان بمالٍ مهما عَظـُم . »

ولكن مستر اتشيسون يحجم ، في تواضع ، عن الاشارة الى هذه الحقيقة : أن « المنجمين اللذين لا يقوّمان بمال مهما عظم » إنما تتدفق خيراتها عـــلى « شركة بيت لحم للفولاذ » Bethlehem Steel Co. لا على الشعب البرازيلي . ومن هنـــا نرى ان برنامج المساعدة الفنية لا يعدو ان يكون ، في جوهره ، تصيداً مكثفاً للمواد الاولية تقوم بـــه الحكومة الاميركية لمصلحة الشركات الاحتكارية في وول ستريت ...

بيد ان إسداء المساعدة الفنية الى البلدان غير المتطورة ليس غير الجزء الاصغر من برنامج النقطة الرابعة . قال اتشيسون : « وعلى

اية حال ، فنحن نضع توكيداً شديداً على استثارة المؤسسات الخاصة للمشاركة في هـذه المشروعات لا من طريـــق تقديم الرساميل فحسب ، بل طريـق تقديم البراعات التقنية technical والادارية التي تأتي مع الرساميل ايضاً . »

وتلك هي القصة القديمة التي تتحدث عن تقديم المساعدة الحكومية لتصدير الرساميل من قبـــل الشركات الاحتكارية ، والتي تهدف آخر الأمر الى إبقاء الدول المستضعفة على حالها من التأخر والفقر.

ولكن كيف تقدّم هذه المساعدة الحكوميـة ؟ عن هذا السؤال يجيب اتشيسون :

« يجب ان يثـق اصحاب الرساميل ان ممتلكاتهم لن تصادر من غير ما تعويض عـــادل ، وان في ميسورهم ان يُخرجوا ارباحهم المشروعة ورأس مالهم من البـلاد ، وان تكون لهم حرية معقولة في إدارة اعمالهم في حدود القانون المحلي المطبق على الجميع بالتساوي. ذلك ، بكلمة موجزة ، هو جوهر مشكلة توظيف الرساميل، وإنها كما ترون مشكلة ثقة .... »

ثقة بأن شيئاً لن يحول دون الشركات الاحتكارية الكبرى واقتناص الارباح الفاحشة وإخراجها ؛ ثقـة بأن حركة التحرر الوطني لن تنهض يوماً للمطالبة بثروات البلاد القومية ، ثقة بأن الشركات الاحتكارية ستكون قادرة على ان تعمل كما يحلو لها في البلدان الأجنبية ...

ذلك هو الهدف الحقيقي الذي يرمي اليه مشروع النقطة الرابعة.

وعلى ضوء هذا الهدف اتخذت التدابير العملية لأنجاح المشروع .

وهذه التدابير تشمل « أ » عقد معاهدات مع البلدان الاجنبية من اجل إطلاق يد الاحتكارات الاميركية في العمل ؛ «ب» سن الحكومة الاميركية تشريعاتٍ تضمن ارباح هذه الشركات واموالها الموظفة ؛ « ج » وضع تشريعات خاصة تخفض الضرائب على الارباح التي تجنيها الشركات من المشروعات الخارجية .

وحتى هذا كله ليس كافياً :

« ولكن حين تجمعون هذه الاشياء كلها فلا ريب في انكم ستجدون ان ليس ثمة طريقة لا يتطرق اليها الوهن لضمان حقوق المسهمين في هذه المشروعات وصيانتها من مختلف المخاطر التي تواجهها في اجزاء كثيرة من العالم اليوم . »

وهكذا يؤكد اتشيسون انه يتعين علينا ان نسعى الى ايجاد « المناخ الملائم » لتوظيف الرساميل. ولكن ماهو «المناخ الملائم»؟ إنه شعب مستكين مذعور يخاف ان يقاتل من اجل مصالحه الخاصة. إنه يقتضي سحق حركة التحرر والقضاء على الاشتراكية حيثما وجدت.

ويكشف ناظر الخارجية الستار عن حقيقة الأهداف التي تقصد اليها الولايات المتحدة من تصدير الرساميل الاميركية في قوله :

« نحن ننفق المليارات على الدفاع العسكري ، كما ينبغي لنا ان نفعل . ونحن ننفق مليارات اخرى على تدعيم الحياة الاقتصادية في اوروبة ومناطق حيوية في الشرق الأقصى ، كما ينبغي لنا ان نفعل. ونحن ننظم ضروب الدفاع المشترك عن طريق معاهدة شمالي الأطلسي وبرنامج المساعدة العسكرية . »

ومن هنا نرى ان مقتضيات الاستغلال الاستعماري المكثف

لا تزال هي هي : تسليط العصا على جنوب المستثمَرين . والواقع ان برنامج النقطة الرابعة بكامله يبدو من خلال تصريحات اتشيسون مجرد حجاب من حجب الدعاية يشن رأس المال الاميركي من ورائه هجومه العالمي في ميادين السياسة والاقتصاد والحرب .

فاذا جئنا الى البلدان المستضعفة وجدنا ان وعود ترومان للشعوب المتخلفة في مضمار الرقي قد تقلصت الى بضعة خبراء من الدرجة الثانية في حين ضُرب صفحاً عن التطوير الاقتصادي الفعلي بالكلية .

ولكن وضع برنامج على الورق لابتزاز الارباح الفاحشة من طريق الاستغلال الاستعماري المكثف ومن أجل الحرب المبنية على ذلك الاستغلال شيء ، وتحقيق ذلك البرنامج شيء آخر . وتوقيع رجل الدولة السائر في ركاب الاستعمار على وثيقة يبيع بها بلاده شيء ، وتسليم تلك البلاد الى المستعمرين شيء آخر . فقد كانت حكومة الكومنتاغ في الصين من اوائل الحكومات التي وقعت على معاهدة من طراز معاهدات النقطة الرابعة التي تفضي الى التخلي عن السيادة الوطنية الاقتصادية بكاملها للشركات الاحتكارية الاميركية . ولكن الشيوعيين الصينيين سارعوا الى تمزيق تلك المعاهدة ، واسقطوا حكومة الكومنتاغ ، فذهبت آمال وول ستريت ادراج الرياح .

إن حكام البلدان المتخلفة اقتصادياً ليرحبون اليوم ببرنامج النقطة الرابعة ، ولكنهم يخشون جميعاً ان يصيروا بسببٍ من ذلك الى ما صار اليه شيانغ كاي تشيك . ورأس المال الاميركي

يشاركهم مخاوفهم هذه ، ولكنه لا يستطيع ان يجد حلًا .

وليس ثمة مخرجٌ سهلٌ من هذا المأزق . فبسببٍ من الاتجاه الشعبي العالمي العنيف نحو الحياة الكريمة والاستقلال الوطني الصحيح صار يتحتم على المشاريع الهادفة الى استعباد الشعوب أن ترتدي لباس الوعود الكاذبة . ولكن إغداق الوعود ثم إخلافها يؤجج من نار المقاومة الشعبية ويعطل جو الانقياد والتراخي في الوطنية الذي ينمو فيه رأس المال الاستعماري ويزدهر .

وعندما يجدّ الجدّ يُخْلي الدجل السياسي مكانه للقوة المسلحة . ذلك ان المؤتمرات والبرامج الاقتصادية تؤدي آخر الأمر الى المحالفات العسكرية ، ومواثيق محالفة الشيوعية ، والغزو المسلح من جانب الاستعمار الأميركي ، كالذي حصل في كوريا .

ولكن النضال العالمي في سبيل حياة افضل قويٌ الى ابعد الحدود ، فليس في ميسور الدجل السياسي او القوة المسلحة ان يصدّا تياره العارم . والذي لا ريب فيه ان شعوب العالم سوف تكسب الحق في التطور الاقتصادي من طريق النضال ضد الاستعمار وضد عملائه الوطنيين .

٥ . ستراتيجية السيطرة على العالم

●

في الحرب العالمية الثانية أيد شعب الولايات المتحدة النضال ضد المحور لينقذ نفسه وشعوب البلدان الأخرى من الخراب على يد الفاشستيين الألمان والعسكريين اليابانيين . وقد اكد رجالنا الرسميون دوافعنا غير الأنانية وزهدنا في ممتلكات الشعوب الاخرى وأراضيها. وهي دعوى صحيحة اذا كان في الكلام اشارة الينا نحن شعب الولايات المتحدة . فالكثرة الغامرة من الشعب الاميركي لا تستسيغ الفتوح الخارجية ولم تكن كذلك في يوم من الايام . أما اذا كانت الاشارة الى الأسر الحاكمة التي تسيطر على شركات النفط والمعادن وعلى مصارف وول ستريت ، فليس من ريب في ان هذه الدعوى كاذبة مائة بالمائة . فقد سعى هؤلاء جميعاً ، طوال الحرب العالمية الثانية ، في سبيل الربح الخيالي سعياً علنياً حثيثاً واندفعوا للاستيلاء ، بواسطة الحرب ، على الممتلكات الاجنبية وعلى مناطق النفوذ في مختلف بلدان العالم . واذ كانت كلمتهم هي العليا في دوائر الدولة المركزية الاكثر حيوية فقد عملت الحكومة خلال الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلت ، على إشباع شهوات الشركات الاحتكارية الاميركية وسد مطالبها التي

تجاوزت اليوم جميع الحدود والسدود .

فمنذ مطلع الحرب التي شنّتها الاستعمارات الالماني والياباني ادرك اصحاب الرساميل الاميركية انهم سيكونون هم كاسبيها الرئيسيين . ومن تلك اللحظة تحفّز اولئك الرجال الذي يسروا للمعتدين شن الحرب بما نقلوه اليهم من مقادير ضخمة من النفط ، والآلات ، وانواع المعادن ، وبقانون الحياد الذي أقره الكونغرس سنة ١٩٣٧ ، وأتلعوا اعناقهم ...

لقد رأوا بثاقب نظرهم ان هذه الحرب ستكون حرباً طويلة الاجل ، كالحرب العالمية الاولى ، وان في ميسورهم ان يجنوا من ورائها مكاسب هائلة وينتزعوا مناطق برمتها مما تملكه الدول الاستعمارية الاخرى ، وبريطانية منها بخاصة ، بوصفها صاحبة اكبر امبراطورية على ظهر هذا الكوكب .

واكتسح النازيون بلدان اوروبة الغربية ، وهددوا من قاعدتهم الصناعية المتسعة انكلترة بالغزو . فاذا الاستعمار البريطاني في حاجة ماسة الى تأييد مادي كبير من الولايات المتحدة ثم الى تأييد عسكري ايضاً ، لكي يبقى على قيد الحياة .

وفرض أمراء وول ستريت شروطهم . وقد رُسمت خطوطها الكبرى في خطابٍ شهير ألقاه فيرجيل جوردان رئيس مجلس المؤتمر الصناعي الوطني قال :

« مهما كانت النتيجة التي ستؤول اليها الحرب فقد اندفعت الولايات المتحدة في اتجاه استعماري في الشؤون العالمية وفي كل مظهر من مظاهر حياتها ... وفي احسن الاحوال ، ستصبح

انكلترة شريكاً ثانوياً في استعمارٍ انكلوسكسوني جديد تكون فيه موارد الولايات المتحدة الاقتصادية وقوتها العسكرية والبحرية مركز الثقل » *

لقد تكشّف الرئيس فرانكلين روزفلت عن عواطف مناوئة للفاشستية ، وسعى الى ان يحسّن احوال الشعوب المستعبدة ، والى ان يقيم علاقات ودّ وصداقة مع الاتحاد السوفياتي . ولكنه لم يكن هو صاحب الكلمة العليا . ذلك ان روزفلت ما كان رئيساً لحكومةٍ شعبية صحيحة ولكنْ رئيساً لجهاز حكومي تسيطر بيوتات وول ستريت على مفاتيحه العسكرية والديبلوماسية والسياسية جميعاً . لقد كان روزفلت قائداً لهذه القوى ، قائداً حكيماً ومعتدلاً ، ولكنه خاضعٌ ابداً لسلطان الطبقة الحاكمة .

كان روزفلت قائداً أعلى للقوات الاميركية ، ولكن توجيه الحرب كان وفقاً لستراتيجية الاستعمار الاميركي التوسعية الاساسية . وطالب روزفلت بستراتيجية عسكرية تستطيع ان تهزم هتلر بأسرع وقت مستطاع ، ولكن قادة الاستعمار الاميركي تعاونوا مع قادة الاستعمار البريطاني على إنفاذ ستراتيجية عسكرية قُصد بها الى استنزاف قوى الاتحاد السوفياتي ، واحتلال القوات الاميركية البريطانية معظم المناطق الستراتيجية . وشجب روزفلت سياسة ابتزاز الثروات من المستعمرات وتحدث عن « سياسة الجار الصالح » في اميركة اللاتينية ، ولكن رجال وول ستريت —

* Virgil Jordan, at Investment Bankers Association, N. Y., Dec. 18, 1940.

صمنر ويلز ، ونلسون روكفلر ، وجس جونز – وجهوا الحرب بطريقة خليقة بان تقوّي براثن ذلك الابتزاز وتزيد في إفقار اميركة اللاتينية .

وما دامت الولايات المتحدة خاضعة لسلطان رأس المال المالي فيتعين عليها ان تسلك سبيل التوسع الاستعماري ، وتكييف ستراتيجيتها المباشرة وفقاً للاحوال الخاصة المؤثرة في الاستعمار الاميركي والاستعمار العالمي في وقتٍ بعينِهِ . وقد فسر فيرجيل جوردان ذلك في ما يلي :

« إننا قد نخشى لفظة الاستعمار البغيضة ، غير المألوفة .... وكثيرٌ منا يؤثرون ان يُخفوها ، على الطريقة الاميركية الشائعة ، وراء حجابٍ من عبارة غامضة مثل « الدفاع عن نصف الكرة الغربي » . ولكن اميركة مقدَّرٌ لها ان تسلك هذه السبيل ، شعورياً او لا شعورياً ، بحكم مزاجها وقواها ومواردها وبدافع من الاحداث العالمية ، لا في السنوات الاخيرة فحسب ، بل منذ مطلع القرن ... هذه الاحداث قد دفعتنا في هذه السبيل ولم تمنحنا الفرصة لاقامة استعمار حديث ، فحسب ، بل زودتنا بالادوات الاقتصادية والاتجاهات الاجتماعية ، ثم بالعادات والسجايا السياسية المساعدة على ذلك ..... **وليس لنا ، في الحق ، مندوحة عن السير في الطريق التي سلكناها خلال ربع القرن الأخير ، وفي الاتجاه الذي اتخذناه في فتح كوبا والفيليبين ، وفي مشاركتنا في الحرب العالمية الاخيرة . »***

* المصدر السابق نفسه .

توسع الاستعمار الاميركي زمن الحرب

كانت اهداف وول ستريت الرئيسية العاجلة خلال الحرب العالمية الثانية إقصاء جميع المنافسين الاستعماريين من نصف الكرة الغربي وفرض السيطرة الاميركية المطلقة على المحيط الهادىء ، وعلى جزء كبير من الشرق الاقصى . *

ولقد تحققت اهداف وول ستريت في نصف الكرة الغربي تحققاً كاملاً . فمنذ اللحظات الاولى من الحرب اقصي الاستعمار الالماني عن المسرح وكان قد خطا خطوات واسعة في اميركة اللاتينية ، وبخاصة في الارجنتين والبرازيل . فصادرت حكومات اميركة اللاتينية الرساميل الالمانية الموظفة هناك ، والبالغة نحو مليار دولار ، نزولاً عند اوامر الولايات المتحدة . كذلك صادرت الحكومات الاميركية الجنوبية الممتلكات الايطالية واليابانية ، ولم تكن على مثل هذه الضخامة . ولم يمض غير طويل حتى اعيد تنظيم كبرى هذه المؤسسات تحت سيطرة وول ستريت المالية . ومن اهم هذه المؤسسات شركات الطيران من مثل شركة خطوط كوندور الالمانية وشركة خطوط لاتي الايطالية في البرازيل ، وشركة خطوط سكادتا في كولومبيا . وقد كان لهذه الخطوة ، في قارة تعتمد اعظم الاعتماد على المواصلات الجوية ، اثر بعيد جداً في إحكام

* وقد عبر جوردان عن هذه الاهداف بالكلمات التالية : « جنوباً في نصف الكرة الغربي ، وغرباً في المحيط الهادىء ، يتخذ ركب الاستعمار سبيله ؛ وبلغة القوة الاقتصادية الحديثة والاعتبار prestige السياسي ينتقل الصولجان اليوم الى الولايات المتحدة . »

LAU Beirut Campus Riyad Nassar Library

قبضة الاستعمار الاميركي الشمالي على خناق اميركا الجنوبية .

وانتهى الحليف الضعيف ، الاستعمار الفرنسي ، الى مصير مشابه . فقد تقلصت الرساميل الفرنسية الموظفة في اميركا اللاتينية، والبالغة ١٦٠٠ مليون دولار سنة ١٩١٣ ، تقلصاً كبيراً بعد الحرب العالمية الاولى ، ولم يبق منها غير ١٠٠ مليون دولار بعد الحرب العالمية الثانية .

اما الضربة الرئيسية فقد وُجهت ، في نصف الكرة الغربي ، الى خصم وول ستريت التاريخي ، وحليفه زمنَ الحرب ، أعني الاستعمار البريطاني .

فمقابل عددٍ معين من المدمرات أُكرِه البريطانيون على التخلي عن قواعدهم العسكرية الرئيسية في بحر الكاريبيان والسواحل الكندية . ومقابل مقادير بعينها من الاسلحة اضطُروا الى الانسحاب من كثيرٍ من المؤسسات التي كانت لهم فيها اموال موظفة في الولايات المتحدة واميركا اللاتينية وكندا . ولم ينطوِ ذلك دائماً ، في اميركا اللاتينية ، على تحويل الملكية تحويلاً مباشراً الى رأسماليي ألولايات المتحدة. ولكن حتى في الاحوال التي بيعت فيها الاسهم البريطانية لاحدى حكومات اميركا اللاتينية ظل المجال متسعاً أمام رساميل وول ستريت لتعمل وتستغل .

ففي كندا كانت الرساميل البريطانية الموظفة تبلغ سنة ١٩٣٩ مليارين ونصف مليار دولار فاذا بها تصبح سنة ١٩٤٧ ملياراً وستمائة مليون دولار ، بينما كانت رساميل الولايات المتحدة الموظفة هناك تبلغ اربعة مليارات ومائتي مليون دولار سنة ١٩٣٩ فاذا بها

تصبح خمسة مليارات ومائتي مليون دولار سنة ١٩٤٧ * . وفي اميركا اللاتينية انحدرت الرساميل البريطانية الموظفة من اربعة مليارات ونصف مليار دولار سنة ١٩٣٩ الى مليارين وستمائة مليون دولار سنة ١٩٤٩ ، بينما زادت رساميل الولايات المتحدة الموظفة هناك من ثلاثة مليارات وسبعمائة مليون دولار سنة ١٩٤١ الى خمسة مليارات ومائتي مليون دولار سنة ١٩٤٨ ** .

حتى إذا وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها كانت تعريفات المعاملة الفضلى هي كل ما تبقى من الصلات الخاصة التي كانت تربط انكلترة وكندا . ذلك ان سياسة كندا الاقتصادية والديبلوماسية والعسكرية أمست خاضعة خضوعاً كاملاً للولايات المتحدة . وفي معاملاتها مع كندا انتهت بريطانية اليوم الى ان تواجه بلداً جديداً من بلدان « الدولار » . ليس هذا فحسب بل لقد اصبحت كندا ساحة تدريب لقوات الولايات المتحدة ، وانتقلت ثرواتها النفطية والحديدية المكتشفة حديثاً الى الشركات الاحتكارية الاميركية ، انتقالاً آلياً .

وفي اميركا اللاتينية تقلصت الرساميل البريطانية تقلصاً أبعد ، عقبَ الحرب العالمية الثانية ، بسببٍ من إقدام الحكومات الموالية لواشنطن علـى شراء الممتلكات البريطانية . فخلا الجو للاستعمار الاميركي ولم يبقَ له منافس في تلك الديار ، وبخاصة في البرازيل اكبر بلدان اميركا اللاتينية . ولم تحتفظ الولايات المتحدة بشبكة

* Balance of Payments Yearbook, 1938, 1946, 1947,p.101.

** Wythe in Foreign Commerce Weekly, Apr.11,1949,p.42.

البعثات والقواعد العسكرية التي اقامتها هناك، اثناء الحرب، فحسب بل وسّعت من نطاقها وقوّت من فعاليتها ايضاً، ثم كان برنامج توحيد الاسلحة فقضى على البقية الباقية من عناصر الاستقلال في تلك البلدان .

وهكذا شهدَ عالمُ ما بعد الحرب هذه القارة بكاملها تستجيب لضربات السوط المتلاحقة في واشنطون . ومن باتاغونيا * الى بافن لاند **، دان نصفُ الكرة بالطاعة والولاء لأمراء وول ستريت .

وَحَسْبُنا هذا القدْر من الكلام على توسع الولايات المتحدة جنوبيّ نصف الكرة . فما الذي يمكن ان يقال عن التوسع في اتجاه الغرب، في المحيط الهادىء؟

لقد ألمعت الاحتكارات الاميركية الى رغبتها في ان ترث الامبراطوريات الأوروبية في الشرق الاقصى حتى قبل ان تنغمس الولايات المتحدة انغماساً فعالاً في الحرب العالمية الثانية .. والواقع ان النقطة الحرجة التي وقفت عندها المفاوضات الاميركية اليابانية — النقطة التي قالت واشنطون عندها : الى هنا فحسب — كانت الهند الصينية الخاضعة للفرنسيين ! فعندما أعلنت نظارة الخارجية الاميركية الديبلوماسيين اليابانيين ان غزو الهند الصينية سوف يُعتبر عملاً عدائياً ادرك الاستعماريون اليابانيون، الراغبون هم انفسهم في ابتلاع الشرق الأقصى برمته، ان الحرب لا بدّ

* اقليم في الارجنتين في اقصى الجنوب من اميركة اللاتينية . [المعرب]
** في شمالي اميركة، غربي غرينلندة . [المعرب]

واقعة، وشنوا هجومهم على قوات الولايات المتحدة العسكرية .

وفي خلال سنوات الحرب احتلت الولايات المتحدة جميع الجزر الستراتيجية المهمة في المحيط الهادىء واحتفظت بسلطانها عليها في ما بعد . وأخضعت الفيليبين للاستعمار الاميركي نزلةً اخرى واتخذت نقطة انطلاق لفتوحٍ جديدة .

وعلى الرغم من ان الرساميل البريطانية الموظفة في الصين كانت تبلغ أضعاف الرساميل الاميركية الموظفة فيها فقد استُبعدت القوات البريطانية استبعاداً كاملاً من جميع العمليات الحربية في الصين . وبعد الحرب حُوّلت تلك البلاد — مؤقتاً — الى مستعمرة اميركية على رأسها شيانغ كاي شك .

اما في اليابان فأن الاحتلال الاميركي لم يوجّه ضد الاتحاد السوفياتي والشعب الياباني فحسب بل ضد مصالح بريطانية التجارية والمالية ايضاً . فقد استولت الاحتكارات الاميركية على جميع مراكز التجارة وتوظيف الرساميل المهمة ضاربةً بالاحتجاجات البريطانية عرض الحائط . وانشيء بين البيوتات المالية اليابانية وبين وول ستريت تحالف جديد خليقٌ بان يجعل اليابان مستعمرة ذلولاً للولايات المتحدة لولا يقظة الشعب الياباني الذي لا بد ان يقول آخر الأمر كلمته الجريئة الحاسمة .

وبفضل سيطرة الولايات المتحدة على المحيط الهادىء، والفيليبين، والصين، واليابان استطاع الاستعمار الاميركي ان يبسط سلطانه المباشر المطلق على اكثر من نصف سكان الشرق الاقصى وعلى القواعد التي تمكنه من فرض سيطرته على سائرهم .

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع اوزارهـا حتى صار في ميسور احـد اعضاء الكونغرس الاميركي ان يزعم ان المحيط الهادىء « هو محيطنا بلا جدال . » ✲ وهكذا تحققت اهـداف جوردان في نصف الكرة الغربي وفي المحيط الهادىء جميعاً .

تلك كانت المناطق الرئيسية التي تم فيها التوسع الاميركي زمن الحرب . ولكن الاستعمار الاميركي وُفق الى انتصارات اخرى ايضاً ، فاذا بسيطرته على المحيط الاطلسي وعلى الجزائر الواقعة فيه لا تقلّ عن سيطرته على المحيط الهادىء قوةً وشمولاً ، وإذا بـه يهيمن على سلسلة من القواعد العسكرية في غربي افريقية وشماليها ، ويمكّن لسلطانه العسكري والاقتصادي في الشرق الأوسط من طريق النفط السعودي والحيلولة دون وقوعه بأيدي البريطانيين . ليس هـذا فحسب بل لقد اشترى ، هو والاستعمار البريطاني ، السياسيين والقواد العسكريين المنفيين الذين اعيدوا الى مراكز القوة والسلطان في معظم بلدان اوروبة الغربيـة وفي ايطالية واليونان .

وهكذا تم إضعاف الاستعمار البريطاني ، وإحالته الى تبَعٍ للاستعمار الاميركي ، على احسن وجهٍ كان يحلم به وول ستريت !.

الاستعمار الاميركي يطمع في توسع غير محدود

ولم تكد الأهداف التي عـبّر عنها جوردان تتحقق حتى غدت مُماتة obsolete ففي خلال الحرب العالمية افسحت هذه الاهداف

✲ Ed. V. Izac, quoted in Washington Post, Dec.2, 1946.

« المتواضعة » المجال لهدف أبعد : هو السيطرة غير المحدودة على العالم . ولم يكن هذا الهدف نفسه غرضاً مطلقاً طويل الأجل ؛ لقد كان الغاية الستراتيجية للفترة التي ستعقب الحرب العالمية الثانية مباشرةً . وكان الأساسُ الاقتصادي لهذه الستراتيجية نمو الطاقة الانتاجية الأميركية زمن الحرب ، وضغط الأرباح الاحتكارية التوسعي الذي اشرنا اليه في فصل سابق . أما الاساس العسكري لهذه الستراتيجية فكان نمو سلاح القاذفات الثقيلة في اسطولنا الجوي نمواً مسرفاً غير متوازن ، وخلْق شبكة عالمية من القواعـد العسكرية لتلك القاذفات ، وبخاصة ظهـور القنبلة الذرية بوصفها أفعل الاسلحة التي ابتدعها الانسان ، حتى الآن ، في الاعتداء على جماهير الناس .

والسبيل الفعال لنجاح هذه الستراتيجية تحقيقُ السيادة الاقتصادية والعسكرية على العالم الرأسمالي برمته ، وتعبئة جميع القوى الرجعية في كل مكان تحت قيادة رأس المال الاميركي ، واخيراً شن الحرب على الاتحاد السوفياتي .

وقد نادت بمثل هـذه الستراتيجية وعملت من اجلها اكثر الدوائر المالية والعسكرية رجعيةً وتعصباً خلال السنوات الاخيرة من الحرب العالمية الثانية . فلم تُطلّ سنة ١٩٤٥ – ١٩٤٦ حتى كانت هذه القواعد تؤلف الستراتيجية السائدة المتمتعة بتأييـد العناصر الفعالة في دنيا المال .

وكانت الدلالات **الديبلوماسية** على هذه الستراتيجية هي :

« أ » الدور الرئيسي الذي مثله الاستعمار الاميركي منذ سنة ١٩٤٥

في محاولة اقامة حكومة رجعية مناوئة للاتحاد السوفياتي في بولندة وهي الطريق التاريخي لغزو الروسيا . « ب » سعي الولايات المتحدة لضم الارجنتين الى منظمة الامم المتحدة ، في ربيع سنة ١٩٤٥ ، خارقةً بذلك المبادىء اللافاشستية التي تجسدت في مفاوضات دومبارتن اوكس تمهيداً لتشكيل منظمة للأمم المتحدة .

اما دلالاتها **الاقتصادية** فكانت : «أ» قطع مساعدة « الاعارة والايجار » عن الاتحاد السوفياتي بعد هزيمة اليابان مباشرة . «ب» رفض إسداء أيما معونة اقتصادية لاعادة تعمير الاتحاد السوفياتي . « ج » خرق الاتفاق القاضي بنقل التعويضات بطريق البحر من ألمانية الغربية الى الاتحاد السوفياتي .

واما الدلالات **العسكرية** فتجلت في « أ » إرجاء فتح الجبهة الثانية حتى سنة ١٩٤٤ رجاة ان يؤدي ذلك الى إضعاف الاتحاد السوفياتي وإنهاكه . و « ب » إلقاء القنابل الذرية على اليابان ، وهي بادرة لم يكن لها اي ضرورة عسكرية بالنسبة الى تلك البلاد ، وانما قُصد بها الى التهويل على الاتحاد السوفياتي ، على ما يُفهم من كلام قاله الرئيس ترومان في بوتسدام اثناء مباحثاته مع الزعماء السوفيات : « إذا انفجرت هذه القنبلة كما ارجو ان تنفجر فستصبح في يدي مطرقةٌ أحطم بها رؤوس هؤلاء الصبية » ... *

وقد جاءت جميع التطورات التي تمت منذ ذلك الحين وفق هذه الستراتيجية . وانه ليتعين على المرء ان يُلمّ بها لكي يفهم

* Jonathan Daniels, The Man of Independence, p. 266, N. Y., 1950.

تفصيلات السياسة — مشروع مارشال ، الحلف الأطلسي، الحرب ضد كوريا الخ ... فلهذه جميعاً مكانها في ستراتيجية السيطرة على العالم ، ولهذه جميعاً مكانها في الاستعداد للمرحلة النهائية من الخطة، اعني الحرب ضد الاتحاد السوفياتي ، والجمهوريات الشعبية في شرقي اوروبة ، والصين .

والحقّ ان هذه الستراتيجية لم تقدّم يوماً الى الشعب الأميركي . ان الناطقين الرسميين بلسان وول ستريت ليواصلون إسماع الشعب نغمات رسالتهم الهادفة الى « زعامة العالم »، ولكنهم يعرضون عليه هذه « الزعامة » ملونة بأروع الأصباغ الأخلاقية لكي يكموا أفواه المعارضين لاصطناع الدولة اداةً لفتح العالم، ويحملوا الشعب الأميركي على الرضا باستعمال القنبلة الذرية ضد العزل والأبرياء .

إسمع الى الرئيس ترومان يقول بلسان محتكري وول ستريت في مناسبات مختلفات :

« **ان العالم ليتطلع الينا اليوم لزعامته** ... ان جوهر سياستنا الخارجية هو السلام . » *

« **إن شعوب الأرض ... لتتلعُ أعناقها اليوم الى الولايات المتحدة اكثر مما فعلت في اي وقت مضى ، مكبرة فيها حبها للخير وقوتها وزعامتها الحكيمة** . فنحن لم نطمع بأرض احد ، ولم نفرض إرادتنا على احد . ان الاستعمار القديم — الاستغلال من اجل الربح الشخصي — لا محل له في خططنا . » **

* Harry S. Truman, State of the Union Message, Jan. 6, 1949.

** Truman, Inaugural Adress, Jan. 20, 1949.

« وفي صوغ النتيجة سيمثل شعب الولايات المتحدة دوراً رئيسياً . . . إن جميع الناس خُلقوا متساوين ... وان لهم الحق في الحياة ، والحرية ، والتماس السعادة على قدم المساواة ... اننا لا نستطيع أن نغضي عن العسف والطغيان ... ويتعين علينا ان نلقي بثقلنا في كفة الحرية الكبرى والعمل لضمان حياة أفضل لجميع الشعوب ... [لنرضي] تلك الذات الكلية القدرة التي وضعت امامنا مثل هذه الفرص الضخمة لخدمة النوع الانساني في مقبلات الايام . » *

لا الاستعمار ، ولكن « الزعامة » ... لا الاستغلال ، ولكن « الحرية والعمل من اجل حياة افضل» ... لا حرب الفتح المبيّتة ، ولكن « السلام » . تلك هي اذن اغراض الولايات المتحدة !

وقد عبّر عن جوهر الاندفاع الاميركي في سبيل السيطرة على العالم أحسنَ التعبير رجلٌ لم يلعب احدٌ مثل دوره الشخصيّ في العمل على التمكين للرساميل الأميركية في العالم ، اعني ليو ويلتش Leo D. Weltch امين صندوق شركة ستاندرد للنفط (نيوجيرزي) الذي صرف منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ملياراً من الدولارات وظفتها الشركة في المشروعات الخارجية ، وقبض مليار دولار تقريباً من ارباح تلك المشروعات حتى الآن ...

ففي اواخر سنة ١٩٤٦ ، بينا كانت الخطوط الكبرى لسياستنا الخارجية رهن التحديد ، تحدث ويلتش ايضاً عن «الزعامة» ولكنه عرّفها تعريفاً أصرح وأوضح ، قال :

* Truman, State of the Union Message, Jan. 5, 1950.

LAU Beirut campus Riyad Nassar Library

« ... تلك التبعة هي الزعامة الايجابية القوية في شؤون العالم – سياسيةً واجتماعيةً واقتصاديةً – وإن من واجبنا ان نحققها بأوسع ما تحتمله الكلمة من معنى . إن علينا ، بوصفنا اكثر دول الأرض إنتاجاً ، واقواها رساميل ، واغناها بالصناعة الآلية ، ان نحزم امورنا ونتحمل المسؤولية التي يلقيها على عاتقنا كوننا نملك غالبية الأسهم في تلك الشركة الكبرى التي يطلقون عليها اسم العالم .... وليس ينبغي ان يكون ذلك الى أجل مسمّى . إنه واجب سرمديّ لا يجوز التفريط فيه . » *

لقد تحدث هتلر عن الرايخ الذي سيعمر الف سنة. أما ويلتش فيتحدث عن حكم وول ستريت السرمدي . ولا تسخر من هذه الغطرسة . فقد كان ويلتش منهمكاً في رسم السياسات التي يتعين على وول ستريت انتهاجها ، وهي سياسات اتبعت في امانة واخلاص ، وإنها لتنطوي على خطر حرب عالمية ماحقة .

وحث ويلتش زملاءه من رجال المال على ان يفيقوا من سباتهم الطويل ، وطلب اليهم ان لا يقعدوا بعد اليوم وينتظروا انهيار الرأسمالية ، لأن مصلحتهم تقضي بأن يتخذوا هم موقف الهجوم :

«واذن فالمشروعات المالية الاميركية الخاصة بين امرين اثنين : إما ان تضرب ضربتها وتنقذ مركزها في طول العالم وعرضه» وإما أن تواصل استرخاءها وتشهد جنازتها بأم عينها .... والواقع ان سياستنا الخارجية سوف تكون في المستقبل اكثر اهتماماً بسلامة

* Leo D. Welch at National Foreign Trade Convention, Nov , 1946.

رساميلنا الموظفة في الخارج واستقرارها ، مما كانت في ايما وقت مضى . وليس من ريب في ان احترام رساميلنا تلك لا يقل اهمية عن احترام مبادئنا السياسية ... » *

ولكن ما هي الاجزاء الرئيسية التي تؤلف ستراتيجية التوسع غير المحدود ؟ لقد عالج جوردان هذه المسألة منذ سنة ١٩٤٠ فقال :

« إذا راجعنا صفحات الاختبار البريطاني عرفنا بعض الاشياء التي قد تعنيها تبعة الرجل الابيض هذه حين نتصدر لحلها . إنها تنطوي على مسؤولية ضخمة قوامها جمع الموارد المالية التي تستند اليها واستخدامها وحفظها . » **

إن على الدولة ان تعبيء عدة مليارات ، كما هو واقع في مشروع مارشال ، لتعزز سيطرة الرساميل الاميركية على البلدان الاخرى . ولكن هذا ليس كل شيء ، « فنحن نعرف من بعض الصفحات الأشد سواداً في التجربة البريطانية خلال القرن الماضي انها تنطوي على الاحتفاظ بقوى بشرية وآلية ضخمة لا لمجرد الدفاع الوطني بل **لكي تتم لنا سلطة دولية فعالة ومستمرة تمكننا من إقرار السلم والنظام** . » ***

وهكذا يتعين على الاستعمار الاميركي ، بوصفه الاستعمار الغالب ، ان يسيطر على العالم عسكرياً . إن عليه ان ينشىء قوة مسلحة

---

* المصدر السابق نفسه .

** Virgil Jordan, at Investment Bankers Association, N. Y., Dec. 10, 1940.

*** المصدر السابق نفسه .

هائلة لا للدفاع الوطني ، ولكن للعدوان ، لفرض سلطان الولايات المتحدة في كل مكان .

ولم يكن في ميسور جوردان ان يتنبأ ، سنة ١٩٤٠ ، بالخصم الألدّ الذي ينبغي على قوات الاستعمار الاميركي المسلحة ان توجّه لحربه . حتى إذا انقضت ستّ سنوات لم يبق ثمة تردّد او ريب . فقد أوضح ويلتش لمستمعيه من كبار رجال المال والاعمال بعض العقبات التي تنهض في طريق المستعمرين الاميركيين من مثل نضال العمال في سبيل اجور أعلى ومن اجل الاشتراكية ، وكفاح الشعوب المستعبدة من اجل التحرر الوطني ، ومقاومة الدول الاستعمارية المنافسة لوول ستريت الذي يعمل على زحزحتها عن مكانتها . ولكن العدوّ الرئيسي كان محدداً أتم التحديد في ذهنه :

« إن جميع هذه القوى لتتضاءل في ظلّ النضال الكبير بين الاتحاد السوفياتي والدول الغربية ، هذا النضال الذي تصل ارتجاجاته الى كل زاوية من زوايا الكرة الارضية . »

٦ . محاولة استعمار اوروبا

•

تحتل اوروبة الغربية المحل الاول في برنامج وول ستريت للسيطرة على العالم . ولا غرابة في ذلك فهي تملك صناعة متطوّرة ويداً عاملة بارعة خليقتين بان تجعلاها مصدراً من مصادر الربح الفاحش لمن يستطيع ان يهبط بها الى وضع استعماري او شبه استعماري . انها ، بما تملك من امبراطوريات قديمة ، مفتاح السيطرة على قسم كبير من افريقية وآسية . ليس هذا فحسب ، بل ان اوروبة الغربية ، بفضل موقعها ونظام الصناعة والمواصلات فيها ، وقوتها البشرية في ميداني الصناعة والحرب ، هي القاعدة المنطقية الرئيسية للحرب المبيتة ضد الاتحاد السوفياتي .

والواقع ان مصالح وول ستريت في اوروبة ليست جديدة . فبعد الحرب العالمية الاولى انفقت حكومة الولايات المتحدة عدة مليارات من الدولارات لمساعدة المستعمرين الاوروبيين على خنق الثورات في هنغارية وبولندة وفنلندة ، وابتغاء القضاء على الجمهورية السوفياتية الناشئة . حتى اذا توطدت دعائم الحكم الرأسمالي توطداً موقتاً في القسم الاكبر من اوروبة — وذلك حوالى سنة ١٩٢٣ — وظفت الشركات الاميركية عدة مليارات من الدولارات في

المانية ، وانكلترة ، وفرنسة ، وايطالية ، وغيرها من البلدان الاوروبية .

لقد كان الاستعمار الاميركي من القوة بمحلّ استطاع معه ولوج اوروبة ، ولكنه كان لا يزال أعجز من ان يحاول بسط سلطانه عليها . وكانت الرساميل التي وظفها في تلك القارة غير كافية لفرض سيطرة وول ستريت على صناعاتها الرئيسية . كذلك احتفظت البلدان الاوروبية بقوى مسلحة ضخمة وبحياتها السياسية الخاصة . ولم تقم القوات الاميركية فترة طويلة في اوروبة بعد انقضاء الحرب العالمية الاولى .

اما الحرب العالمية الثانية فقد نتج عنها توازن جديد في القوى بلغ الاستعمار الاميركي بفضله تلك المرحلة التي عجز عن بلوغها عقب الحرب العالمية الاولى . اعني مرحلة القيام بمحاولة لاستعمار اوروبة . وهكذا عبأت الحكومة ، وفقاً لتوجيهات وول ستريت التي عبّر عنها فيرجيل جوردان * ، عشرات المليارات من الدولارات لتمويل هذه المحاولة ، وقدّمتها في شكل قروض وهبات الى بلدان اوروبة الرأسمالية . اما الشعب الاميركي فقد قيل له ان هذه المليارات أنفقت لأطعام الشعوب الجائعة ، وانقاذ المؤسسات الحرة ، وصيانة استقلال هاتيك البلدان من العدوان .

ولكن الغرض الحقيقي كان عكس ذلك .

والاستعمار الاميركي يصطنع أساليب مختلفة في محاولة فتح اوروبة . وتنتظم هذه الاساليبُ الاتفاقاتِ المالية المعقودة مع

* راجع الفصل السابق .

عض الدول الاوروبية المفردة، ومبدأ ترومان في اليونان وتركية، ومشروع مارشال الذي يستغرق اوروبة الرأسمالية بكاملها وينطوي على انفاق ما يزيد على خمسة عشر مليار دولار ، وحلف شمالي الاطلسي الذي ما برح ينمو ويتسع من حيث نطاق العمل ومداه.

ولهذه البرامج كلها مجموعة واحدة من الاهداف :

١ . السيطرة السياسية على اوروبة ،
٢ . السيطرة الاقتصادية على اوروبة ،
٣ . الاستيلاء على المستعمرات الاوروبية ،
٤ . إعداد القواعد العسكرية للحرب ضد الاتحاد السوفياتي .

اسلوب الفتح التدريجي

وتصطنع الولايات المتحدة اسلوب الفتح التدريجي لبلوغ هذه الاهداف الاربعة . فاذا اخذنا بريطانية مثلًا وجدنا ان اتفاقية القرض المعقودة بينها وبين الولايات المتحدة سنة ١٩٤٥ ، لم تفرض عليها غير بعض الشروط العامة . ولكن هذه الشروط اضعفت الاستقلال البريطاني الى درجة حملت لندن على ان ترتضي شروطاً اقسى واعنف ، في ظل مشروع مارشال . وما هي إلا فترة حتى وجدت الحكومة البريطانية نفسها مضطرة الى القبول بحلف شمالي الاطلسي واتفاقات العون التي انطوى عليها .

ولسنا نجانب الحقيقة إذا قلنا ان بريطانية انتهت اليوم الى ان تصبح عضواً في « كومونولث الولايات المتحدة » ، وان استقلالها عن سيدتها قد يكون اوفر بعض الشيء من الاستقلال الذي كان

للهند في الامبراطورية البريطانية القديمة ، ولكنه اقل بعض الشيء من الاستقلال الذي تمتعت به اوسترالية في تلك الامبراطورية. وليس ذلك ، في الحق ، شيئاً قليلًا بالنسبة الى دولة كانت سيدة البحار في يوم من الايام ...

وسنعالج في بقية هذا الفصل هذا الاستعمار التدريجي لأوروبة من زاوية السيطرة السياسية عليها .

التعاون مع العناصر الرجعية

ان سيطرة الاستعمار الاميركي السياسية على اوروبة الغربية بدأت خلال الحرب العالمية الثانية. وتفصيل ذلك ان نضال الشعوب الاوروبية ضد الاستعمار الالماني كان ، في الوقت نفسه، نضالاً ضد الاستعماريين « الوطنيين » الذين تعاونوا مع الغازي ، وساعدوه على استعباد الشعب .

ففي فرنسة وضعت قوى التحرير المؤيدة من كثرة السكان الكبيرة منهاجاً يهدف إلى تأميم الصناعات الرئيسية وصيانة استقلال البلاد . وفي ايطالية اقرت « لجنة التحرير الوطني » برنامجاً ضخماً ينتظم تأميم الصناعات الاساسية واجراء إصلاح جذري في ما يتصل بملكية الاراضي .

ومثل هذا التوازن في القوى حصل ايضاً في بلدان أوروبة الشرقية. فهنا سمحت الجيوش السوفياتية للقوى المناوئة للاستعمار بأن تُنزل العقاب باولئك الذين تعاونوا مع الفاشستيين ، وأمدت الشعب بالسلاح وبالعون الاقتصادي اللذين يمكنانه من توطيد

حكمه وسلطانه .

اما مهمة الجيوش البريطانيـة الاميركية فكانت عـلى خلاف ذلك تماماً : ان تحول دون تحرير البلدان التي احتلتها . ومن هنا اصرّت على تجريد قوى المقاومة الشعبية من السلاح ، وحملت معها قواتٍ كانت الحكومات الرجعية المهاجرة قـد جمعتها وزوّدتها بالأسلحة الاميركية . ليس هـذا فحسب بل لقد تعاونت الجيوش البريطانية والاميركية ، في جميع المواطن التي احتلتها ، مع جمهرة السياسيين والرأسماليين الرجعيين ورفعتهم الى مراكز السلطـة والحكم ...

وفي اليونان وبلجيكة جرّدت الجيوش البريطانية جماهـير الشعب من السلاح ، عنوةً واقتداراً ، وأقامت في الأولى نظاماً ملكياً فاشستياً بقوة الحراب . اما في فرنسة وايطاليـة فارتضت الجماهير ان يُنزَعَ منها سلاحها ، واجريت انتخابات نيابية. ولكن الرجعيين ظلوا يحتلون المراكز الحاسمة في الدولة ...

وطبيعي ان تفقد الحكومات الرأسماليـة التي نصّبها التواطؤ البريطاني الاميركي حرّيتها واستقلالها . فقد كانت خاضعة لسيطرة لندن وواشنطون ، ولسيطرة هذه الأخيرة على الخصوص بعد ان لجأت اليها في طلب المساعدة الاقتصادية والعسكرية ابتغاء إحياء مصانعها والاحتفاظ بامبراطوريتها الاستعمارية .

وإنما تمّ التمكين للقوى الاستعمارية، في معظم اجزاء اوروبة ، بواسطة قواتٍ بريطانية واميركية مشتركة . وقـد رافق ذلك صراعٌ بين الاستعمار البريطاني والاستعمار الاميركي للسيطرة على

اوروبة . ولكن الاستعمار البريطاني كانت تعوزه الموارد الماليـة والعسكرية، فلم يكن بدّ من انكفائه في وجه المنافسة الاميركية.

وفي ألمانية دُمجت منطقتا الاحتلال البريطانية والاميركية ، سنة ١٩٤٦ ، بشروط جعلت الاميركيين اصحاب الكلمة العليا بفضل مركزهم المـالي المتفوق . كذلك انقلب الاحتلال الانكليزي الاميركي لأيطالية الى سيطرة اميركية مطلقة، وأسلمَ البريطانيون اليونانَ للاحتلال الاميركي (مبدأ ترومان) .

ولم يدشن مبدأ ترومان سياسة العنف الاستعمارية الاميركية في اوروبة فحسب ، بل كان نذيراً بطورٍ جديد من اطوار سيطرة اميركة السياسية المتعاظمة على اوروبة الغربية . فلم تكد حكومـة الولايات المتحدة تتدخل في اليونان حتى اصدرت امرهـا بإقصاء الشيوعيين عن جميع الحكومات المؤتلفة في البلدان الخاضعة لنفوذ واشنطون ؛ وفي ربيع ١٩٤٧ أخرج الشيوعيون من حكومات بلجيكة ، وفرنسة ، وايطالية، وتشيلي. وقد أتبِـعت هذه الخطوة بحملةٍ من الاضطهـاد المكشوف وجهتها تلك الحكومات الى النقابات العمالية ، وبموجة من العنف المسلح حاول الحاكمون ان يضعوا بواسطتها حداً لاضرابات العمال المتكررة .

تعاظم السيطرة السياسية

ويلعب مشروع مارشال دوراً كبيراً في اخضاع اوروبـة لسيطرة الولايات المتحدة . ذلك بأن جميع الحكومات التي رفعها هذا المشروع الى دست السلطة مستعدة لأن تبيع استقلال شعوبها

نزولاً عند اوامر واشنطون . وإحدى الطرق المؤدية الى ذلك هي توقيع الاتفاقات غير المتكافئة .

والواقع ان الحكومة الفرنسية أذعنت لسلسلة من التنظيمات التي أوحت واشنطون بتطبيقها في المانية الغربية ، والتي ادّت الى تقوية العدو القديم ، الاستعمار الالماني ، على حساب فرنسة . وكذلك وقعت جميع الحكومات المشمولة بمشروع مارشال على اتفاقات منفردة مع الولايات المتحدة تنازلت بموجبها عن جزء كبير من سيادتها في الشؤون الداخلية .

وهذه الاتفاقيات تعطي واشنطون الحق في إيفاد البعثات الخاصة ذات الامتيازات الديبلوماسية الى البلدان الموقعة عليها . وتجيز لاعضاء هذه البعثات ولرجال الكونغرس ومساعديهم ان يقصدوا الى كل مكان ، وان يشاهدوا كل شيء ، وان يطلبوا الى حكومات تلك البلدان تسهيل مهماتهم على اختلافها . والحقّ ان بلدان اوروبة الغربية لتغصّ اليوم بالموظفين ورجال الاعمال الاميركيين الذين يهبطونها في كبرياء السيد وعجرفة المتفضل ، كما كان « السياح » النازيون يفعلون في البلدان التي اعتزم الاستعمار الالماني فتحها. ليس هذا فحسب ، بل إن هذه الاتفاقيات تمنح حكومة الولايات المتحدة سلطة فعالة على السياسات المالية الخاصة ببلدان المشروع ،وتحظر على الحكومات الاوروبية حماية رأسمالييها من مزاحمة الشركات الاحتكارية الاميركية .

وقد حاولت الحكومة الفرنسية ان تعطل احكام اتفاقية مشروع مارشال التي وقعت عليها خوفاً من نقمة الشعب الفرنسي الذي

يضع استقلاله الوطني فوق كل اعتبار .

وقد تدهش اذا علمت ان اصغر موظف اميركي يقيم في اوروبة باسم مشروع مارشال ليستشعرُ انه حرٌ في تحدّي الحكومة الاوروبية التي يعمل في ظلها ، وانتقادها . وسنجتزيء ههنا بمثل واحد على ذلك. فنزولاً عند إرادة المشرفين على مشروع مارشال، وازنت الحكومة الايطالية موازنتها وثبتت نقدها على حساب الشعب الايطالي ، ولجأت الى تدابير « توفيرية » مختلفة زادت ازمة البطالة حدّةً وخطراً ، وتركت البلاد مُشرعة الابواب في وجه السلع والرساميل الاميركية . ولكن واشنطون ما لبثت ان رغبت ، خريف سنة ١٩٥٠ ، في ان تشجع انتاج ايطالية الحربي، وهي رغبة تقتضي سياساتٍ مختلفةً بالكلية . فما كان من ليون دايتون Dayton ، رئيس بعثة مشروع مارشال في ايطالية ، إلا ان شن هجوماً عنيفاً على الحكومة الايطالية لاتباعها تلك السياسات التي أمرت بها حكومته نفسُها في وقت من الاوقات . ومن عجبٍ ان الحكومة الايطالية لم تطالب باقالة هذا الموظف ، بل اكتفت بان دافعت عن مسلكها ، زاعمةً انها قد عملت من قبل على انتهاج السياسة التي يطالبها دايتون الآن بانتهاجها ، وبذلك مهدت السبيل لتكييف نفسها وفق التحول الجديد في السياسة الاميركية * .

وفي الوقت نفسه تقريباً هددت واشنطون بالتوقف عن شحن المساعدات التي يقضي بها مشروع مارشال الى اليونان اذا لم تقلع حكومة تلك البلاد عن « تقصيرها » في تنفيذ بعض التعليمات الصادرة

* New York Times, Oct. 3, 6, 1950.

اليها من ادارة المشروع . وما هي الا اسابيع معدودات حتى أُعدّ تشريعٌ تبنّت فيه الحكومة اليونانية مطالب الولايات المتحدة.

أما في المانية الواقعة تحت الاحتلال العسكري المباشر ، وفي اليونان الخاضعة لمراقبة « المستشارين » العسكريين والمدنيين فان سلطان اميركا السياسي يذهب الى حدّ تسمية الوزراء ، ورؤساء الوزراء ، واركان الجيش . وفي سنة ١٩٤٩ اقامت الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة دولة المانية غربية تسيطر القوات المحتلة على سياستها التشريعية والتجارية والخارجية وعلى دفاعها الوطني .

« توحيد » اوروبة

وإنما تحاول الولايات المتحدة ان تفرض سيطرتها الاستعمارية على اوروبة الرأسمالية كلها تحت شعار « الوحدة » الاوروبية ، زاعمةً ان دول اوروبة المتعددة أصغر من ان تستطيع الحياة منفردةً وأن عليها ان تندمج في دولة « اطلسية » كبرى تكون الكلمة العليا فيها لواشنطون .

ويعقد الاستعماريون الاميركيون مقارنةً مغلوطة بين هذه الوحدة الاوروبية والاتحاد الفدرالي القائم بين ولاياتنا الاميركية. ذلك بان تلك الخطوة إنما تمّت في فترة مبكرة من الرأسمالية عندما اندمجت عناصر شعبٍ ذي اقليم مشترك ، ولغة مشتركة ، وثقافة مشتركة ، واقتصاد مشترك ، في دولة واحدة قضى تطوّر الرأسمالية تطوراً كاملاً بقيامها . وقد اجتازت مختلف الدول الاوروبية هذه المرحلة نفسها منذ زمن طويل ، فمر بها بعضها قبل

الولايات المتحدة ، ومر بها بعضها الآخر بعدها بقليل .

والواقع ان لينين نادى بالوحدة الاوروبية خلال الحرب العالمية الاولى . وقد انطوت دعوته لا على دمج الشعوب ذات اللغة المشتركة واسلوب العيش المشترك في وحدة سياسية ، بل على تزاوج الامم ذوات اللغات المختلفة،والثقافة المختلفة ، والاقتصاديات المختلفة في وحدة سياسية مفردة . ففي ظل الرأسمالية لا يُعتبر دمج الامم المختلفة في دولة واحدة خطوة تقدمية ، بل خطوة رجعية . انها تنطوي من غير ريب على سيطرة الأمم الكبرى على الامم الصغرى ، وهو ضرب مقنّع من الاستعمار .

والواقع ان الاستعماريين الاميركيين سعوا، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، سعياً حثيثاً لتوحيد اوروبة الرأسمالية : فاجريت محادثاتٌ لالغاء الحواجز الجمركية ، وانشاء مجلس لأوروبة ، ومنظمة للتعاون الاوروبي الاقتصادي . ولكن هذه الجهود كلها تحطمت على صخرة الخلافات القائمة بين مختلف المجموعات الاوروبية الرأسمالية ، وحرص الشعوب الاوروبية على استقلالها الوطني .

وقد شكا جون فوستر دولز ، احد واضعي التصاميم البارزين لفرض سلطان وول ستريت على العالم ، من هذا الاخفاق وعبّر عن عزم الاستعمار الاميركي على دمج الدول الاوروبية بعضها ببعض ، زاعماً ان لنا « الحق » في ذلك « لاننا قد وظفنا رساميل هائلة في اوروبة الغربية » و « بسببٍ من روابط الدم التي تصل ما بين شعبنا وشعوب اوروبة . » وهو يصر على ضرورة اصطناع « الضغط القوي » للتغلب على مقاومة الشعوب لهذا المشروع ،

عاذراً اولي الامر الاوروبيين الذين صرحوا له بان شعوبهم لا تسمح لهم بان يخطوا الخطوة الأولى في سبيل الوحدة الاوروبية و « ان الولايات المتحدة يجب ان تدفعنا . » ولم يخيب دولز آمال هؤلاء الساسة فاذا هو يقول في صراحة بالغة : « ليس في وسعنا ان نتشبث في هذه الفترة الخطيرة ، باهداب الرسميات . ونحن لم نبذل ما بذلناه من جهود جبارة في الغرب، عقب الحرب العالمية الثانية ، لنكسب مباراةً في الشعبية ... فالشعبية ، حتى لو استطعنا ان نشتريها باموالنا،لا تستحق ان يُنفق من اجلها ٢٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار . ثم اننا لا نتمتع بشعبية حسنة في هذه الأيام ... اننا نرغب في ان نقوم بمهمة كاملة حتى يكون في ميسورنا ان نتركها بعدُ ونوجه اهتمامنا وعوننا المادي نحو الاوضاع الملحة في مواطن اخرى ، وبخاصة في المحيط الاطلسي والشرق الاقصى . » *

والواقع ان محاولة توحيد اوروبة على طريقة دولز واتشيسون لتقومُ من وجهة النظر السياسية على اساس إحياء الصناعة الالمانية العدوانية ، كما جرى بعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن مع هذا الفرق ، وهو ان امراء وول ستريت لن يكتفوا هذه المرة باحياء الصناعة الالمانية ولكنهم عازمون على ان يفرضوا سيادتهم على الرور ، ومن ثم على اوروبة الرأسمالية كلها. والمكانة الرئيسية التي تحتلها المانية في خطط وول ستريت إنما تتجلى بشكل صارخ في تصريحات الناطقين باسم رأس المال الاميركي، من هربرت هوفر سنة ١٩٤٦، الى اتشيسون سنة ١٩٤٧، الى دولز سنة ١٩٥٠.

* John Foster Dulles, War or Peace, p. 215, N.Y., 1950

واسباب هذا الاهتمام كله بالمانية متعددة. فالاحتلال العسكري الصريح يجعل منها قاعدة ممتازة للعمليات الحربية. والرساميل الاميركية الموظفة في المانية الغربية اليوم تفوق الرساميل الاميركية الموظفة في بريطانية بعض الشيء ، وتبلغ اضعاف تلك الموظفة في ايما بلد اوروبي آخر . ومن طريق هذه الرساميل ، ومن طريق المحالفات الاقتصادية الدولية تمّت لوول ستريت صلات وثيقة باصحاب المصارف والمصانع في الرور . من اجل ذلك ، وبسبب من طاقته الاقتصادية الضخمة ، غدا الرور قاعدة مثالية لاستعمار اوروبة القارية برمتها . اضف الى ذلك ان المانية الغربية هي معقل الفاشستية والضباط النازيين الراغبين في الثأر لهزيمتهم في الحرب العالمية الثانية ، العاملين في خدمة الخطط الاستعمارية الاميركية لشن حرب عالمية على الاتحاد السوفياتي . وطبيعي ان يكون الرور هو المركز الرئيسي لكل دار صناعة او ترسانة arsenal تنشأ في اوروبة لشن تلك الحرب . ليس هذا فحسب ، بل ان إحياء الرأسمالية الالمانية في ظل وول ستريت وتحت اشرافه خليق بان يُنزل الى الميدان منافساً قوياً للاستعمار البريطاني،وبان يقيم توازناً في القوى تستطيع الخطط الاستعمارية الاميركية ان تُخضع بواسطته الخصمين المتصارعين ، لسلطانها ، وهكذا يوضع الاستعماريون البريطانيون ، بفضل الوحدة الاوروبية ، في مركز يقضي عليهم بان يتنافسوا مع اصحاب الرساميل الالمانية على شرف الحصول على لقب الشريك الصغير لوول ستريت !!...

LAU Riyad Nassar Library

٧ . السيطرة الاقتصادية على أوروبة الغربية

•

وتجري سيطرة اميركة السياسية على اوروبة الغربية جنباً الى جنب مع سيطرة رأس المال الاميركي الاقتصادية على تلك البقعة من العالم .

ومن خلال الاتفاقات والخطط والصفقات التي وضعت بلدان مشروع مارشال تحت سلطة الولايات المتحدة تبدو للباحث بضع ظواهر عامة :

١ . لقد قُصِد في كل من هذه الاتفاقات والخطط والصفقات، الى ضمان ربحٍ عاجلٍ ضخم للشركات الاحتكارية الاميركية .

٢ . لقد أُخذ بعين الاعتبار في كل منها إضعاف الاقتصاد الاوروبي وتقويض آساسه ، واستغلال طبقة العمال الاوروبيين استغلالاً إضافياً ، ومساعدة وول ستريت على امتلاك الصناعات الاوروبية .

٣ . ان الهدف النهائي الذي ترمي اليه هذه الاتفاقات والخطط والصفقات جميعاً هو تحويل صناعة اوروبة الغربية الى ترسانة يسيطر عليها امراء وول ستريت ويفيدون منها في حال نشوب حرب عالمية جديدة .

وسنبحث فيما يلي بعض الخطوات الرئيسية في هذه العملية .

المبالغة في اغراق الاسواق

ان عشرات المليارات التي تألفت منها قروض الولايات المتحدة وهباتها بعد الحرب العالمية الثانية ، جعلت من اوروبة الغربية حقلاً مضموناً لاستهلاك الفائض من المنتجات الاميركية الصناعية والزراعية . والواقع ان ما بين ٦٠ الى ٨٠ بالمئة من مجموع صادرات الولايات المتحدة من الحبوب وفستق العبيد (الفول السوداني) ومنتجات النحاس والقمح والطحين والقطن والتبغ خلال التسعة الأشهر الاولى من سنة ١٩٤٩ أُرسلت الى البلدان المشمولة بمشروع مارشال *

وهذه الصادرات كلها لم تُرسَل الى تلك البلدان لان شعوبها في حاجة اليها ، ولكنها ارسلت لان الاحتكارات الاميركية التي تريد التخلص منها، على ما يؤخذ من شهادة ادلى بها الكولونيل اندروز المسؤول عن تأمين الاغذية في شعبة التموين المدني التابعة للجيش الاميركي في المانية :

الكولونيل اندروز :الحق انهم لا يستطيعون ان يبيعوا هذا الفول السوداني في الولايات المتحدة لسبب واحد وهو غلاؤه ... انه غذاء جيد وإنه لتصنعُ منه زيوت ودهون ممتازة ، ولكن ليس ثمة مكان على ظهر هذا الكوكب يمكن ان يُرسل اليه هذا الفول

* E. C. A. 18 th Report for the Public Advisory Board, Dec., 1949. cover page.

LAU Riyad Nassar Library

السوداني لو لم نأخذه نحن .

النائب الجمهوري تابر (نيويورك) : بمثل ذلك السعر .

الكولونيل اندروز : اجل بذلك السعر ، إن لم يُرسل الى المانية . لقد كان على الجيش ان يأخذه من دون سائر الناس .

النائب الجمهوري غاري (فرجينيا) : هل تعني انهم أبوا ان يبيعوكم منتجات اخرى ما لم تشتروا فستق العبيد هذا ؟

الكولونيل اندروز : لكي نحصل على حصة من هذه الزيوت من وزارة الزراعة أظن ان من الصواب الزعم انه كان علينا ، عملياً ، ان نقول : « لا بأس ، سنأخذ مقداراً من فولكم السوداني . » لقد التمستُ منهم ان يعطوني بعض شحم الخنزير واضرابه فكان جوابهم : « لن نسمح بتصدير أيما كمية من شحم الخنزير ؛ ان في استطاعتك ان تأخذ كمية من فستق العبيد . » وهكذا قلت : « إذن أعطونا إياها ... » *

والواقع ان المنتجات الفائضة التي أغرِقت بها ألمانية سنة ١٩٤٨ اشتملت على ٢٣٦،٩١٤،٠٨٦ رطلًا (انكليزياً) من فستق العبيد غير المقشور ، و ٤٤٣،١٠٩،٠٧٨ رطلًا من الخوخ والعنب والتين والدراق والمشمش المجفف و ١٠،٨٠١،٤٢٤ من العسل . وحتى هذه المقادير كلها لم ترض اصحاب الجنائن الذين وفدوا على واشنطون في اوائل سنة ١٩٤٩ وهدّدوا بقطع ٢٨ بالمئة من اشجارهم المثمرة إذا لم تزد السلطاتُ المشرفة على مشروع مارشال الكميات التي

* Foreign Aid Appropriations Bill for 1950, Hearings cited, pp. 914-15.

تصدّرها من الفاكهة المجففة .

وليس من ريب في ان موجة التصدير هذه لم تساعد شعوب البلدان الداخلة في نطاق مشروع مارشال بل اوقعت بها اذى كبيراً . ذلك انها انقصت الانتاج المحلي في أوروبة ، وضيقت نطاق الاستيراد من البلدان الاخرى . ليس هذا فحسب بل ان جماهير الشعب في الدول الاوروبية لم يكن في ميسورها ان تشتري السلع الاميركية لان السياسات التي فرضتها واشنطون ، بالتعاون مع الاحتكارات الاوروبية ، قضت بانقاص قوة العمال الشرائية الى حدٍ جعلهم عاجزين عن دفع الاثمان الغالية المحددة لتلك السلع .

وهاك مثلًا على ذلك : لقد رُكّز شحن الحبوب الاميركية الى ايطالية تركيزاً متعمداً في الفترة القصيرة التي سبقت انتخابات نيسان ١٩٤٨ . حتى إذا وصلت الشحنات الى الموانىء الايطالية استقبلها السفير الاميركي والموظفون الايطاليون بجملة صاخبة من الدعاية اديرت على محور اطعام الشعب الايطالي الجائع ...

وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٠ كشفت برقية مرسلة الى « صحيفة التجارة » Journal of Commerce النيويوركية النقاب عن مصير تلك الحبوب . وقد جاء في هذه البرقية ان اربعين بالمئة من الشحنات التي تلقتها إيطالية خلال الخمسة عشر شهراً الاولى من تنفيذ مشروع مارشال ظلت غير مبيعة حتى نهاية تلك المدة . وبلغت النسبة حداً اعلى من ذلك بكثير في اصنافٍ من البضائع مخصوصةٍ ، كالحبوب والعقاقير وغيرها . وقد علقت « صحيفة التجارة » على ذلك بقولها : « إن عجز الشعب الايطالي عن شراء قسم كبير من المنتجات

المرسلة اليه من قبل «ادارة التعاون الاقتصادي» قد خلق للحكومة الايطالية مشكلة رواج يصعب حلها . »

ولسنا في حاجة الى التأكيد ان الاحتكارات الاميركية قد جنت ارباحاً استثنائية من هذه السياسة . فقد بيعت هذه البضائع من شعوب اوروبة باسعار أغلى من الاسعار العادية، وساعد تصديرها السخي على إيجاد جو من «القصور» shortage المصطنع في الولايات المتحدة نفسها استغلته الاحتكارات الاميركية لرفع الاسعار فوق مستوى القمم التي بلغتها ايام الحرب طوال سنوات متعددة . . .

خفض الاجور

ومن الخطوات الاساسية في استعمار اوروبة إنقاصُ الأجور الحقيقية للعمال الاوروبيين وإنقاض ظهورهم بالعمل الثقيل بحيث ترتفع نسبة استغلالهم الى المستوى الذي بلغته في المناطق المستعمرة ونصف المستعمرة . وفي ذلك ما يفسح المجال امام الرأسماليين الاميركيين لانتزاع الارباح الفاحشة المألوفة من المشروعات الاجنبية.

ومما يدلك على ان نية الولايات المتحدة متجهة الى خفض مستوى العيش في اوروبة شهادةٌ ادلى بها بول هوفمان Hoffman ، مدير مشروع مارشال ، امام لجنة من اعضاء الكونغرس :

«اذا اعتزمنا ان نمد اوروبة بالدولارات ، واعتزمت اوروبة ان تبلغ ما نستطيع ان ندعوه المستوى المغلوط في العيش فعندئذ لا تكون العاقبة خيراً . وهكذا سعينا الى ان نقيم سقوفاً لمستويات العيش . »

وحدّد مساعده ريتشارد بيسيل Bissell ، تلك « السقوف » على الوجه التالي : **المطعم** — « هنا نستطيع ان نتخذ سنة ١٩٣٨ سقفاً او حداً اعلى » ؛ **المسكن** — « ادنى مما كان عليه في السنوات السابقة للحرب» ؛ **الملبس وبضائع الاستهلاك** — «إن استهلاك هذه السلع يجب ان يخفض ، في معظم الأحوال، الى ما دون المستوى الذي كان عليه قبل الحرب على الرغم من تعاظم الحاجة اليها بسبب من ان الأوروبيين حُرِموها ، او كادوا ، خلال سنوات الحرب العجاف . » *

وهكذا قُدّر على طبقة العمال الأوروبيين التي عانت ما عانته طوال عشر سنوات من الازمة الاقتصادية وخمس سنوات من الحرب ان تقاسي آلاماً اعمق في ظل الاستعمار الاميركي الحديث!

أما الاساليب التي اصطنعها امراء وول ستريت لكبت مستوى العيش فتشمل تجميد الاجور (وفرضها على العمال بالرصاص عند الاقتضاء) ورفع الاسعار ، وإثقال كاهل الطبقة العاملة في اوروبة بالضرائب الفادحة ، والنفقات العسكرية الباهظة ، وخفض قيمة النقد خفضاً متكرراً . . .

ولننظر في النتيجة التي آلت اليها هذه الاساليب في انكلترة — شريكة الاستعمار الاميركي الصغرى — التي لا تزال تحصل على غنائم وافرة من امبراطوريتها الاستعمارية . ولنعتمد في ذلك شهادة الدكتور فيتزجيرالد، الخبير الزراعي في مشروع مارشال ، الذي وصف حالة الغذاء في بريطانية كما كانت في اوائل سنة١٩٤٩،

* Foreign Aid Appropriations Bill for 1950.pp. 58-59 .

قبل تخفيض قيمة الجنيه ، وقبل التعبئة العسكرية التي أمرت بها واشنطون سنة ١٩٥٠ ، فقال :

« ... إنّ التغيير الذي طرأ على نوعية الأغذية ليتجلى لنا إذا ألقينا نظرةً على بعض التغيرات التي ألمّت بمواد الغذاء الفردي . فبالنسبة الى ما كانت عليه الحال قبل الحرب نجد ان متوسط استهلاك الفرد في المملكة المتحدة من مادة البطاطا قد ارتفع ٦٥ ٪ . وان متوسط استهلاكه من الخبز زاد نحواً من ٢٥ ٪ في حين أن متوسط الاستهلاك الفردي من اللحم والسكّر والدهن والزيت (وبخاصةٍ اللحم) قد تدنّى تدنياً كبيراً. فقد بلغ مجموع ما استهلكته بريطانية سنة ١٩٤٨ – ١٩٤٩ من اللحم نحو ٧٠٪ مما كانت تستهلكه في السنوات السابقة للحرب؛ اما الآن ، وابتداءً من مطلع نيسان، فقد انخفض متوسط استهلاك الفرد البريطاني من اللحم الى درجة ادنى مما كان عليه في ايما وقتٍ مضى منذ اندلاع الحرب .» *

فاذا كان العمال البريطانيون يعانون من صرامة مشروع مارشال اكثر مما عانوا خلال سنوات الحرب فليس من ريب في ان الحالة في البلدان الاوروبية الاخرى يجب ان تكون اسوأ من ذلك بكثير.

ففي المانية الغربية كانت نسبة الاجور الحقيقية، في حزيران سنة ١٩٤٩ – وفقاً لأدق الاحصاءات وأجدرها بالثقة – ١٣ ونصف ٪ أدنى من مستوى سنة ١٩٣٨ ** وكانت آنذاك قد انخفضت الى

* المصدر السابق نفسه ص ٣٠٨

** Office of Military Government for Germany (U. S.), Report of the Military Governor, Berlin, Aug.-Sept. 1949, p.124.

ما دون مستوى الازمة الذي انتهت اليه سنة ١٩٣٢ ، بفضل تجميد هتلر للأجور .

واليك صورة عن الحياة في فرنسة كما رسمها الرأسمالي البارز ، أريك جونستون ، في مقال له :

« ليس من المبالغة ان نقول ان هوامش الربح نادراً ما تكون اقل من ٥٠ ٪ وكثيراً ما ترتفع الى ما فوق المئة بالمئة ، ولكن كثرة الشعب تكاد تشكو العوز والحرمان. إن الاغنياء ليزدادون اليوم غنىً ، وان الفقراء ليزدادون اليوم فقراً . والنتيجة النهائية لهذا الوضع يمكن ان تكون العنف – الفوضى – الشيوعية . » *

ويعترف تقرير رسمي اصدرته ادارة مشروع مارشال ان الاجور الحقيقية في خريف سنة ١٩٤٨ انتهت الى ان تكون ، في منطقة باريس ، دون مستوى ما قبل الحرب ، بنسبة ٥٠ ٪ . كذلك انخفض متوسط استهلاك الطعام ١٨ ٪ ، واكثر من ذلك بالنسبة الى العمال. ** وبعد ان يصف التقرير الاحوال البائسة التي يعيش العمال الفرنسيون في ظلها يخلص الى القول : « وقد ادى ذلك الى اثارة حفيظة العمال، وهو يفسّر لنا تعاظم قوة الشيوعيين في الحقل السياسي ، وفي « اتحاد العمل العام » على السواء .»

وفي عددها الصادر في ٣١ آذار سنة ١٩٥٠ قارنت مجلة «U. S. News and World Report» المحافظة بين الحياة المترفة التي تحياها الطبقة الحاكمة في ايطالية وبين حياة العمال الذين يبلغ متوسط

* Eric Johnston in Fortune, Feb., 1949, p. 120.

** E. C. A., France, Country Study, Feb., 1949, p. 11.

Riyad Nasser Library

اجر الواحد منهم اربعة دولارات ونصف اسبوعياً ، وحيـــاة المزارعين الذين لا يزيد متوسط دخل الواحد منهم على مئة دولار سنويـــاً . *

ويتجلى لك اثر الاحتكارات الاميركية في هـذا الفقر المدقع حين تقارن ما بين نِسَب الأجور الاميركيـة و نِسَب الأجور الاوروبية . ففي سنة ١٩٣٨ كانت اجور العـمال البريطانيين والألمان والهولنديين تبلغ نصف اجور العمال في الولايات المتحدة تقريباً. حتى إذا دخلت سنة ١٩٤٩ صارت اجور العمال البريطانيين لا تكاد تبلغ ربع اجور زملائهم الاميركيين ، في حـين امست اجور العمال الالمان خُمس الاجور الاميركية ، واجور العـمال الهولنديين سدسها تقريباً . **

سحق الاقتصاد الوطني

يزعم الناطقون بلسان واشنطون ان من همهم ان يساعدوا الدول الاوروبية على إنماء إنتاجها ، في حين ان اصحاب الرساميل المالية الاميركية يهدفون ، في الحقيقة ، الى إضعاف جميع مرافق الاقتصاد الوطني التي يمتلكها الاوروبيون انفسهم والقضاء عليهـا — وقد نجحوا في ذلك نجاحاً جزئياً — لـكي يسيطروا على السوق الاوروبية سيطرةً كاملة ويركزوا نشاط العـمال الوطنيين في

* U. S. News and World Report, Mar. 31. 1950.

** اعتمدنا في هذه الارقام على منشورات مختلفة أصدرها المكتب الاميركي لاحصاءات العمل ، ومنظمـة الامم المتحدة ، ومكتب الحكومـة العسكرية الاميركية في المانية . [المؤلف]

العمل لحساب المشروعات التي تملكها الولايات المتحدة .

والواقع ان إغراق السوق الاوروبية بالمنتجات الزراعية قد رافقه حرمانها من المعدات الزراعيـة ابتغاء الحؤول دون نهوض الزراعة الاوروبية من كبْوَتها. فخلال السنة الاولى من مشروع مارشال طلبت البـلدان الداخلة في المشروع ان تزوّدهـا الولايات المتحدة بمعـدّات زراعية تبلـغ قيمتها ٣٧٠ مليون دولار * . فوافقت وزارة الخارجية الاميركية على إمداد بلدان المشروع بما قيمته ١٣٣ مليون دولار . أمـــا ما شُحِن فعلًا من هذه المعـدات حتى ٣٠ حزيران سنة ١٩٤٩ فـلم تزد قيمته على ٤٠ مليون دولار . في حـين بلغت قيمـة ما شُحِـن الى بـلدان مشروع مارشال من التبغ ١١١ مليون دولار ** اي ثلاثة أضعاف قيمة المشحون من المعدات الزراعية تقريباً ، وذلك على حساب الاسواق الطبيعية للتبغ اليوناني والتركي .

ولقيت ضروب الصناعة التي يملكها الاوروبيون معاملةً مماثلة. ومن افضل الأمثلة على ذلك محاولة وول ستريت القضاء على شركات الزيت الوطنية وصناعات الفحم التي يملكها الاوروبيون...

وقد فصّلنا الكلام في الفصل الثاني على توسّع الشـركات الاميركية في إنتاج النفط توسعاً كبـيراً ، وبخاصة في الشرق الأوسط . ولـكي تحقق هذه الشركات الربح الذي تطمع فيه من

* Commitee of European Economic Cooperation, General Report, Vol. I. Paris, Sept., 1947. (in U. S. Dept. of State Publication 2930), p. 114.

** E. C. A., Paid Slipments, June, 30, 1949, p. 9.

وراء ذلك التوسّع تعيّن عليها ان تحاول السيطرة على المصافي والاسواق الاوروبيــة ، وعــلى حساب الشركات الوطنية ، والبريطانية الهولندية منها بخاصة . والحق ان مستر ويلتش امين صندوق شركة ستاندرد أويل وزملاءه الذين احتاجوا الى مبدأ ترومان لـكي يوطدوا مكانتهم في الشرق الأوسط كانوا في أمسّ الحاجة الى مشروع مارشال لـكي يستكملوا تلك المكانة في اوروبة. ولم يُطلّ صيف سنة ١٩٤٨ حتى كانت شركات النفط الاميركية تواجه ازمة حادة ناشئة عن الافراط في الانتاج . وعندئذ تصدّر مشروع مارشال لنجدتها وإسعافها .

ومن عجب ان الشركات الأميركية تبيع نفط الشرق الأوسط في اوروبة –وهو لا يقتضيها غير نفقات دانية نسبياً– بنفس السعر المحدّد لنفط تكساس محققة ارباحاً استعمارية فاحشة . ولـكي تفيد هذه الشركات اعظم الفائدة من اسواق مشروع مارشال المضمونة فقد عملت على مضاعفة مصافيها القائمة في اوروبة اربعة امثال او يزيد.

وما هي إلا فترة حتى خضعت بلدان اوروبة القارّية لسلطان شركات النفط الاميركية المطلق . أما الاستعماريون البريطانيون فقاوموا هذا السلطان وحاولوا ان يحدّوا ، في مطلع سنة ١٩٥٠ ، من استيراد النفط الذي تملكه الرساميل الأميركية . فما كان من اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي ، وعــلى رأسهم الشيخ توم كونالي ، إلا ان شنوا حملة شعواء على « سياسة التمييز هذه . » ليس هذا فحسب بل لقد اتخذت تدابير اقتصادية صارمة للانتقام من البريطانيين ،فلم تمضِ غير اشهر معدودات حتى القى البريطانيون

السلاح على اساس الشروط التي فرضتها الشركات الاميركية . إنهم لم يسمحوا للشركات الأميركية بان تستثمر نحو ٥٠٪ من اسواق المملكة المتحدة فحسب،بل فتحوا في وجهها اسواق المنطقة الأسترلينية التي كانت من قبل موصدة دونها .

وكان لتدفق النفط الأميركي اثره التدميري السيء في صناعة الفحم الأوروبية . ذلك ان اوروبة الفقيرة الى النفط تملك ثروة من الفحم ضخمة . ومنطق الاشياء يقضي بان تقتصد البلدان الاوروبية – اذا ما ارادت ان تستعيد استقلالها – في استعمال البترول وتُنفق جهداً جباراً للافادة الكاملة من مواردها الفحمية . ولكن إخضاع اوروبة لمشروع مارشال قاد هذه القارة في طريق معاكسة فاذا بالنفط يحلّ محلّ الفحم في سرعة لم يُسبق الى مثلها من قبل، وإذا بانتاج الفحم في البلدان التي ينتظمها مشروع مارشال ينقصُ في سنة ١٩٤٩ بنسبة ١٢٪ عما كان عليه سنة ١٩٣٧ *

الدولار يستعبد اوربة

تذهب الدعاية الاميركية إلى ان الغرض من « المعونة » التي تقدمها الولايات المتحدة الى البلدان الأوروبية مساعدةُ هذه البلدان على موازنة تجارتها الدولية وتحقيق استقرارها المالي . والواقع ان الولايات المتحدة إنما تهدف من وراء ذلك الى ان تزيد في عدم توازن تجارة اوروبة الدولية ، وتضعف من طاقتها الماليــة ، وتفرض عليها سلطان الدولار ومصارف وول ستريت الكبرى .

* Monthly Bulletin of Statistics, Apr. 1950.

LAU Riyad Nassar Library

وإنما بدأ إضعاف الطاقة المالية الاوروبية في المراحل الاولى من الحرب العالمية الثانية ، عندما أكرهت انكلترة ، وفرنسة ، وهولندة وغيرها على ان تتنازل عن جزء من ذهبها وكثير مما تملك خارج بلادها من اموال ، مقابل حصولها على بعض الاسلحة والذخائر . وفي الوقت نفسه صادرت الحكومة الاميركية او الدول السائرة في ركابها الرساميل الالمانية واليابانية والايطالية الموظفة في الخارج ، في سهولة ويسر .

واتسع نطاق هذه العملية عندما زحفت الجيوش الاميركية على اوروبة في اواخر الحرب العالمية الثانية. ذلك ان الضباط والجنود الاميركيين شرعوا يبيعون سلع الجيش من المواطنين الاوروبيين الذين كانوا في امسّ الحاجة اليها . وقد بيعت هذه السلع بأسعار فاحشة وبالنقد الاوروبي المتدهور، ثم جاءت حكومة الولايات المتحدة فكافأت ابطال هذه السوق السوداء بأن حولت محصولهم الى دولارات على اساسٍ من الاسعار الرسمية للعملات الوطنية . واكرهت حكومات أوروبة الغربية على ان تعترف بتلك المليارات من الدولارات ديناً للولايات المتحدة عليها. وبعد مدة من الزمن انتزعت الولايات المتحدة بعض الامتيازات السياسية والاقتصادية الخطيرة مقابل شطب هذه « الديون » شطباً جزئياً .

وفي مدى سنة أو سنتين من انتهاء الحرب استنُفد كامل الاحتياطي الذي خلفه الاستعماريون الاوروبيون من طريق شراء السلع من الولايات المتحدة بأسعار باهظة ، وفي وقتٍ عدمت فيه

اوروبة الانتاج الصناعي الذي يساعدها على أداء قيمتها .

ووضع امراء وول ستريت نصب اعينهم ، وهم يوزعون قروض مشروع مارشال ، هدفاً رئيسياً هو الحؤول دون إنهاض اوروبة من كبوتها الاقتصادية . وليس يمتري اثنان في ان تحقيق التوازن في تجارة اوروبة الدولية يقتضيها ان تشتري أقل قدر ممكن من السلع من الولايات المتحدة ، وأكبر قدر ممكن من السلع من البلدان الاخرى ذات المصلحة في ان تشتري من اوروبة الغربية بعض منتجاتها وأن تبيعها شيئاً من منتجاتها في وقت معاً. ومع ذلك فقد أكرهت البلدان الاوروبية ، بعد ان اشترط عليها منظمو القروض الاميركية ذلك ، على ان تشارك في مفاوضات التعريفات والتجارة التي جرت برعاية الشركات الاحتكارية الاميركية . وكانت النتيجة التي انتهت اليها هذه المفاوضات أن اخذ الرأسماليون الاميركيون على شكل امتيازات ، أكثر من ثلاثة اضعاف ما أعطوا *، وأن فُتحت في وجوههم اسواق اوروبة وأسواق البلدان التي كان يسيطر عليها الرأسماليون الاوروبيون في ما غبر من سنين .

وأهم من هذا كله محاولة الاستعمار الاميركي القضاء على التبادل التجاري في ما بين اوروبة الرأسمالية واوروبة الاشتراكية . فبعد ان انتزع الاستعمار الاميركي من يد المستعمرين الاوروبيين أجزاء كبيرة من أسواقهم المستعمَرة ونصف المستعمَرة ، وانتزعت

* U. S. Dept. of State announcement in New York Times, Dec. 9, 1949.

حركات التحرر الوطني من ايديهم كثيراً من اسواقهم الآسيوية ، حاول هؤلاء المستعمرون الاوروبيون ان يعوضوا على انفسهم من طريق التجارة مع الأسواق النامية في الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية . ولكن احد الشروط التي انطوت عليها اتفاقيات مشروع مارشال اكره دول اوروبة الرأسمالية على ان تقاطع العالم الاشتراكي ، اقتصادياً ، محرّماً عليها ان تبيع بلدان هذا العالم شيئاً ما ، من العقاقير الطبية إلى الآلات الكاتبة ، بوصفها « مواد حربية » ! وعلى الرغم من ان كثيراً من الرأسماليين الأوروبيين وُفقوا إلى خرق هذا الحصار الاقتصادي الذي ضربته واشنطون على بلدان الكتلة الشرقية فقد استطاعت السياسة الأميركية ان تعطل التجارة في ما بين اوروبة الشرقية واوروبة الغربية تعطيلاً كبيراً وبذلك خطت خطوات واسعة في سبيل ما تسعى اليه من تقويض الاقتصاد الاوروبي الرأسمالي من آساسه .

والواقع ان احد التقارير الرسمية الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة ، سنة ١٩٤٨ ، هاجم أعنف الهجوم تدخل الولايات المتحدة في شؤون التجارة ما بين اوروبة الشرقية واوروبة الغربية . وأنذر التقرير بانه إذا لم تقلع الولايات المتحدة عن سياستها هذه فسيبقى الاقتصاد الاوروبي الوطني على حاله الحاضرة من العجز ، وستبقى بلدان اوروبة في حاجة ماسة الى المساعدات الخارجية *.

ومن طريق استنزاف احتياطي الذهب الاوروبي ، وتعطيل التجارة الاوروبية الدولية نجح أمراء وول ستريت في إضعاف

* U. N. Economic Survey of Europe in 1949, p. 164, Geneva, 1949.

العملات الاوروبية . وبقي عليهم ان يضربوا ضربتهم التي تُفقِد هذه العملات اعتبارها، وتكرهها على الخضوع للتخفيض المتواصل، وتجعل الدولار وحده النقد المقبول في العالم الرأسمالي .

وفي نيسان ١٩٤٩ شنّت الحكومة الاميركية هجومها على الجنيه البريطاني . وقد جاء في «صحيفة التجارة» ما نصه :

« ان الولايات المتحدة تتخذ من خطر انحطاط الاقتصاد الأميركي سلاحاً قوياً في ضغطها المتكرر على الدول الأجنبية لتخفيض عملاتها ... وقد جعلت من « إدارة التعاون الاقتصادي» وسيلتها لشنّ هجومها الامامي على بلدان اوروبة الغربية اولاً . » *

وبعد ذلك بقليل قصد وينتروب آلدريتش ، وهو من رجال الـ « تشايس ناشيونال بنك » (روكفلر) الى لندن ليقدّم الى حكومة العمال الشروط الاميركية . ولم يكتف الاميركيون بإلغاء نصف مشترياتهم من بريطانية فحسب بل أجّلوا دفع قيمة البضائع التي سبق ان أرسلت اليهم ايضاً . ولم يكد يطلّ شهر ايلول حتى اضطرّ البريطانيون الى تخفيض سعر الجنيه من اربعة دولارات وثلاثة في المئة من الدولار (٤،٠٣) الى دولارين وثمانين في المئة من الدولار (٢،٨٠) ، وتخفيض سائر عملات الكتلة الاسترلينية بالنسبة نفسها . وما هي إلا فترة حتى خفضت معظم الدول الرأسمالية الاخرى قيمة عملاتها .

وفي سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ كان على المملكة المتحدة ان

* Journal of Commerce, Apr. 4, 1949.

LAU Beirut Campus Riyad Nassar Library

تزيد صادراتها بنسبة السدس عمّا كانت عليه قبل الحرب لكي تغطي نفقات الكمية نفسها من الواردات * . اما في شباط سنة ١٩٥٠ ، وبعد تخفيض سعر الجنيه ، فقد تعين عليها ان تزيد صادراتها بنسبة الربع عما كانت عليه قبل الحرب لكي تغطي نفقات الكمية نفسها من الواردات . **

وهذا التخفيض في سعر العملات الاوروبية جعلَ أجور العمال الاوروبيين أرخصَ في حساب الدولار ، ورخّص قيمة المصانع التي يملكها الاوروبيون فصار في ميسور الرأسماليين الاميركيين ان يشتروها في سهولة ويسر ، واضاع ما بقي من ثقة الناس بالعملات الاوروبية .

* Economic Survey of Europe in 1949. p. 98.

** Economist Records of Statistics Supplement, Apr. 1, 1950 p. 299.

٨ . الولايات المتحدة ترث الامبراطوريات القديمة ...

●

إن محاولة استعمار أوروبة لاتقف عند حدودها القارية. فجميع الخطط الاميركية الرامية الى إخضاع الدول الاوروبية تشمل مستعمرات هذه الدول وأنصاف مستعمراتها ايضاً . وكل كسبٍ يحققه الاستعمار الاميركي في اوروبة يضعف من النفوذ الاوروبي في المستعمرات . وعكس ذلك صحيح ايضاً . فكل كسبٍ يتمّ لوول ستريت في المستعمرات يجعل السيطرة على اوروبة الرأسمالية أسهل وأيسر .

والواقع ان الحرب العالمية الثانية كانت ، جزئياً ، صراعاً من أجل الاستيلاء على هذه المستعمرات واقتسامها من جديد. فاحتلت ألمانية ، موقتاً ، اوروبة الشرقية وجزءاً من شمالي افريقية . واستولى اليابانيون موقتاً على عدةٍ من اغنى المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية والاميركية في آسية . وعند انتهاء الحرب حاول البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والاميركيون ان يستعيدوا مستعمراتهم السابقة ويضموا اليها غيرها على حساب خصومهم المغلوبين وعلى حساب بعضهم بعضاً .

ومهما يكن من امر فلم تستطع ايٌّ من الدول الاوروبية

ان تسترجع امبراطوريتها السابقة برمتها . فكانت اميركة هي الدولة الاستعمارية الوحيدة التي عادت عليها الحرب بكسبٍ ما . وقد رأينا في الفصل الخامس كيف استغل امراء وول ستريت الحرب لانتزاع بعض القواعد العسكرية من حلفائهم والاستيلاء على كثير من اموالهم الموظفة في ما وراء البحار . وقد ذهبوا الى ابعد من ذلك ، في ما بعد، على حساب حلفائهم السابقين وحساب اعدائهم في وقت معاً .

ولكن هذه التعديلات في ميزان القوى لم تكن ابرز نتائج الحرب واهمها . ذلك ان المكاسب التي تمّت لحركة التحرر الوطني المناوئة للاستعمار هي اعظم شأناً وابعد اثراً .

فقد أخرجت هذه المكاسب من جريدة البلدان المنكوبة بالاستغلال الاجنبي عدداً من دول اوروبة الشرقية وأحفل بلاد العالم بالسكان: الصين . وانقصت غنائم الاستعمار في عدد من البلدان التي لا يزال النضال المسلح دائراً فيها ، من مثل بورما والملايو (بريطانية) ، وفيات نام (فرنسة) ، و كوريا والفيليبين (الولايات المتحدة) .

وإذ كان الاستعماريون البريطانيون والفرنسيون وغيرهم أعجز من ان ينهضوا بأعباء هذه المشكلات كلها فقد تقدمت الولايات المتحدة لسدّ الثغرة ورأب الصدع ، من طريق مشروع مارشال، والحلف الاطلسي وغيرهما . إنها تقدم الى حليفاتها مساعدة حاسمة ابتغاء توطيد الحكم الاستعماري او فرضه من جديد ولكنها تطالب مقابل ذلك بحصة كبيرة من الغنيمة الاستعمارية ، فتجاب مطالبها في سهولة ويسر .

والواقع ان اعتماد الاقتصاد الاوروبي اعتماداً بعيداً على الدولار يُضعف من الاحتكار المالي الذي كان اصحاب المصارف الاوروبيون يفرضونه على مستعمراتهم وانصاف مستعمراتهم. وفي ختام عام ١٩٤٩ كانت اليونان ، والنرويج ، واسرائيل ، وايران ومصر قد انفصلت عن الكتلة الاسترلينية وطفقت تعتمد اعتماداً يختلف قوةً وضعفاً ، على بيوتات المال النيويوركية . وهذا يعني نقصاً في دخل المصارف اللندنية ، ويعني ان كثيراً من التسويات الدولية يجب ان تتم بالذهب او بالدولارات بدلاً من ان تتم بالاسترليني وغيره من العملات الأوروبية .

ثم ان اعتماد الاقتصاد الاوروبي اعتماداً بعيداً على الموارد الاميركية يضعف من احتكار الرساميل المالية الاوروبية للتجارة وتوظيف الاموال في المستعمرات . وقد ظهرت هذه النزعة ، اول ما ظهرت، خلال الحرب العالمية الثانية عندما اضطرت الدول الاوروبية الى الاخذ بمبدأ «الحرية والمساواة» في الحصول على المواد الاولية كشرط من شروط قانون الاعارة والايجار. ونظراً لتفوق الطاقة الاقتصادية الاميركية لم يكن في ميسور الدول الاوروبية ان تحدّ من مزاحمة الاميركيين لمواطنيها إلا بأقامة حواجز خاصة. وقد اتخذت عملية تحطيم هذه الحواجز شكلاً خاصاً عقب الحرب العالمية الثانية .

وانطوت اتفاقيات مشروع مارشال على امتيازات استعمارية ايضاً . فقد ضمنت للافراد الاميركيين وللشركات الاميركية الحق في الافادة من المواد الاولية التي تكثر في المستعمرات على قدم

المساواة مع ابناء الدولة الاوروبية المستعمرة أنفسهم . وواضح ان في هـذا الوضع والارباح الفاحشة التي عاد بها على اصحاب الرساميل الاميركيـة ما زاد في تبعية الاقتصاد الاوروبي لوول ستريت وخضوعه لسلطانه .

وليس من ريب في ان عجز الدول الاجنبية عن كبت حركة التحرر الوطني من غير مساعدة اميركا وضع في يد واشنطون سلاحاً من اقوى الاسلحة وأمضاها . فبريطانية وفرنسة وهولندة محتاجة في حروبها الاستعمارية الى المساعدة الاميركية الماليـة ، والى الاسلحة والذخائر الاميركية ، واخيراً الى القوات المسلحة الاميركية . ولكن الاستعمار الاميركي لا يستطيع هو ايضاً ان يكسب هذه الحروب وحده . ومن هنا فان ستراتيجية واشنطون لا ترمي الى الاستيلاء المباشر على جميع هذه المستعمرات في الحال. وانما ترمي الى إبقاء اجزاء واسعة من العالم المستعمر تحت سلطة الجيوش الاوروبية الاسمية في حين تحوّل الرأسماليين الاوروبيين الى شركاء ثانويين لوول ستريت في هذه المستعمرات، وفي اوروبة نفسها ايضاً .

مبدأ ترومان والشرق الاوسط

عندما تحدث ليو ويلتش عن ضرورة تصدّر الولايات المتحدة الزعامة العالم كله سارعت الحكومة الاميركية الى إثبات زعامتها هـذه في منطقة الشرق الاوسط الغنية بالبترول . ففي آذار سنة ١٩٤٧ أعلن الرئيس « مبدأ ترومان » مؤكداً ان حكومته

ستتدخل ، في أيما بقعة من العالم، «لتساعد الشعوب الحرة على تقرير مصيرها بطريقتها الخاصة » ... ولكن تطبيق هـذا المبدأ ما لبث ان اظهر مقدار ما انطوى عليه من تدليس وتضليل . فقد طلب ترومان اعتمادات ضخمة لتأييد الحكومتين اليونانيـة والتركية ، وكلتاهما ديكتاتورية فاشستية !

وذُهل الشعب الاميركي لَدُنْ سماعه بهـذا التطبيق الأوليّ لمبدأ ترومان . ذلك ان الفظائع التي ارتكبها الجنود البريطانيون والقوات الفاشستية اليونانيـة ضد الشعب اليوناني كانت قد أثارت اعظم الاستياء في الولايات المتحدة . وفي سنة ١٩٤٥ كان مستر ستاتينيوس ، وزير الخارجية آنذاك ، قد اعلن حَيدة الولايات المتحدة بين القوات الشعبية اليونانية من جهة ، والقوات البريطانية والملكية الفاشستية من جهة اخرى . حتى اذا اثيرت مسألة تدخل الولايات المتحدة في اليونان ، أول مرةٍ ، إثارةً علنيةً قبل بضعة اسابيع من إذاعة مبدأ ترومان أصر نفرٌ من زعماء مجلس الشيوخ الاميركي على ضرورة إحجام الولايات المتحدة عن مد يد المساعدة الى الملكية اليونانية أو تأييد السياسة البريطانية في الشرق الاوسط. وابدت الصحافة عطفها على القوات الشعبية باكثر مما أبدت عطفها على الملكيين . لقد نظر الاميركيون الى فظائع الرجعة الفاشستية في اليونان على انها جزء من سياسة بريطانية الاستعمارية التي يتعين على الولايات المتحدة أن لا تُشارك فيها .

والواقع أن «مبدأ ترومان» يمثل بدء تقدم الاستعمار الاميركي الى احتـلال مركز الصدارة الاقتصادية والعسكرية في الشرق

الاوسط بكامله .

فقبل اعلان مبدأ ترومان كانت القوات البريطانية المسلحة تقوم بدور المدافع عن المصالح البريطانية وعن المصالح الاميركية النامية في الشرق الاوسط . ولكن الاستعمار البريطاني لم يعد في وسعه ان ينهض بهذه المهمة. ففي سنتين اثنتين أنفقت بريطانية ٣٤٨ مليون دولار في اليونان . ولكنْ لا الدولارات، ولا الثمانية آلاف جندي بريطاني المقاتلون في اليونان ، ولا القوات الملكية الفاشستية المزوّدة بالسلاح الانكليزي ، ولا موارد « الاونرا » الاميركية استطاعت ان تقف تيار الحركة التحررية الوطنية العارم .

وفي نهاية شباط اعلمت الحكومة البريطانية حكومة الولايات المتحدة ان إخضاع الشعب اليوناني قد اعجزها وأعياها ، وانها في حاجة الى مساعدة الولايات المتحدة في ذلك . فلم يكن من الاستعمار الاميركي الا ان اعلن استعداده لحماية مصالحه الخاصة حيثما تقضي الضرورة ، مضاعفاً ارباحه الفاحشة من طريق الحلول محل بريطانية في المراكز الستراتيجية ذات الخطر .

ومن وجهة النظر العسكرية تهيمن اليونان وتركية على ثروات النفط الضخمة الكامنة في الشرق الاوسط كما تهيمن المواقع العسكرية الاميركية في بحر الكاريبيان على ثروات النفط وموارد الاغذية في الاميركيتين الوسطى والجنوبية .

وفي ٥ آذار سنة ١٩٤٧ وضع مراسل النيويورك تايمس ، سولز بيرجر ، النقاط على الحروف فقال :

« إن مصالح الولايات المتحدة في اليونان ليست مجرد عواطف .

فاليونان تتحكم في ستراتيجية المتوسط الشرقي . ولو قد اصبحت اليونان شيوعية إذن لانكشف جناح تركية ، سياسياً ، ولم يعد في ميسورها ان تقاوم الضغط الروسي العنيف . وبدون تركية تنهار مقاومة إيران في الحال .

« إن للولايات المتحدة مصالح اساسية في الشرق الاوسط ، لأنه في تلك المنطقة تقوم المملكة العربية السعودية ، وفي المملكة العربية السعودية من النفط ما قد يفوق الاحتياطي الذي تملكه الولايات المتحدة . » *

ولكن اليونان وتركية ليستا « القشرة الصلبة » التي تحمي امبراطورية الشرق الاوسط النفطية فحسب ، ولكنهما قاعدتان حربيتان لفتوحٍ جديدة ايضاً ، على ما يؤخذ من تصريحٍ ادلى به المستر فورستال ، وزير الدفاع ، امام لجنة من اعضاء مجلس الشيوخ قال :

« إن المنطقة المترامية الاطراف ما بين جبل طارق والمحيط الهندي ذات اهمية حيوية بالنسبة الى الولايات المتحدة ... أعني أنها حيوية من ناحية عسكرية اولاً ، وحيوية من ناحية اقتصادية الى حد ما في الدرجة الثانية . » **

وهكذا تخلت الامبراطورية البريطانية عن « خطها الحيوي » التقليدي للامبراطورية الاميركية ، ولاغراض حربية في الدرجة

* New York Times, Mar. 5, 1947.

** Investigation of the National Defence Program, Hearings, Special Committee U. S. Senate, 80 th Congress, Part 41, p. 25290, 1948.

الاولى .

وكحصيلة ثانية by-product لهذه الاعتبارات الواسعة حوّلت بلاد اليونان الى معسكر اعتقال للشعب اليوناني ، والى مصدر من مصادر الربح الفاحش للشركات الاميركية .

والواقع ان هذه الشركات حكرت السوق اليونانية حكراً حقيقياً ، وحكرت جميع الاعمال الهندسية الضخمة التي أجريت في اليونان بوصفها جزءاً من الحملة العسكرية. فسيطرت «شركة التلفون والتلغراف الدولية» على نظام المواصلات؛ وهيمنت «شركة التبغ الاميركية» على أهم مورد من موارد البلاد : التبغ ؛ وحكرت شركة T. W. A. الخطوط الجوية ؛ وتولت «شركة أولن» مهمة إرواء اثينا وبيروس بمياه الشفة . *

ورفعت الشركات الاميركية نسبة استغلال اليد العاملة اليونانية الى المستوى الاستعماري . فبينا جُمّدت الاجور عملياً زادت نفقات المعيشة ١٣٠٠ بالمئة في ما بين سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٩ ليس هذا فحسب بل لقد حُلت نقابات العمال وحُل الحزب الشيوعي بصورة رسمية .

ولكن موارد الولايات المتحدة كلها عجزت عن ان تكسب للفاشستية اليونانية نصراً معجلاً . واخيراً حلت الهزيمة بالقوات الشعبية ، في خريف سنة ١٩٤٩ ، وكان ذلك بمساعدة قوات تيتو اليوغوسلافية .

* Gouvernement Démocratique Provisoire de Grèce, Deuxième Livre Bleu, p. 23, 1949.

وفي خلال المدة القصيرة التي استغرقها هذا الصراع (١٩٤٧–١٩٤٩) انفقت حكومة الولايات المتحدة ٧٩٧ مليون دولار لاخضاع الشعب اليوناني* تضاف الى ما سبق ان أنفقه البريطانيون وأنفقته « الاونرا » من اجل الغرض نفسه من قبل .

ولكن الولايات المتحدة لم تكتف بما تمّ لها في تركية واليونان من سلطان ومكاسب . فلم تكد دولة اسرائيل تظهر الى الوجود حتى ضمها الاستعمار الاميركي الى امبراطوريته الواسعة سياسياً واقتصادياً .

فتح افريقية

لم يُسهم رأس المال الاميركي المالي، قبل الحرب العالمية الثانية، بغير نصيب ضئيل في استغلال الشعوب الافريقية . والواقع ان خمسة بالمئة من تجارة افريقية الخارجية كانت مع الولايات المتحدة ، وان ثلاثة في المئة من الرساميل الاجنبية الموظفة في افريقية كان يملكها مواطنون اميركيون ، ليس غير . وكان القسم الاكبر من الأموال الاميركية العاملة في افريقية والبالغة ٢٠٠ مليون دولار موظفاً في مشروعات شركة فايرستون للمطاط ، في ليبيريا، وفي بعض شركات النحاس في روديسيا وجنوبي افريقية .

ولكن امراء وول ستريت المتصدرين للسيادة على العالم ما كانوا ليسمحوا باستمرار هذا الوضع ، خاصة وأن إفريقية تُعدّ

* Survey of Current Business, Mar. 1949,p.20; Apr. 1950, p. 20.

المنفذ الاول لمليارات الدولارات من رأس المال الفائض، والمصدر الجديد الافضل لمجموعة كبيرة من المواد الحربية الستراتيجية .

وبينـــا يتعاون الرأسماليون الاميركيون والاوروبيون ويوحدون ما بين رساميلهم لاستغلال إفريقية نجد ان مشاركة اميركة في هذا الاستغلال تتعارض والمطامع الاوروبية ، عـلى العموم ، والبريطانية على الخصوص . ذلك ان الاقطاب من رجال المال والاعمال البريطانيين يأبون مقاسمة منافسيهم الاميركيين تلك الخيرات العظيمة التي يجنونها من آخر معقل بقي في ايديهـم ، إلا على كرهٍ منهم واضطرار . وهم على الرغم من خضوعهـم للضغط الاميركي ينفقون غاية الجهد لابطاء الغزو الاميركي لافريقية وصد تيّاره بمختلف الوسائل .

واتخذت الولايات المتحدة تدابير جدية للقضاء على هذه المقاومة اثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما مكنتها الفرصة من إنشاء قواعد عسكرية وصلات تجارية في بلدان افريقية المختلفة . وفي ما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٨ قفزت تجارة الولايات المتحدة مع افريقية من ١٥٠ مليون دولار ، الى ١٢٠٠ مليون دولار ، وهــذا الرقم الاخير يمثل نحواً من ١٥ ٪ من تجارة افريقية الخارجية كلها * .

واليوم يضع مشروع مارشال وبرنامج النقطة الرابعة اسلحة جديدة ماضية في ايدي امراء وول ستريت يستعينون بها على فتح افريقية . والحق ان جزءاً من اموال مشروع مارشال يصرف لتغطية نفقات الرواد

* Foreign Commerce Weekly, Mar. 6, 1950; Economic Survey of Europe in 1948, insert table; U. N. Statistical Yearbook, 1948, table 132.

والمكتشفين الذين توجههم الولايات المتحدة، وفقاً للتقليد الاستعماري العريق، الى افريقية لـكي يمهدوا السبيل لشركات التعدين والحملات العسكرية . وفي تموز سنة ١٩٤٩ صار في ميسور « إدارة التعاون الاقتصادي » ان تذيع في الناس : « ان الخبراء الامـيركيين ، ومن ورائهم مساعدات مشروع مارشال ، يسبرون اليوم غـور افريقية من جبال الاطلس حتى رأس الرجاء الصالح بحثاً عن الثروة الزراعية والمعدنية . » *

واقتضت الولاياتُ المتحدة ثمن ذلك اتفاقاتٍ خاصةً سمحت للرساميل الاميركية بالعمل في افريقية . جاء في تقرير لـ « إدارة التعاون الاقتصادي » ايضاً :

« لقد فُتحت الآن تلك الابواب التي كانت موصدة في وجـه الرساميل الاميركية ، فهي تسهم اليوم في إنتاج الرصاص في افريقية الشمالية الفرنسية ، وفي إنتاج الصفيح في الكاميرون الفرنسي ، وفي إنتاج الرصاص والزنك في الكونغو الفرنسي ، وفي إنتاج النيكل في كاليدونية الجديدة **، وفي إنتاج الالومنيوم في سومطره ***

ومن الصفقات النموذجية التي عقدتها الولايات المتحدة اخـيراً تلك التي قضت بان تقدّم « إدارة التعـاون الاقتصادي » قروضاً معينة الى إحدى شركات إنتاج الرصاص المراكشية (Mines des Zellidja) في حين تشتري شركة نيومونت الاميركية للتعدين حصة

* Financial Times, London, July. 9, 1949

** احدى جزر المحيط الهادىء ، وتقع شرقي استرالية . [المعرب]

*** E. C. A., A Report on Recovery Progress and United States Aid, p. 231, Feb 1949.

في الشركة وتدير اعمالها .

وأفاد وول ستريت من تخفيض سعر العملات الاوروبية سنة ١٩٤٩ في انتزاع امتيازات استعمارية جديدة . والواقع ان المؤتمر المالي البريطاني الاميركي الكندي المنعقد بواشنطون في ايلول سنة ١٩٤٩ ، أقرّ ضرورة التعجيل في انشاء لجنة من اصحاب المصارف البارزين في تلك البلاد لتسريع توظيف الرساميل الاميركية في المستعمرات البريطانية .

وبعد شهرين اثنين انشئت لجنة مماثلة من ابرز اصحاب المصارف الفرنسيين والاميركيين « لتيسير تطوير البلدان التي يتألف منها الاتحاد الفرنسي في ما وراء البحار » ... *

إن اصحاب المصارف ليسعون الى تكثيف استغلال الشعوب الافريقية . من اجل ذلك يتعين عليهم ان ينشئوا الطرق والسكك الحديدية والموانىء التي تمكنهم من نقل مقادير اضخم من المواد الاولية . وهذا كله خليق بان يزيد في حصة وول ستريت ايضاً لان المراكز الاوروبية يعوزها المال الضروري لتنفيذ هذا البرنامج فهي مضطرة الى قبول المساعدة الاميركية .

وفي خلال شهر حزيران ١٩٥٠ قدمت « ادارة التعاون الاقتصادي » قروضاً ضخمة لشراء معدات اميركية لانشاء الطرق ابتغاء استعمالها في الكونغو البلجيكي ، وثلاث من المستعمرات الافريقية الفرنسية ، وخمس من المستعمرات الافريقية البريطانية .

وليست هذه غير بداءة . فقد وُضعت الخطط لانشاء شبكة من

* Journal of Commerce, Nov. 30, 1949.

السكك الحديدية واسعة . والخبراء الاميركيون يُعدون العدّة لانشاء خط حديدي يمتد على الف من الاميال ويصل ما بين روديسيا ، وتانكانيكا ، وكينيا والشاطيء الافريقي الشرقي .

وتعتزم « ادارة التعاون الاقتصادي » ان تنفق نحو مليار دولار على تطوير وسائل المواصلات جنوبي الصحراء الكبرى . * ليس هذا فحسب ، بل لقد اقترح احد الشيوخ الاميركيين (السناتور جونسون) ان ترصد حكومة الولايات المتحدة عدة مليارات من الدولارات لفتح افريقية من طريق برنامج النقطة الرابعة. ومما يلفت النظر ان مختلف البرامج والخطط الاميركية المتصلة بافريقية لا تكلف نفسها عناء التظاهر ، مجرد التظاهر ، بالعمل على خدمة الشعوب الافريقية البائسة .

ومهما يكن من امر فقد وفقت الولايات المتحدة الى ان توظف ، حتى الآن ، رساميل مهمة جداً في افريقية ...

وقد تمّ جزء كبير من التوسع الاميركي في جنوبي افريقية وروديسيا من طريق عدد من الشركات الانكليزية والاميركية . واقدم هذه الشركات هي « الشركة الانكلو اميركية » التي اتسعت ممتلكاتها اتساعاً عظيماً منذ الحرب العالمية الثانية .

وفي سنة ١٩٤٦ شُكّلَ اندغام رأسمالي آخر ، لأعادة تقسيم افريقية باسم « شركة توظيف الرساميل الاميركية الانكلو ترانسلفانية » . ولم تدخل سنة ١٩٥٠ حتى كانت هذه الشركة

* Crown Colonist, Apr. 1950.in New Africa. Capetown May-June 1950.

Riyad Nassar Library

الدولية قد امتلكت حصصاً ضخمة في عشرٍ من الشركات الكبرى في جنوبي افريقية ، بالاضافة الى حصص أصغر من ذلك في شركات اخرى كثيرة .

وبمعونة قروض مشروع مارشال ، تعمل شركة المعادن والمواد المعدنيـــة ، وهي تمثل اندغام الرساميل الاميركية بالرساميل الفرنسية ، في استخراج الحديد من مناجم كوناكري ، في افريقية الغربية الفرنسية . وفي سنة ١٩٤٧ بسط اصحاب الرساميـــل الاميركيون سيطرتهم على شركة الاطلس المراكشية للتعدين التي تنعم بشبه احتكار لمناجم الرصاص في جبال الاطلس . كما كسبت شركة نفط الخليج (ميلون) حصة تبلغ ٦٥ ٪ في شركة فرنسية تملك امتيازاً للنفط في تونس .

ليس هذا فحسب بل لقد فرضت « شركة الفولاذ الجمهوري » سيطرتها على مناجم الحديد في ليبيريا مشاطرة شركة فايرستون في امتلاك تلك الجمهورية الدمية ، وانتزعت شركة نفط الخليج امتياز البترول في موزامبيك ، المستعمرة البرتغالية القائمـــة على الساحل الشرقي الجنوبي من افريقية ، كما حصلت شركة سنكلير للنفط على امتياز بترولي في الحبشة .

والكثرة الكبيرة من الأورانيوم الذي ينتجـه اعظم مناجم هذا المعدن في الدنيـــا ، منجم شينكولوبوي Shinkolobwe في الكونغو البلجيكي ، تذهب اليوم الى الولايات المتحدة .

ولن ينقضي طويل وقت حتى يؤدي احتكار وول ستريت لهذه المادة المهمة وتزايد نصيبه من تجارة الكونغو البلجيكي الى امتلاكٍ

Riyad Nassar Library

جزئي لمناجم الكونغو الغنية .

والحق ان غزو الرساميل الاميركية الافريقيـة ينقض اوضح النقض اسطورة « نزعة الولايات المتحدة اللا إستعمارية » . ففي كل مكان من هـــذه القارة تدفع الشركات الاميركية الى العمال الافريقيين الاجور المعتادة التي تتراوح مابين العشرين سنتاً والدولار الواحد يومياً ، وتساند اكثر الحكومات الاستعمارية الافريقيـة تعسفاً وجوراً .

ولكن شعوب افريقية لم تعد عاجزة أو غير منظمة . ذلك ان نقابات العمال المناضلة ، وكثير منها منتظم في اتحـــاد النقابات العالمي ، لتثير اليوم وعياً صحيحاً عند العمال الافريقيين . وإن في الاضرابات التي يقوم بها هؤلاء العمال لتعبيراً صارخاً عن رغبتهم في حياة جديدة من الحرية والكرامة ... *

ليس هذا فحسب . بل إن القبائل المتناثرة أخذت تتحد في أمةٍ إفريقية عملاقة تستغرق معظم اجزاء القارة . وقد عجزت عمليات القتل الجماعي التي يقوم بها البريطانيون والفرنسيون وقوات افريقية الجنوبيـــة المسلحة في مدغسكر، وشاطىء الذهب، وروديسيا ، ونيجيريا ، وجنوبي افريقية ، عن كبت هذه الحركة وصدّ تيارها .

مستقبل الاستعمار في آسية

حاول الاستعمار الاميركي ، طوال خمسين سنة ، ان يفرض سيطرته على التجارة الصينية . وفي سنة ١٩٠٠ اتخذت حكومة

* Alpheus Hunton in Masses and Mainstream, Jan. 1949, N. Y.

الولايات المتحدة من الفيليبين قاعدة عسكرية وشاركت في القضاء على ثورة البوكسر (وهي انتفاضة صينية في وجه الاستعمار) ، ثم اعلنت سياسة « الباب المفتوح » التي تسمح لهـا بأخذ نصيبها من الغنيمـة . . . وفي الخمسين السنة التي تلت ، ابدت الشركات الاميركية نشاطاً بارزاً في الصراع من اجل الامتيازات ، ولكن معظم هذه الجهود تكسرت ،برغم تأييد وزارة الخارجية الاميركية لها ، على صخرة السلطان البريطاني والياباني المتفوّق في الشرق الأوسط .

وبعد الحرب العالمية الاولى تعاظم نفوذ الولايات المتحدة في الصين وأخذ مواطنوها يمثلون في تلك البلاد دور السادة الاجانب، شأن البريطانيين والفرنسيين واليابانيين . كذلك خفرت سفنها الحربية نهر اليانغتسي وساعدت على قمع ثورة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ . وازدادت الرساميل الاميركية الموظفة في الصين ولكنها ظلت أقلّ من الرساميل البريطانية واليابانية الموظفة فيها .

ثم كانت الحرب العالمية الثانية فمنحت الولايات المتحدة تفوقاً عسكرياً مطلقاً على الاستعمار البريطاني والياباني في الصين . كانت القوات الاميركية تحتل المرافىء ، وكانت القاذفات الاميركية تربض في المطارات ، وكان الضباط الاميركيون يقودون جيوش شيانغ كاي تشيك . ليس هذا فحسب ، بل لقد غدت الخزينة الصينية تعتمد اعتماداً كلياً على الخزينة الاميركية،وصار في ميسور الموظفين الاميركيين ان يقرروا ما الذي ينبغي للصين ان تشتريه، وما الذي ينبغي لها ان تبيعه ، وبأية شروط .

وهكذا بورت سياسة الباب المفتوح نفسها ، آخر الامر . فقد فتحت ابواب الصين على مصاريعها في وجه الرساميل الاميركية وأوصدت من دون المنافسين جميعاً .

ولكن النصر جاء متأخراً جداً . ذلك ان الشعب الصيني كان قد بنى قوة تحررية تكفل له الفوز على الاستعمار والمستعمرين جميعاً .

والحق ان حكومة الولايات المتحدة انفقت ستة مليارات دولار للاحتفاظ بسيطرتها على الصين ، ولكن عبثاً .

وطوال سنة ونصف بعد استسلام اليابان دربت الحكومة الاميركية قوات شيانغ كاي تشيك وأمدتها بالسلاح، في حين كان الجنرال مارشال يفاوض القوات الشعبية الديموقراطية ...

وفي نهاية سنة ١٩٤٦ أتمت الولايات المتحدة استعدادها لخوض غمار الحرب في الصين، فقُطعت المفاوضات وقصد الجنرال مارشال الى واشنطون حيث أُسندت اليه وزارة الخارجية . وما هي إلا فترة حتى دُشن مبدأ ترومان بالهجوم على الشعب اليوناني في اوروبة ، والهجوم على الشعب الصيني في آسية . وإذا كان مبدأ ترومان قد حاز في اليونان نصراً غير راهن فان اخفاقه النهائي الحاسم في الصين كسف هذا النصر الهزيل كسفاً كاملاً . ذلك ان الشعب الصيني انزل بحكومة شيانغ كاي تشيك هزيمة قاصمة أفقدت ممثلي الرساميل المالية الاميركية صوابهم .

ومنذ ذلك الحين ونحن نتذاكر في العوامل التي أدت الى خسارتنا للصين . ومما يلفت النظر ان الكتاب الابيض الذي اصدرته

وزارة الخارجية الأميركية عن الصين يسلـّم بأن هزيمة شيانغ كاي تشيك جاءت تعبيراً عن إرادة الشعب الصيني — «ثمرة القوى الصينية الداخلية التي حاولت هذه البلاد ان تستميلها ولكنها لم توفق الى ذلك .» * اما نظام الكومنتانغ فينص الكتاب الأبيض على «ان زعماءه أثبتوا عجزهم عن مواجهة الأزمة التي واجهتهم ، وان قواته فقدت إرادة القتال ، وان حكومته خسرت تأييد الشعب .» **

وأدت الحرب العالمية الثانية الى تحرير مستعمرات آسية الجنوبية الشرقية التي سبق لليابانيين ان احتلوها ، تحريراً جزئياً مؤقتاً . ذلك بأن قوات التحرر الوطني التي يقودها الشيوعيون ساعدت على هزيمة الجيوش اليابانية ، وأقامت بعد الحرب حكماً مدنياً .

ولكن الاميركيين والبريطانيين أعدوا العدة لفرض الحكم الاستعماري من جديد على تلك الاصقاع ، حتى في خلال الحرب العالمية الثانية . فقد أرسلوا مقادير هائلة من الاسلحة الى الهند واوسترالية . ولم تُستعمل الكثرة المطلقة من هذه الاسلحة ضد اليابانيين ولكنها ادخرت لحرب مؤجلة ضد الشعب . والواقع ان عشرات الالوف من الجنود الهولنديين والفرنسيين قد دُربوا في الولايات المتحدة وفي القواعد العسكرية الانكليزية الاميركية الواقعة ما وراء البحار ، للاشتراك في الحملات الاستعمارية المقبلة .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها توزع

* U. S. Dept. of State, United States Relations with China, p. XVI, 1949.

** المصدر السابق نفسه ص XIV .

الاستعماريون مهمة سحق حكومات الشعب الناشئة في الشرق الاقصى . فتولى الجيش الاميركي هذه المهمة في الفيليبين وكوريا ؛ وتولاها البريطانيون في الملايو ، وكذلك في اندونيسيا ريثما أتم الهولنديون استعدادهم للنهوض بعبء المسؤولية هناك ، اما فرنسة فصبت جام غضبها على الفيات نام .

وقد اتسمت هذه الحملات الاستعمارية جميعاً بأقصى الوحشية وتولت حكومة الولايات المتحدة امر تمويلها ومدّها بالاسلحة والذخائر وتأييدها تأييداً ديبلوماسياً .

ولكن ذلك كله لم يتمّ من غير ما مقابل . فعقب كل مساعدة تبذلها حكومة الولايات المتحدة في إعادة استعمار آسية — يخطو وول ستريت خطوة جديدة في سبيل تحقيق مطالبه التقليدية التي تتلخص في سياسة الباب المفتوح ، فيحطم احتكار المالكين السابقين ويضمن لامرائه نصيباً من الغنيمة .

ولكن مكاسب الاميركيين في آسية — باستثناء اليابان — تظلّ ضئيلةً بالقياس الى مكاسبهم في بقاع العالم الاخرى . والواقع ان موجة التحرّر الوطني التي تغمر تلك القارة تتهدد المصالح الاميركية بأعظم الخطر . يدلك على ذلك ان شركة فورد لصنع السيارات صرفت النظر ، مؤخراً ، عن إنشاء ما كانت تعتزم إنشاءه من إقامة مصنع لتجميع السيارات في سنغافورة بسبب من « الاحوال السياسية غير المستقرة » . إذ ما الفائدة من تشييد المصانع ، وحفر المناجم ، والعناية بالمزارع إذا كان الشعب سيصادرها في وقت قريب ؟ إنّ كل همّ الاستعماريين الآن

هو ان يعيقوا ذلك ما استطاعوا الى الاعاقة سبيلا .

وفي غمرة من خيبة الأمل يعتزم الاستعمار الاميركي استعمال القوة في حرب يشنها على آسية بكاملها . فها هم البريطانيون يكادون يرزحون ، عسكرياً ومالياً ، تحت عبء الكفاح في الملايو . وهاهي واشنطون تأخذ اهبتها لذلك اليوم الذي ينفض فيه البريطانيون أيديهم منها ، فعلهم في اليونان ، ويدعون الاميركيين للنهوض بـ « عبء الرجل الابيض » .

ومثل هذا الوضع يكاد ينشأ في الهند الصينية ايضاً . ذلك ان المستعمرين الفرنسيين عجزوا عن إخضاع الشعب بمئة وخمسين الفاً من القوات المسلحة ، وبنصف مليار دولار من النفقات سنوياً . فوجّهوا وجههم شطرَ الولايات المتحدة يلتمسون منها السلاح والمال . وهنا تقدّم دين اتشيسون « لاستوهان » الهند الصينية فوافق على تقديم السلاح لاخضاع الشعب الهندي الصيني ولكن بشروط . وهكذا قصدت البعثات العسكرية الاميركية وبعثات مشروع مارشال الى الهند الصينية لتشرف على تقديم المساعدات وتراقب طرق الافادة منها . وعلاقة هذه البعثات منحصرة مبدئياً بالضباط الفرنسيين ولكنها تتصل ايضاً اتصالاً مباشراً بـ « باوو داي » الذي باع نفسه للفرنسيين وبذلك يتعاظم « استقلال » باوو داي – يعني ان اعتماده على المستعمرين الفرنسيين يتناقص ، ولكن اعتماده على المستعمرين الاميركيين يتزايد تبعاً لذلك .

وفي هذه المحاولة اليائسة التي تقوم بها الولايات المتحدة لوقف

تيار الوطنية العارم في آسية ، يُراد لليابان ان تمثل دوراً شبيهاً بدور المانية في اوروبة . وليس ذلك عجيباً ، فاليابان أبعد الأقطار الآسيوية إمعاناً في التصنيع ومن هنا فهي اكثرها ملاءمة لكي تكون ترسانة أو داراً للصناعة arsenal ؛ والصلات بين الرساميل المالية الاميركية واليابانية كانت وثيقة جداً قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد اشترت شركات وول ستريت كثيراً من اسهم التروستات اليابانية منذ ذلك الحين . وهذا ما يفسر لنا نزعة الولايات المتحدة الى توطيد اركان احتلالها لليابان، وإطالة أجله ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، في حين تعمد الى اعادة تسليح العسكريين اليابانيين وتعزيز سلطانهم . وقد عبّر م. ن. روي M. N. Roy عن مخاوف الشعوب الآسيوية جميعاً حين قال : « من الامور المفروغ منها في طوكيو اليوم ان الجيوش اليابانية سوف تحارب في كل مكان ، حالما تندلع نار الحرب الجديدة ، بوصفها قوات مرتزقة تعمل لحساب الاميركيين . » *

غزو كوريا

وفي حزيران ١٩٥٠ بدأت في كوريا مرحلة جديدة من مراحل التدخل الاستعماري الاميركي في آسية ، أعني استعمال القوات الاميركية المسلحة في الهجوم على الشعوب الآسيوية الناهضة . ففي النصف الجنوبي من كوريا الذي احتلته القوات الاميركية بعد الحرب العالمية الثانية كان المستعمرون قد اقاموا حكومة من أكثر

* National Standard, Bombay, Oct. 6, 1950.

الحكومات رجعيةً واستسلاماً في آسية كلها : حكومة سينغمان ري الذي مكّن ضباط الجيش الاميركي ورجال الشركات الاميركية من كل ما في بلاده من مرافق وثروات ، ونظم جيشاً إقطاعياً للقضاء على حركة الشعب الكوري الوطنية .

وبلغ من كراهية الشعب الكوري لنظام سينغمان ري ان ُهزم حزبه ، رغم الارهاب ورغم قانون الانتخاب الفاسد ، هزيمة منكرة في انتخابات نوار سنة ١٩٥٠ * ، ولكن ري تحدى المجلس الجديد واحتفظ بالسلطة الديكتاتورية ** . وقَبِل برلمان كوريا الجنوبية الدعوة التي وجهها اليه برلمان كوريا الشمالية لبحث فكرة اندماجهما وتشكيل حكومة موحدة. وهكذا اتضح لوول ستريت

* ألقى سينغمان ري تسعين من مرشحي خصومه في غياهب السجن وسمح لاقل من ثلاثين بالمئة من الشعب بالتصويت . ومع ذلك فلم ينجح غير ٤٨ من مرشحيه مقابل ١٦٢ من مرشحي خصومه وكانت كثرتهم تؤيد الاتحاد السلمي مع كوريا الشمالية . [المؤلف]

* * ويبدو ان سينغمان ري يمثل اليوم الرواية نفسها بمناسبة قرب انتخابات الرئاسة . ففي ٧ حزيران ١٩٥٢ كتبت « الديلي تلغراف » تصف الوضع في كوريا الجنوبية قائلة :

« عندما يصل اللورد الكسندر والمستر لويد الى كوريا سيريان بام العين هذه الحالة المؤسفة التي وصلت اليها كوريا الجنوبية ... وتواجه هيئـــة الامم مشكلة محيرة بسبب إعلان سينغمان ري الاحكام العرفية واعتقاله خصومه السياسيين (١٢ نائباً) واستهزائه المكشوف بالدستور ومناوراته الديكتاتورية وتهديده بسحب جنوده من خطوط القتال وعدم مبالاته بنصائح حلفائه ... ومهما يكن من امر فان الحلفاء لم يتحملوا ما تحملوه في تلك البلاد مدة سنتين ليمسوا في النهاية وسيلة لتحقيق الاطماع الديكتاتورية ... » [المعرب]

ان الحكومة الدُّمية التي اقامها امست معدودة الايام . فلم يكن من الاميركيين إلا ان هرعوا لانقـــاذ سينغمان ري من طريق إغرائه بالعدوان على جمهورية الشعب الديموقراطية في الشمال .

والواقع ان الجنرال روبرتس ، رئيس البعثـــة العسكرية الاميركية في كوريا ، صرح قبل هجوم قوات سينغمان ري عـلى كوريا الشمالية بثلاثة اسابيع ، قائلًا :

« ان دافع الضرائب الاميركي يملك في كوريا جيشاً هـــو حارس امين على الاموال الموظفة في تلك البلاد ... وان البعثـة العسكرية الاميركية في كوريا لمثـــلٌ حيّ يريكم كيف يقوى « توظيف » خمسمئة رجل وضابط اميركي ، من أولي العزم ، على تدريب مئة الف رجل ينهضون بعبء اطلاق النار من اجلـكم . » *

وصرح كيم إيل سوك ، وزير الداخلية السابق في حكومـة سينغمان ري ، بقوله :

« يعرف الناس جميعاً ان سينغمان ري قصد في ربيع هذا العام الى اليابان ، بدعوة من ماك آرثر ، حيث تلقى من القائد الاميركي امراً بوضع قواته تحت تصرف هذا الاخير عندما ُيشَن الهجوم على كوريا الشمالية ... وقد ُقدّمت الى سينغمان ري توكيدات بأن سلاح الطيران الاميركي والاسطول الاميركي سيهرعان الى مساعدته ، حـلما يقوم بهجومه على الشمال ، وان جيشاً من المتطوعين سيفد عليه من اليابان ، وبذلك يستطيع ان يكسب الحرب منذ

* Marguerite Higgins in New York Herald Tribune, June 5, 1950.

اللحظة الاولى من غير ريب . وفي ضحى الخامس والعشرين من حزيران من تلك السنة ، اصدر سينغمان ري امره بالقتال . » *

واحدث تدخل اميركة العسكري في كوريا استياء عميقاً في البلدان الآسيوية واستنكرته شعوبها استنكاراً كبيراً. وقد علقت صحيفة « لوكناو هيرالد » الهندية على هذا الحادث بقولها :

« لقد اعتزمت الولايات المتحدة جدياً ان تحل محل بريطانية في النهوض بعبء الرجل الابيض ... والواقع ان الخطوة التي خطتها الولايات المتحدة [في كوريا] ليست غير ضامنة للسلم العالمي فحسب ، بل هي تهديد راهن له، وكلما ادرك العالم ذلك كان خيراً وأبقى ... أما كل هذا الحديث عن الحرية وعن استقلال البلدان الصغرى فلا يعدو ان يكون دعاية خالصة ... » **

وهكذا فأن بدء العدوان الاميركي الصريح في آسية قد انتهى الى هزيمة سياسية من الطراز الاول لوول ستريت . أما نتيجته العسكرية فقد قوّضت اركان الاسطورة القائلة بتفوق الرجل الابيض على الرجل الملوّن .

ولكن كيف استطاع الجنود الكوريون أن يردوا الصاع صاعين للجيوش الاميركية المتفوقة عليهم بالسلاح،والمؤيدة بقوات البحر والجوّ ؟

إن السبب الاساسي غايةٌ في الوضوح . لقد كان الجنود الكوريون يقاتلون ذوداً عن استقلالهم الوطني وعن الارض التي

* Quoted by Jacob A. Malik at U. N. Security Council, Aug. 12, 1950.

** Quoted in New York Herald Tribune, July 21, 1951.

حرثوها هم وأسلافهم طوال مئات السنين . اما الجنود الاميركيون فلم تكن لهم مصلحة في حرب ُتشنّ في اراضٍ أجنبية لغير ما سبب يستطيعون أن يفهموه . صحيحٌ ان ماك آرثر كسب انتصارات عسكرية موقتة بأن ألقى بكامل قواته البرية والبحرية في الميدان الكوري . ولكنه عجز عن إخضاع البلاد وشعبها إخضاعاً حقيقياً ،ليقنع باحتلال المدن الرئيسية وخطوط المواصلات، شأن المستعمرين الفرنسيين في الهند الصينية اليوم،وشأن المستعمرين البريطانيين الذين قاوموا الثورة الاميركية الاستقلالية منذ مئة وخمس وسبعين سنة .

واضطر الرئيس ترومان والجنرال ماك آرثر الى ان يلتمسا ، مع احلافهما الاوروبيين ، الغوث والعون . وتعاظمت الخسائر الاميركية في كوريا تعاظماً يذكّر بأيام الحرب العالمية الثانية . وزيدت الموازنة العسكرية زيادة بالغة تضاعفت معها ارقامها . وهذا كله في حربٍ ُتشنّ ضد ثلاثة في المئة من سكان الشرق الاقصى ...

فأي ثمن ستدفعه الولايات المتحدة اذا ما سمحت لحكامها بتوسيع نطاق الحرب حتى تشمل الصين والهند الصينية والفيليبين،وتستغرق شعوب آسية الجنوبية الشرقية بكاملها ؟

Riyad Nassar Library

مصرع الديموقراطية

في العالم الجديد

تأليف

الكاتب الأميركي الشهير

البرت إ. كان

Riyad Nassar Library

القسم الاول

أيام الفزع ...

Riyad Nassar Library

١ . نهاية كالحة ...

●

« أعطوني جماهيركم المتعبة ، الفقيرة ،
التواقة الى ان تتنفس في حرية .
إبعثوا الي بنفاية شاطئكم المزدحم،
اولئك الذين لا مــأوى لهم ولا
وطن ، فها انا ارفع مشعلي قرب
الباب الذهبي ! »

من قصيدة لـ « إيما لازاروس »
منقوشة على قاعدة تمثال الحرية ...

لم يكن الصبح قد تنفس، في يوم بارد من أيام كانون الأول، وبعد انقضاء سنة واحدة على الهدنة، عندما غادرت احدى البواخر المحاطة بحراسة شديدة مرفأ نيويورك ، في ظروف غريبة غامضة. حتى ربّان السفينة كان يجهل المكان الذي تقصد اليه، لقد أبحر بناء على أوامر مختومة لم يُجز له فضُّها ، إلا بعد ان تنقضي على اقلاعه اربع وعشرون ساعة . أما الاشخاص الوحيدون الذين كانوا على علم بوجهة الباخرة فلم يَعْدوا قلةً ضئيلة من اصحاب المناصب العليا في حكومة الولايات المتحدة .

وكان نطاق من الجنود المدججين بالسلاح الثقيل يحرس ارصفة المرفأ طوال ساعات الليل المتباطئة الثقيلة . وعلى ظهر الباخرة كان يقف جنود آخرون شاكي السلاح استعداداً للطوارىء. ليس هذا فحسب ، بل لقد امتطى متن الباخرة ايضاً نفر من رجال وزارة العدل ، وموظف كبير في قسم الاستخبارات العسكرية بالجيش الاميركي . وقبيل الابحار، وزّعت المسدسات على ملاحي السفينة جميعاً ...

أما حمولة السفينة فكانت عجباً من العجب : مئتين وتسعة واربعين رجلاً وامرأة من مواليد الروسيا اعتقلهم البوليس الاميركي إثر سلسلة من الغارات المفاجئة التي قام بها في طول البلاد وعرضها ، ثم حشرهم على ظهر تلك الباخرة لتنقلهم ، في ظل الحراب ، الى جزيرة أليس Ellis وقد ذهب الناطقون بلسان وزارة العدل الى ان المعتقلين كانوا « زعماء الحركة فوق الراديكالية » و« عملاء السوفيات الذين يدبرون المؤامرات لقلب حكومة الولايات المتحدة » .

وبينما كانت مصابيح الشوارع تتغامز في ساحات مدينة نيويورك الساكنة الغارقة في سباتها ، كانت السفينة الحاملة هؤلاء الرجال والنساء تبتعد في هدوء وأناة عن تمثال الحرية الباهت الوجه، وتتخذ سبيلها في البحر سَرَبا ...

وكانت السفينة تدعى «بافورد» Buford أو «الفُلك السوفياتي» كما سمّتها الصحافة الاميركية .

ولخير القراء الذين لا يذكرون الضجة الصحفية التي رافقت نبأ إبحار الـ « بافورد » يتعين علينا ان ننبه الى ان هذه الرحلة الفريدة

تمت بعد سنة واحدة من انقضاء الحرب العالمية الأولى ، لا الحرب العالمية الثانية ...

لقد اقلعت الـ « بافورد » من مرفأ نيويورك في ٢١ كانون الاول سنة ١٩١٩ .

●

كانت الحرب العالمية الاولى قد وضعت أوزارها ، ولكن فجر السلام لم يكن قد أطلّ مع توقيع الهدنة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ .

في ذلك اليوم المرتقب الذي اختتم بصورة رسمية آلام السنين الأربع التي بدت وكأنها لانهائية ، وبينما كانت مدن البلاد وقراها تستقبل نبأ الهدنة بزعقات مجنونة انطلقت من الصفارات والابواق والاجراس ، وفيما كان عشرات الالوف من المواطنين يرقصون في ابتهاج عارم ، في الشوارع والساحات ، كان الرئيس وودرو ولسون جالساً الى مكتبه في البيت الابيض يكتب رسالة خطيرة ولكنها جذلة ، الى الشعب الاميركي :

« ايها المواطنون . لقد وُقعت الهدنة هذا الصباح . ولقد حُقق كل ما حاربت اميركة من أجله . وسيكون من واجبنا السعيد الان ، أن نساعد بالمثل الصالح ، والمشورة الودّية الرشيدة ، والعون الماديّ ، على رفع قواعد الديموقراطية الحقّ في ارجاء العالم كله . »

وفي اوروبة ، كما في اميركة ، كانت كلمات الرئيس ولسون الناضحة بالمروءة والشهامة على كل شفة ولسان . حتى اذا قصد في كانون الاول الى القارة الاوروبية ليشهد مؤتمر الصلح في باريس

Riyad Nassar Library

استقبله الملايين ممن اكتووا بنار الحرب وكأنه نبي جديد أرسله الله ليهدي الناس سبيلَ السلام والحب الاخويّ .

ومع ذلك ، فلم تكد تنقضي بضعة اسابيع حتى كانت الرؤى الرائعة التي أوحتها كلمات ولسون السحرية قد تبدّدت في الهواء، لتملأ الجو نذرٌ قاتمة ، تؤذن بما يتهدد العالم ، في مقبلات الأيام ، من مآسٍ وكوارث ...

•

وما هي الا فترة حتى برزت ، في احدى غرف الكي دورسيه بباريس ، حيث كانت تجري محادثات الصلح بين الاربعة الكبار، الاسباب الحقيقية التي من أجلها سقط ملايين الرجال صرعى في مستنقعات الموت الاوربية. ذلك بأن دافيد لويدجورج، ونستون تشرشل*، وجورج كليمنصو، وفيتوريو أورلاندو الذين ارتبطت دولهم بمجموعة من المعاهدات السرية والمواثيق التجارية ، والذين كانوا يتوقون اشدّ التوق الى تقسيم الاسواق العالمية من جديد ، بذلوا غاية جهدهم لتفادي النظر في مقترحات ولسون السلمية، نظراً مروّىً فيه ، والانتقال الى درس قضايا الساعة الحقيقية ...

ولقد احسن السير فيليب جيبس Gibbs المراسل الحربي البريطاني الشهير، تصوير الموقف حين قال: «إن السياسيين الشيوخ الذين أسهموا في لعبة السياسة قبل الحرب ، مقامرين بأرواح الرجال من اجل المكاسب الاقليمية ، والاسواق التجارية المحكورة، وحقول الزيت

* حل ونستون تشرشل موقتاً ، وكان آنذاك وزيراً للحرب ، محل رئيس الوزراء لويد جورج في تمثيل بريطانية بمؤتمر الصلح ، في شباط ١٩١٩ .

ومناجم الفحم ، والاعتبار prestige الامبراطوريّ ، ما لبثوا ان هجموا على « الحوض » الذي خسره المقامرون الألمان وتنازعوا على ما يحتويه من اموال ... »

وكانت ثمة نغمات اخرى متنافرة في مؤتمر الصلح .

ذلك بان ميراث الحرب العالمية الاولى لم يقتصر على ملايين القتلى والمقعدين، وعلى الغرق والخراب والطاعون والجوع والعوز. فقد تكشّف ذلك السيل العرم، على حين غفلةٍ من السياسيين الشيوخ، عن موجات عملاقةٍ متصاعدةٍ من الجماهير الانسانية تشق عصا الطاعة على الامعان في إيقاع الآلام وسفك الدماء ، وتطالب بالسلم ، والخبز ، والارض ، وبوضع حدٍ للنظام العتيق .

وفي مذكرة سرية أعلن رئيس الوزراء البريطاني، لويدجورج، مؤتمرَ الصلح ان « اوروبة برّمتها تغلي بروح الثورة. والواقع ان النظام القائم اليوم ، بمظاهره السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعاً، أمسى موضع شكّ الجماهير من أقصى أووربة الى أقصاها.»

فكيف السبيل الى خنق « روح الثورة » والاحتفاظ بالوضع الراهن ؟ *Status quo* كيف السبيل الى القضاء على السوفيات في برلين وهامبورغ، في بافارية وهنغارية؟ ذلك ما كان يفكر به صانعو السلم في العاصمة الفرنسية ...

ولكن السؤال الأكبر كان هذا : كيف السبيل الى سحق الثورة الروسية التي أدّت الى قيام النظام السوفياتي في ٧ تشرين الثاني ، سنة ١٩١٧ ؟

وهكذا حذّر « النمر » الفرنسي ، جورج كليمنصو ، مؤتمر

Riyad Nassar Library

الصلح : قائلًا « إن البلشفية آخذة في الانتشار ؛ لقد غزت الولايات البلطيقية وبولندة . ولقد جاءتنا انباء سيئة جداً عن امتدادها الى بودابست وفينا . ليس هذا فحسب ، بل لقد غدت ايطالية ايضاً في خطر . وإذن فينبغي ان يُعمل شيء ضد البلشفية . »

أما هربرت هوفر Hoover، رئيس إدراة الاسعاف الاميركية، فأعلن امام مؤتمر الصلح « ان البلشفية شرٌّ من الحرب ! » *

وعندما قفل الرئيس ولسون الى الولايات المتحدة قدم معاهدة فرساي الى مجلس الشيوخ . وإذ كان غير راغب في ان يحمّل نفسه او غيره من الناس تبعة الاخفاق الذريع الذي مُنيت به رسالته وتبعة المظالم التي انطوت عليها شروط الصلح فقد صرّح قائلًا :

* في صيف سنة ١٩١٩ ، ومن غير اعلان حرب ، غزت قوات اربع عشرة دولة أراضي الروسيا السوفياتية . أما هذه الدول فكانت : بريطانيا العظمى ، فرنسة ، اليابان ، ألمانية ، ايطالية ، تشيكوسلوفاكية ، صربيا ، الصين ، فنلندة ، اليونان ، بولندة ، رومانية ، تركيا ، والولايات المتحدة الاميركية ...

وقد دامت هذه الحرب التي اشتركت فيها القوات الاجنبية جنباً الى جنب مع جيوش الروسيا البيضاء يقودها القواد القيصريون السابقون ، حتى صيف سنة ١٩٢١ ، ثم انتهت بهزيمة الغزاة .

وعلى الرغم من ان هذه الفترة من التدخل الاجنبي والحرب الاهلية لم تحظ الا باهتمام ضئيل في معظم كتب التاريخ المعاصر فقد كانت مسؤولة عن موت سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل روسي قضوا في المعركة أو بسبب من الجوع والمرض. وقد قدرت الحكومة السوفياتية الخسائر التي لحقت ببلادها من جراء هذه الحرب بستين مليار دولار . ولم يدفع الغزاة الى الاتحاد السوفياتي أيما تعويض .

« لقد أُعدّ المسرح ، وباح القدر بسرّه . ولم يتم ذلك بخطة من وضعنا أو إرادة من عندنا ، ولكن هي يد الله التي قادتنا الى الحرب ... وليس لنا اليوم إلا أن نمضي قُدُماً، بعيون مرفوعة، وأرواح مستبشرة ، سعياً وراء اهدافنا البعيدة . »

ولكن بلاغة ولسون وقعت ، هذه المرة ، على آذان صماء . فأخذت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ، بزعامة الشيخ هنري كابوت لودج Henry Cabot Lodge الانعزالي العنيد ، في تشريح المعاهدة وتمحيصها، مركزة هجومها على ميثاق عصبة الامم.

وفي ايلول سنة ١٩١٩ قام ولسون ، برغم تحذير اطبائه له ، بجولة في طول البلاد وعرضها ليضمن التأييد الشعبي لبرنامجه السلمي. والحق أن اثر هذا الأجهاد في جهازه العصبي المرهق كان بالغاً جداً، فانهارت قواه بالكلية ، ليلَ ٢٥ أيلول ، وكان قد ألقى أربعين خطاباً في ثلاثة اسابيع ، فحُمل الى واشنطون في الحال . وبعد أيام قليلة أصيب الرئيس بشللٍ جزئي في جانبه الأيسر ...

وطوال السبعة عشر شهراً الباقية من مدة رئاسته ، عاش ولسون عيش الناسك المريض في البيت الابيض . وإذْ قضى ما يزيد على الشهر طريح الفراش ، ليصبح بعدُ اسيرَ كرسيٍّ ذي عجلات ، فقد كان نادراً ما يستقبل احداً من الزائرين، ونادراً ما يشارك في غير شؤون الدولة الثانوية. لقد كان ينفق معظم ساعات يومه وحيداً ، ملتفاً بطيلسان او شال، مستوياً، على كرسيه ذي العجلات، في رواق البيت الابيض المعمّد ، وهو يفكر ملياً ، وفي حسرة بالغة، في ما آلت اليه احلامه التي غذاها منذ الصبا الاول.

Riyad Nassar Library

وطارت اشاعة تقول بأن ولسون لم يعد سليم العقل . وألحّ عدد من رجال الكونغرس على ضرورة إعفائه من منصبه وتعيين نائب الرئيس ، توماس مارشال Marshall ، مكانه . ووجه مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه هما البرت فول Fall ، وجلبرت هيتشكوك Hitchcock ، الى البيت الابيض للاتصال بالرئيس وابداء الرأي في حالته العقلية .

وفي لهجة مشوبة باللطف المتكلف التفت الشيخ فـول الى ولسون وقال : « سيدي الرئيس ، اني اصلي من اجلك ! »

وقدم الشيخان الى زملائهما في المجلس الاعلى تقريراً قالا فيه إنهما وجدا الاميركي الاول في كامل قواه العقلية ...

تلك كانت النهاية الكالحة للصليبية التي شنّها وودرو ولسون من اجل السلام العالمي .

•

وفي اميركة ايضاً ، كما في اوروبة ، لم يطل فجر السلم مـع توقيع الهدنة .

فبينا كان الرئيس ولسون يطوف البلاد ملقياً خطبه الحماسية عن الخطط التي رسمها من اجل تحقيق السلم العالمي ، كانت تلـك البلاد نفسها تغلي بالقلق العنيف والكفاح الصناعي المرير .

ذلك بأن الهدنة التي وضعت حداً لنزاع العمال واصحاب العمل خلال سنوات الحرب الاربع ، ما لبثت ان نُقضت . ففيما كان كبار المسؤولين في اتحاد نقابات العمال الامـيركية لا يزالون يردّدون صدى شعار ولسون القائل بـ « الديموقراطية الصناعية »

ويتنبأون بقرب بزوغ «عهد جديد من عهود العمل في أميركة »، كانت الصناعات الرئيسية تشن حملات خاطفة لمحو المكاسب التي تمت للعمال اثناء الحرب ، ولسحق اتحادات العمال .

وهكذا صرّح القاضي البرت غاري Gary رئيس شركة الفولاذ الأميركية في احد اجتماعات الجمعية العمومية فقال : « اني اعتقد انها كانت مبرزة في الماضي البعيد ... اما اليوم فليس ثمةايا حاجة لاتحادات العمال ... ان وجود هذه النقابات ومسالكها لا تتفق في هذه البلاد على الاقل ومصلحة العمال وأصحاب العمل والجمهور بوجه عام ... »

واعلن وليم بار Barr ، رئيس الاتحاد الوطني لاصحاب مصانع السبك والصب «ان أجور زمن الحرب ينبغي ان تُصفى!» ولكن العمال الاميركيين لم يسكتوا عن الهجوم المبيت على نقـاباتهم ومستوى معيشتهم؛ فاجتاحت البلادعاصفة هوجاءمن الاضرابات الدامية .

ففي كانون الثاني سنة ١٩١٩ اضرب عمال بناء السفن في سيتل Seattle ، واشنطون ، عن العمل احتجاجاً على إنقاص اجورهم ، وما هي الافترة حتى شمل الاضراب العام المدينة كلها . وفي الشهور التوالي أضرب عمال الطباعة والبناء ، وعمال التلفـون والسكك الحديدية، والعمال المختصون بتفريغ السفن وشحنها، وعمال مصانع النسيج، في ولاية بعد أخرى. ثم بلغت موجة الاضرابات ذروتها في ايلول وتشرين الاول عندما ترك نحو ٣٥٠،٠٠٠ من عـمال الفولاذ مصانعهم، وغادر نصف مليون من عمال التعدين مناجمهم،

Riyad Nassar Library

وبذلك بلغ عدد العمال المضربين في اميركة مليوني عامل اويزيد.

ولسحق الاضرابات ، وُجه الى « الميدان » ألوف من جنود الجيش الفدرالي ، وميليشيا الولايات، والشرطة البلدية ،وجيوش برمّتها من «مفسدي الاضرابات» الذين استأجرتهم الشركات للقضاء على تكتل العمال . ودارت معارك حربية ، بكل ما في التعبير من معنى ، في حقول الفحم ... اما ضحايا هذه المعارك ، ما بين قتلى وجرحى ، فقد بلغوا مئات عديدة .

●

ولكن موجة العنف الدامي لم تجتح ، في سنوات ما بعد الحرب ، عرين الصناعة فحسب .

فقد ذهب العالم الشهير ، و . إ . ب دوبوا Dubois الى « ان عام ١٩١٩ شهد فتناً عرقية ، صغيرة وكبيرة ، في ست وعشرين مدينة اميركية ، وان ثمانية وثلاثين ُقتلوا في فتنة أثيرت في شيكاغو ، وستة قتلوا في واشنطن . »

وصرح حاكم جورجيا ، هيوغ دورسي Dorsey في مؤتمر للمواطنين ُعقد في آتلانتا Atlanta بان الزنجي ُيطرد من بعض المقاطعات ، وكأنه حيوان ضارٍ ، ويعامل في بعضها وكأنه عبدٌ قِنّ . اما في بعضها الآخر فلم يبق ثمة زنوج على الاطلاق . »

وبلغت حملة الرعب الاجماعي ضدّ الزنوج أقصى غاياتها في مقاطعة فيليبس phillips بولاية آركانساس Arkansas

وتفصيل ذلك ان الأجراء الزنوج في حقول القطن بمقاطعة فيليبس ، وكانوا يعملون في ظل نظام الزراعة الاقطاعي ، وتحت

نير عبوديته ، أنشأوا اتحاداً تقدمياً يجمع شملهم ويسعى من أجل تغيير أحوال العمل والمعيشة التي يخضعون لها والتي لا تليق بكرامة الانسان . فما كان من اصحاب المزارع وممثلي السلطات المحلية الا ان شنوا حملةً شرسةً للقضاء على المنظمة الجديدة . فاصطيد اعضاء الاتحاد اصطياداً نظامياً ، وألقي بهم في غياهب السجن ، ثم ُقتلوا وُمثّل بهم أبشع تمثيل . وفي شجاعة يائسة سلّح الزنوج أنفسهم وعاودوا نشاطهم تحت هذا الشعار : « لقد بدأنا منذ اليوم » .

عندئذ هرعت القوات الفدرالية ، المزوّدة بالمدافع الرشاشة ، الى مقاطعة فيليبس. فاعتُقل مئات من الزنوج وزج بهم في دياجير السجون . وبعد محاكمات لم تدُم غير بضع دقائق صدر الحكم بالموت على تسعة من الزنوج ، وبأحدى وعشرين سنة من الحبس على تسعة آخرين ، بينما ُفرضت على مائة واثنين وعشرين زنجياً عقوبات أخرى متفاوتة .

وفي واشنطون اعلن الشيخ جيمس بيرنز Byrnes امام ممثلي الأمة ، في ٢٥ آب سنة ١٩١٩ « أنه ليس لأي رجل ملوّن تلقح بالرغبة في المساواة السياسية ، عملٌ ما في ولايات الجنوب . إن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض ، ويجب ان تظل كذلك ... »

وعرف المسرح السياسي الاميركي ملامح كالحة اخرى في سنوات ما بعد الحرب ، على ما ُيستفاد من هذا الكلام الذي نقتطفه من كتاب « بالامس فقط » *Only Yesterday* لفريدريك لويس آلين Allen :

« اذا كان الشعب الاميركي قد اولى دعوة ولسون الى تأييد

Riyad Nassar Library

عصبة الأمم آذاناً صماء في سنوات ما بعد الحرب ، فلم يكن ذلك بسببٍ من انه قد غـدا مُتعباً من المشكلات الاجنبيـة فحسب ... لقد كانت آذان الشعب تصيخ الى شيء آخر ؛ كانت تصيخ إلى اشاعات بشعة تدور حول مـؤامرة راديكالية ضخمة تُدبر ضد حكومة الولايات المتحـدة ومؤسساتها . فقد اعتقد الاميركيون - او ملايين منهم على الاقل - ان ثورة شيوعية قد تندلع نيرانها في الولايات المتحـدة ، خلال الشهر القادم ، أو خلال الاسبوع القادم ... »

٢ . الغارات

•

« سيدي الرئيس . إن شبح الشيوعية ليتهدد العالم . وان كل من تلقاه ، سياسياً كان أم واعظاً أم صحافياً أم رجل أعمال ، ليحدثك عن خطر الشيوعية وإمكان تقويضها عالمنا الحاضر في وقت قريب ... ولكن اسوأ ما في الامر أن كل حركة ، كل فكرة جديدة ، كل اقتراح جديد ، كل نزعة تقدمية جديدة ، غدت تُنبز للتوّ والساعة بلقب الشيوعية؟ وهكذا لم تعد ثمة ضرورة لمناقشة أيما رجل يدعو الى فكرة جديدة . بحسبك ان تقول: « هذه شيوعية » وينقضي الأمر ... »

النائب ماير لندن في خطاب له بالكونغرس الأميركي ، ١١ شباط سنة ١٩١٩ .

في أواخر سنة ١٩١٩ وجه الرئيس المساعد لمكتب المباحث

Riyad Nassar Library

في وزارة العدل ، فرانك بورك Burke رسائل سرية مستعجلة الى رجاله المنبثين في اقطار البلاد جميعاً ، يعلنهم فيها ان وزارة العدل على وشك القيام بحملة من الغارات الواسعة لتصيّد « الشيوعيين » و « العناصر الاجنبية الراديكالية » في طول البلاد وعرضها ، وبأن تلك الوزارة ستُعلمهم ، تلغرافياً ، باليوم والساعة اللذين سيحدّدان موعداً للقيام بحملة الاعتقالات هذه .

ليس هذا فحسب . بل لقد اوعز «بورك» الى رجاله بان يُغروا المنظمات الشيوعية ، من طريق جواسيسهم العاملين ضمن نطاقها ، بعقد الاجتماعات في تلك الليلة بالذات وبأن يوجهوا في اليوم التالي لوائح باسماء جميع المعتقلين الى المستر جون ادغار هوفر ...

وكان مستر هوفر هذا قد عُيّن مديراً لقسم الجاسوسية المنشأ حديثاً في مكتب المباحث بوزارة العدل . وكان من صلاحيته أن يشرف ، بوصفه ذاك ، على نشاط مكتب المباحث ضد العناصر الراديكالية . اما لقبه الرسمي فكان «المساعد الخاص للنائب العام» .

وكان النائب العام لذلك العهد ، آ . ميتشل بالمر Palmer رجلا بعيد التطلع الى المستقبل . واذ كان يعرف شدة وطأة الداء على ولسون فقد راوده الامل في ان يكون هو مرشح الديموقراطيين لمنصب الرئاسة في انتخابات سنة ١٩٢٠ . وكان بالمر يعلم علم اليقين ان تحقيق هذه الآمال العراض رهن بلمعان اسمه في الاخبار لمعاناً موصولاً ، فلم يجد وسيلة الى ذلك خيراً من تزعّم حملة صليبية تشن على « العناصر الهدامة » التي تتهدد « حياة الجمهورية بالذات » .

وكانت لبالمر في ما عدا ذلك مصلحة اخرى في الحملة الصليبية ضد العناصر الراديكالية . ذلك بأنه كان عضواً في مجالس ادارة عددٍ من المصارف والشركات الكبرى ...

•

وفي ٧ تشرين الثاني ضربت وزارة العدل ضربتها . وقد اختارت الوزارة هذا الموعد ، كما جاء في مقالٍ نُشر على صفحات «نيويورك تايمس» في اليوم التالي ، بوصفه « اللحظة السيكولوجية » المناسبة لشن الغارة المرتقبة ، إذ تصادف فيه « الذكرى الثانية للثورة البلشفية في الروسيا . »

ففي نيويورك ، وفيلادلفيا ، ونيوآرك ، وديترويت وغيرها من المدن الاميركية ، هاجم البوليس المنظمات « الراديكالية » . واعتقل مئات من الاميركيين بالتجنس والاميركيين الاقحاح وألقى بهم في غياهب السجن .

ولعل افضل نموذج لهذه الغارات تلك التي شُنّت على « بيت الشعب الروسي » في مدينة نيويورك ، وهو لا يعدو ان يكون مدرسةً ونادياً لأبناء الاميركيين من اصل روسي .

كانت دروس اللغة الانكليزية والرياضيات ، وغيرهما من الموضوعات تُلقى ضمن جدران هذا المعهد عندما انقضّ عليه ، من غير ما انذار ، رجال الشرطة الفدرالية ، وأصدروا امرهم الى المعلمين والطلاب ، وبينهم عددٌ من المحاربين المسرّحين حديثاً من الخدمة في الجيش الاميركي ، بأن يصطفوا إلى الجدران ... ثم ان المغيرين شرعوا يُلقون بالآلات الكاتبة على الارض ، ويمزقون

Riyad Nassar Library

الكتب ، ويحطمون الصور ، ويكسرون المقاعد والكراسي وغيرها من الاثاث .

وُوضع الحديد في ايدي المعلمين والطلاب ، واقتيدوا في خشونة الى خارج البناء . اما الذين تباطأوا في مسيرهم تباطؤاً أثار غضب المغيرين فقد نُخسوا بالمهاميز وُضربوا بالهراوات . ليس هذا فحسب، بل لقد قُذِفَ ببعضهم من أعلى السلم في غير ما رحمة ولا استبقاء . ثم انهم حُشروا في سيارات البوليس التي كانت تنتظرهم في الخارج . وقد وصفت صحيفة « نيويورك تايمس » هذا الحادث بقولها :

« لقد ضَرَبَ البوليس بعض هؤلاء ضرباً مبرحاً حتى لقد سال الدم من رؤوسهم. وها هي ذي العصائب التي لُفت بها جراحاتهم تشهد على القسوة التي عوملوا بها من رجال الامن .. »

وفي طول البلاد وعرضها صفقت الصحافة لهذه الغارات، ورأت فيها ضربةً قاضيةً توجه الى « الخطة الشيوعية لاشعال الثورة في أميركة . » .

ولكن غارات السابع من تشرين الثاني لم تكن غير مقدمة لحملات أدهى وأمرّ . لقد كانت ، كما وصفها احد رجال الحكومة الاميركية البارزين، «مجرد تجربة من مثل التجارب التي تُجرى في المختبرات العلمية ... »

ففي الساعة الثامنة والنصف من مساء ٢ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ بدأت الغارات الكبرى التي انتظمت البلاد من اقصاها الى أقصاها. فاقتحم البوليس وزبانية وزارة العدل الاجتماعات العامة وغزوا

المكاتب الشخصية والبيوت الآمنة ، في ما يزيد على سبعين مدينة من مدن الجمهورية . وفي نيويورك وحدها ألقي القبض على ألف شخص تقريباً . وفي بوسطن سيق اربعمائة رجل وامرأة، مصفدين بالاغلال ، الى السجن ، عبرَ الشوارع والساحات العامة . وفي مَين Maine وأوريغون Oregon ونيوجيرزي، وكاليفورنيا ، وأوهيو ، ومسيسيبي ، وايلينويز ، ونيبراسكا Nebraska وغيرها من الولايات ألقي القبض على ألوف من العناصر غير المرغوب فيها ...

وفي كل مكان سلك المغيرون مسالك هي برجال العصابات أليق منها بحماة القانون .

ففي مدينة نيويورك هاجم رجال البوليس ، وفي أيديهم المسدسات ، المقرّ العام للحزب الشيوعي واعتقلوا كل من فيه، ثم تقدموا الى انتزاع رسوم اوجين دَبس Debs ، وكارل ماركس، وفريدريتش انجلز من على الجدران، وجعلوا منها أقنعة مضحكة وضعوها على وجوههم وطافوا بها أرجاء المكان ... وقد وصف القاضي جورج آندرسون Anderson الغارات التي شهدتها ولاية ماساتشوستس Massachusetts فقال :

« لقد بُذِلت جهودٌ ضخمة لاضفاء ثوب من الشعبية المسرحية على الغارات ، ولأقناع الناس بأن خطراً حقيقياً كان يتهدد سلامة البلاد . اما الاجانب الذين ألقي القبض عليهم وكانوا في معظم الاحوال جماعاتٍ من الهادئين المسالمين فقد كُبِّلوا بالاصفاد ازواجاً ، ثم شُدّ بعضهم، بالسلاسل، الى بعض ، لينقلوا الى محطة

Riyad Nassar Library

السكة الحديدية عبرَ شوارع بوسطن ... »

اما في ما يتصل بسلوك الجماعـــات المغيرة فقد اعلن القاضي آندرسون :

«... ان الغوغاء هي الغوغاء سواء أكانت مؤلفة من موظفين حكوميين يعملون بناءً على أوامر صادرة اليهم من وزارة العدل ، او من مجموعة من المجرمين والكسالى ومن لا خَلاقَ لهم . »

واختلفت التقارير في تقدير المجموع العام للمعتقلين . فجاء في عدد « نيويورك وورلد» الصادر في ٣ كانون الثاني ان « الفين من الحمر» قد اعتقلوا بسببٍ من « مؤامرة دبروها بليلٍ لقلب نظام الحكم في البلاد » . اما الـ « نيويورك تايمس » فنشرت النبأ تحت عناوين ضخمة جداً تعلن ان « الحمر يأتمرون لأعلان الاضراب العام في البلاد ». وقدّرت عدد المعتقلين بما يزيد على خمسة آلاف شخص .

وبعد بضعة ايام صرّح جون أدغار هوفر لرجال الصحافة «بان نحواً من ثلاثة آلاف معتقل من اصل مجموع الاجانب المعتقلين البالغ عددهم ٣٦٠٠ يتحتم إبعادهم عن البلاد وفقاً للقانون » ...

وسِيقَ مئات من الاجانب والمواطنين الى المعتقلات من غير مذكرات توقيف . وغُزيت البيوت الامنة ، وفُتشت من غير مذكرات تفتيش . واستولت السلطة على كثير من الممتلكات الخاصة . ووُضع نفر غير قليل من المعتقلين الأبرياء في السجن الانفرادي ، ولم يُسمح لهم بالافادة من المشورة القانونية بل لم يسمح لهم بالاتصال بأصدقائهم وأنسبائهم .

Riyad Nassar Library

وقد عبّر آلبرت لانجتري Langtry عن شعوره نحو اولئـــك الرجال المعتقلين والنساء المعتقلات فقال : « لو أُطلقت يدي في أمر هؤلاء لأصدرت امري باخراجهم كل صباح ، الى الفِناء ، وإطلاق النار عليهم ، حتى اذا كان اليوم التالي حوكموا لمعرفة ما اذا كانوا مجرمين أم لا ... »

اما آرثر غي أمبي Empey ، الكاتب المغالي في الاخذ بأسباب الدعوة الوطنية فقال : «إن رأيي في قضية الحمر يتلخص بكلمتين : الأبعاد او القتل . »

وقد وصفت مجلة « الجمهورية الجديدة » *New Republic* ، بعد بضع سنوات ، ذلك النشاط الضخم الذي قامت به وزارة العدل الاميركية عقبَ الحرب ، فقالت :

«في تلك الحقبة السوداء أعدّ هوفر قائمة بنصف مليون شخص اعتبرتهم وزارة العدل خطرين بسبب من معتقداتهم السياسية او الاقتصادية . ومعنى هذا ان واحداً من كل ستين أسرة في الولايات المتحدة قد وُضع اسمه في القائمة ... وبذلك يكون هوفر قد سبق هانرايش هملر بأربعة عشر عاماً ... »

ولكن وضع القوائم الضخمة باسماء « المواطنين الخطرين » لم يكن الشيء الوحيد الذي سبق هوفر وأعوانه البوليسَ النازي الى اصطناعه . فبين الاساليب النازية والاساليب التي انتهجتها وزارة العدل الاميركية في تلك الايام مشابهُ أخرى هي أشد تجهماً واكثر غلاظة .

●

ولئن كانت معاملة الرجال والنساء المعتقلين يوم شنت غارات بالمر وحشية حقاً ، لقد كانت رفيقة اذا قيست بما قدّر لهم ان يحتملوه في السجون الانفرادية التي زجّ بهم فيها .

ففي الجلسات التي عقدها « مجلس الهجرة » لتقرير ما اذا كان ينبغي إبعاد الأجانب المعتقلين عن البلاد أم لا ، مثّل عملاء وزارة العدل وموظفو وزارة العمل دور الشهود والمدّعين والقضاة في آن معاً . وإذ كان المعتقلون لا يحسنون الكلام باللغة الانكليزية أو لا يستطيعون فهمها ، فقد وجدوا أنفسهم تحت رحمة المحققين الغلاظ القلوب . ولقد وقّع كثير منهم – من غير ان يدري ما يفعل – على « اعترافات » تؤذن بأنهم شاركوا في مؤامرة لتقويض نظام الحكم القائم في الولايات المتحدة ؛ وأُكره آخرون على الاقرار « بجريمتهم » إكراهاً اصطنعت من اجله اساليب غير مشروعة . اما في بعض الاحوال التي عجز فيها الارهاب عن أداء مهمته على وجه يرضي المحققين فقد زُوّرت تواقيع السجناء على الوثائق التي تجرّمهم .

وسادت أحوال راعبة السجونَ المحلية ، والثكنات العسكرية التي حُشر فيها المعتقلون . ولا خلاف في أن غرف السجناء كانت قذرة ، شديدة الزحام ، تنقصها ابسط الشروط الصحية ، وكثيراً ما كان المعتقلون يجبرون على أن يفترشوا ارض السجن ، سواء أكانوا شباباً ام شيوخاً ، رجالاً ام نساءً ...

وأعملَ زبانية وزارة العدل ورجال البوليس المحلي السياط في أجسام المعتقلين وساموهم سوء العذاب .

والحق ان ثلاثة وستين عاملاً من الذين اعتقلوا في بردجبورت Bridgeport ، بولاية كونكتيكوت Connecticut ، إنما سجنوا في هارتفورد Hartford من غير ان يعرفوا التهمة الموجهة اليهم ، وقضوا في غياهب السجن خمسة أشهر بكاملها . كان الطعام يقدم اليهم في مقادير هزيلة لا تقيم الأود، وكانت إدارة السجن لا تسمح لهم بمغادرة حُجيراتهم إلا مرة في النهار ، لا تعدو ثلاثَ دقائق يغسلون خلالها وجوههم وايديهم على مغاسل قذرة ...

وفي ما بين الفينة والفينة كان معتقلو هارتفورد « يستنطقون » من جانب موظفي وزارة العدل الذين لم يتورعوا عن ضربهم في وحشية ، والذين تهددوهم غير ما مرة بالقتل ان لم يعترفوا بأنهم « ثوريون » أو « انقلابيون » .

حدّث احد هؤلاء المعتقلين ، وهو ميكانيكي شاب من اصل روسي ، ويدعى سيمون ناكوات Simon Nakwhat ، قال :

« في الاسبوع الثالث عشر لاعتقالي دخل حُجيرتي ادوار هيكي Hickey (احد موظفي وزارة العدل) وسألني ان اعطيه عنوان رجل يدعى بويكو Boyko في غرينبوينت Greenpoint بروكلن . ولكني لم أكن اعرف ذلك الرجل ، فما كان من هيكي الا ان لكمني بجمع كفه لكمتين الاولى على جبهتي والاخرى على فكي ، فسقطت على الارض وأنا لا أكاد اعي. عندئذ انشأ هيكي يرفسني بقدميه حتى فقدت الوعي بالكلية . ان هيكي رجل بدين ، يزن مائتي رطل. ولقد ظللت ثلاثة اسابيع وانا اعاني اشدّ الآلام من

رفساته التي صوّبها الى ظهري ... * »

وحدّث معتقل آخر ، وهو خياط من بردجبورت كان قد وفد الى سجن هارتفورد ليزور صديقاً معتقلاً فيه فلم يكد يطأ عتبة السجن حتى ألقي عليه القبض وأوصدت من دونه الابواب ، قال :

« استنطقني ستة من رجال وزارة العدل ، في ما أحسب ، وهددوني بالشنق اذا لم اخبرهم الحقيقة . وذات يوم ، جلب احد هؤلاء الرجال حبلاً وربطه حول عنقي قائلاً انه سيشنقني في الحال اذا انا لم أسمِّ له الشخص الذي يرئس الاجتماعات ، والاعضاء الرئيسيين في منظمة تدعى اتحاد العمال الروس ... »

وكانت في سجن هارتفورد أربع غرف اطلق عليها السجناء ، في ذعرٍ وهلع ، اسم « غرف العقاب » ، وهي غرف ضيقة يبلغ طول كل منها نحواً من تسعة اقدام ، وعرضها نحواً من أربعة اقدام ، وقد بُنيت من اسمنت غليظ لا ينفرج عن نافذة ما ، وخلت من ايما ضرب من ضروب الأثاث . وكان السجناء المتهمون بالفوضوية والشيوعية يُحشرون في هذه الغرف الصغيرة غير المهواة وغير المضاءة ، وكثيراً ما كان يُزجّ بكل عشرة او خمسة عشر منهم في غرفة واحدة . ومرّة كل اثنتي عشرة ساعة كان الباب

* استقينا هذا الحديث واضرابه في هذا الفصل من الرسالة التي اذاعها على الملأ في نوار سنة ١٩٢٠ اثنا عشر فقيهاً من أبرز رجال القانون الاميركيين تحت عنوان : « الى الشعب الاميركي – تقرير عن التصرفات غير الشرعية التي ارتكبتها وزارة العدل الاميركية . » To the American People — Report Upon the Illegal Practices of the United States Department of Justice .

يفتح لتقدم الادارة الى السجناء كسرة من الخبز وكوباً من الماء ..

واليك ماقاله بيترموزيك Musek احد نزلاء « غرف العقاب » هذه ، في وصف المحنة التي كتب عليه ان يتجرع كأسها المريرة :

« في ٦ شباط ، أخرجتُ من حجيرتي وحملت الى الدور الادنى من السجن حيث زجّ بي في حجيرة لا يكاد ارتفاعها يزيد على طولي ، ولا يكاد عرضها يمكنني من ان اخطوَ اكثر من خطوتين ونصف ليس غير . وحين أوصد باب الحجيرة من دوني سمعت السجان يقول لبعضهم : « اعط هذا الرجل حرارة ! » وكانت الحجيرة دافئة لدن دخولي اليها . وما هي إلا لحظة حتى غدت ارضها حارة الى درجة استشعرت معها انني حُمّصت تحميصاً . فنزعت ثيابي عن جسدي ، وظللت عارياً أو أكاد ، ومع ذلك فقد بقيت الحرارة فوق ما أحتمل ... وهنا سمعت الرجل يقول كرة ثانية : « اعطه مقداراً اضافياً من الحرارة ! » ....ولم يعد في طاقتي الوقوف على قدمي فانطرحت ارضاً ، وبقيت على هذا الوضع حتى الثامنة صباحاً ، عندما فتح الباب وقدّم اليّ رجل كوباً من الماء ثم ألقى كسرة من الخبز على ارض الحجيرة ، ولم أكد أراه حتى كلفته بأن يبعث اليّ بطبيب لانني كنت أحس اني قاب قوسين ، من الموت ، او ادنى . ولكنه ضحك مني قائلاً انني من القوة بحيث اقوى على الاحتمال ، ثم اغلق الباب وانصرف .. وأحسست بألم مبرح في صدري ، وكان نصف جسمي قد حُمّص بسبب من اتصاله بأرض الحجيرة اللاهبة . ومكثت في الحجيرة حتى الساعة الثامنة من ليل ٨ شباط ... وكانت من الأظلام بحيث وجدتني اتطلع

Riyad Nassar Library

الى يديّ فلا اكاد اراهما ... »

ذلك وقد اعتقل بيتر موزيك، شأن عدد من السجناء الآخرين، لمجرد وفوده على السجن لزيارة صديق له . حتى ان تهمةً ما لم توجه الى موزيك . وفي ١٨ آذار سنة ١٩٢٠ اطلق سراحه فتنشق نسيم الحرية من جديد ...

وفي ديترويت Detroit حُشر ثمانمائة رجل وامرأة اصطيدوا يوم الغارات ، في رواق لا نوافذ له في الدور الأعلى من «السراي الاتحادية» . وكان ثمة كنيف واحد تحت تصرف السجناء جميعاً . ولم يكن ثمة ما يفترشونه ويلتحفونه غير الصحف والمعاطف وما إليها . أما الطعام الوحيد الذي تناوله المعتقلون فكان ذلك الذي دأب انسباؤهم واصدقاؤهم على تزويدهم به .

وبعد انقضاء سبعة عشر يوماً على اعتقال اولئك السجناء الثمانمائة نقل مائة وثمانية وعشرون منهم الى « دار البلدية » وحشروا في سرداب طوله ثلاثون قدماً وعرضه اربعة وعشرون . وكان ما يُجرى عليهم من الطعام يتألف من القهوة وقطعتين من البسكويت مرتين كل اربع وعشرين ساعة !

وعندما أوضح جيمس كوزنز Couzens محافظ ديترويت ، لمجلس المدينة ان مثل هذه الاوضاع «لا يجوز التسامح بها في مدينة متحضرة» نُقل السجناء من سردابهم ذاك الى ثكنة قديمة من ثكنات الجيش في فورت وين Fort Wayne

ومن الطرق الشيطانية التي اصطنعت لتعذيب الرجال في «فورت وين» إكراههم على ان يشهدوا بأم العين كيف تُسام زوجاتهم

ويُسام أولادهم الوافدون لزيارتهم سوء العذاب .

ولنضرب على ذلك مثلاً ما جرى لمعتقل يدعى الكسندر بوكووتسكي Bukowetsky فقد جيء بهذا البائس من حجيرته ، ذات يوم ، وقيل له ان زوجه وولديه ، وهما فتاة في الثانية عشرة وصبي في الثامنة ، قد اقبلوا لرؤيته . ثم طلب اليه ان يتوجه الى أحد المكاتب في الثكنة ، حتى اذا بلغ المكتب حال الحرس بينه وبين الدخول ، وسحب حارسان آخران زوجة بوكووتسكي وولديه من المكتب الى الرواق .. أما ما حدث بعد ذلك فقد وصفه صاحبنا بقوله :

« ... ثم إنهم أدنَوْا امرأتي مني ، فما كان من الرقيب ميتشيل Mitchell إلا ان ضربها بجمع كفه على ظهرها وصدرها جميعاً . وأنشأ ولداي يُعولان، وانطلقت زوجي تولول ، فسألت الرقيب ميتشيل عما يقصد اليه من ذلك كله، وما اذا كان من همّه ان يستفزني للقتال. وبدلاً من ان يردّ عليّ بجواب ما، ارتدّ الى امرأتي وأوسعها ضرباً شديداً ، وطرحها ارضاً . ثم انه تناول بندقيته ، فيما شهر زميل له يدعى روس Ross هراوته، ودخل ثالث اسمه كلارك Clark فشرع يضربني بعقب مسدسه على أم رأسي ... وسقطت على الارض والدم يتسايل فوق جسمي كله .

ورأت ابنتي الصغيرة فايولت Violet ذلك فهرعت الى كلارك واستعطفته قائلة : « استحلفك بالله ان لا تؤذي ابي وامي» ولكن هذا كله، ومشهد الدم يسيل على ارض الغرفة من رأسي، وصراخ زوجتي وولديّ ، لم يشفع بي في قليل او كثير ! »

Riyad Nassar Library

وعندما نهض بوركووتسكي على قدميه وطفق يصعد سلماً مجاوراً سدّد أحد الحرس بندقيته نحوه واطلق النار على الرجل الفارّ . ولكن الرصاصة طاشت ، فأخطأت بوكووتسكي ، وجرحت مكانه سجيناً آخر ...

وفي غمرة من الذعر واليأس ، وتحت وطأة التعذيب والتمثيل المستمرين انهارت أعصاب عدد غير يسير من الرجال والنساء الذين أصابهم رشاش الغارات .

ففي « جزيرة الوعل » Deer Island انتحر احد المعتقلين بأن ألقى بنفسه من نافذة في الدور الخامس الى الشارع ، واصيب آخرون في « جزيرة الوعل » وغيرها بالخبل والجنون .

وفي جزيرة أليس Ellis قضى ستة من السجناء نحبهم .

وبعد ان ألقي القبض من طريق غير شرعي ، على احد المعتقلين وزُجّ به في السجن الانفرادي طوال ثمانيـة اسابيع وسيم سوء العذاب من رجال وزارة العدل في بنـاية « بارك رو » Parke Row بمدينة نيويورك آثرَ الموت على الحياة فألقى بنفسه الى الارض من احدى نوافذ الدور الرابع عشر * ...

●

ولست أعلم ان أياً من رجال وزارة العدل قد حوكم او عوقب على هذه الجرائم المنكرة التي ارتكبت خلال الفترة التي اجتاحت فيها غارات بالمر Palmer البـلاد ، تحت ستار الدفاع عن دستور الولايات المتحدة الاميركية .

---

* كان هذا المعتقل طابعاً ايطالياً فوضوياً يدعى أندريا سالسيدو Andrea Salsedo

القسم الثاني

الحرب في الداخل

Riyad Nassar Library

٣ . المسلك الجديد (نيو ديل)

●

« لن ألقي مراسيّ إلا حين أبلغ شاطيء الديموقراطية ، ابعد شواطيء الديموقراطية . »

الرئيس فرانكلين د . روزفلت ،
١٨ آب سنة ١٩٣٧ .

« إني أعاهدكم واعاهد نفسي على ان اسلك في الحكم مسلكاً جديداً ... إن هذه الحملة هي اكثر من حملة سياسية، إنها دعوة الى السلاح . وعلى هذا الأساس ألتمس نصرتكم، لا لكسب الاصوات فحسب ، بل للفوز في هذه الصليبية الهادفة الى إعادة اميركا الى أهلها . »

بهذه الكلمات ارتضى فرانكلين ديلانو روزفلت ترشيحه لمنصب الرئاسة من قبل الحزب الديموقراطي في ٢ تموز سنة ١٩٣٢ وأعلن افتتاح عهد تاريخي جديد في حياة اميركا ، عُرف في البلاد وفي العالم كله بـ « النيو ديل » New Deal او « المسلك الجديد » .

وقُدّر للمسلك الجديد ان يكون عهداً من الاصلاحات الديموقراطية العميقة التي تركت آثارها في وجوه الحياة الاميركية كلها . والحق انه استمد صفته الاساسية واتخذ شكله الاخير من الصراعين الجبارين اللذين انتظما جماهير غفيرة من الجنس البشري

آنذاك : أعني ثورة الملايين من المواطنين الاميركيين على الالم والفاقة والبطالة ، وصراع الشعوب المحبة للحرية ضد الطغيان الفاشي المتبربر .

ففي صباح ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩٣٣ ، قبل شهر واحد من تقلد روزفلت الاحكام ، تقريباً ، عين الفيلد مارشال بول فون هندنبرغ ، رئيس الجمهورية الالمانية العجوز ، أدولف هتلر مستشاراً للرايش . وفي ٢٧ شباط ، قبل ان يدخل روزفلت البيت الابيض بخمسة أيام ، أضرم النازيون النار في الرايشستاغ ، واتهموا الشيوعيين بتلك الجريمة المنكرة ، واستبد هتلر ، بعد ان اعلن حالة الطوارىء ، بالسلطة العليا في المانية .

وفي ٢٧ شباط ايضاً اعلن وزير الخارجية البريطاني ، السير جون سايمون Simon مجلس العموم ان الحكومة البريطانية قد حظرت تصدير الاسلحة الى كل من الصين واليابان ، بعد سنة ونصف من غزو اليابان منشوريا ، وفي وقت كانت الجيوش الصينية المقاتلة تستشعر فيه حاجة يائسة الى الاسلحة البريطانية ...

وكان الجو السياسي في قارتي اوروبة وآسية مكفهراً ينذر بحرب عالمية ثانية ...

●

وفي الولايات المتحدة ايضاً كان الشعب الاميركي يجتاز اياماً عصيبة . فملايين من المواطنين كانوا يعانون البؤس والبطالة ، وملايين منهم كانوا يعيشون في زرائب مخيفة ، او يهيمون على وجوههم بلا مأوى ، وملايين آخرون كانوا يلتمسون الطعام

لأطفالهم فلا يجدونه ...

ولم تشرق شمس الرابع من آذار ، وهو اليوم الذي دخل فيه روزفلت البيت الابيض ، حتى أغلقت المصارف ابوابها في طول البلاد وعرضها ، وتعطل النظام المصرفي كله في اغنى بلد من بلدان العالم ...

وألقى روزفلت خطبته الافتتاحية فوعد فيها الامة بالعمل . ولم يُخلف الرئيس العظيم الميعاد ، فشمر عن ساعد الجد وانصرف الى العمل الجريء على نطاق لم يشهد الشعب الاميركي ضريباً له من قبل .

ففي الايام العشرة الاولى من تولي روزفلت مقاليد الحكم ، دعا الكونغرس الى جلسة استثنائية وطلب اليه منحه سلطات خاصة لا تُمنح إلا في حال الطوارىء ، فاجابه الكونغرس الى ما طلب . وهكذا وضع روزفلت «قانون الانعاش الاقتصادي القومي *» ، وحرم تصدير الذهب وكل تعامل بالعملات الاجنبية ، وضغط نفقات الحكومة الاتحادية ، وسأل الكونغرس إباحة الجعة ، واعاد فتح المصارف الموصدة .

وما هي الا فترة قصيرة حتى تنفست البلاد الصعداء وعاودها الامل في حياة رغدة كريمة .

وفي اوائل عام ١٩٣٤ استعرض والتر ليبمان Lippmann ما حققه روزفلت في السنة الاولى من ولايته فقال :

« عندما ولي روزفلت الحكم كان السؤال الذي يشغل بال

---

* National Industrial Recovery Act.
ويعرف اختصاراً بأحرفه الاولى التي تجمعها كلمة NIRA [المعرب]

Riyad Nassar Library

المواطنين جميعاً هو ما اذا كان في استطاعة الامة ان تنهض من كبْوَتها أم لا ... وكانت موجة من الذعر، والبؤس، والتمرد، واليأس تلفّ الشعب كله وتحطّم ثقتـه لا بالمشروعات التجارية فحسب، بل بطراز الحياة الاميركية ايضاً. وليس يدري أحدٌ نحوَ أيّ هاوية كنا خليقين بأن نُساق لو تأخر بزوغ العهد الجديد اثني عشر شهراً أخرى ... صحيحٌ ان كثـيراً من المشكلات لا تزال قائمةً الى اليوم، ولكنْ لم يبقَ ثمّةَ ما يمكن ان نعدّهُ أزمة خطرةً غامرةً. لقد استعاد سواد الامة شجاعته وأمله.»

بيد أن عواطف الأمة ما لبثت ان عرفت تحولاً عميقاً مُقلقاً. ذلك بأن «شهر العسل» الذي جمـعَ قلوب الرأسماليين الضخام وممثلي العمال على تأييد العهد الجديـد كان يلفظ أنفاسه الاخيرة، فاذا بالقلق والاستياء يحلاّن محل الثقـة والرضا، واذا بالتسويات والتناقضات تطبع سياسةَ الادارة الجديدة بطابعها البغيض، فلا تكاد الحكومة تعلن برامجها العتيدة حتى تهب في وجهها عواصف المعارضة، فيسرع أولو الأمر الى تعديـل البرامج وتشذيبها ... ليس هذا فحسب، بل لقد انتهى «قانون الانعاش الصناعي القومي» الى ان يصبح سلاحاً حكومياً يحمي اصحاب العمل الهادفين، فوق كل شيء، الى وقاية أنفسهم من المنافسين الجدد ومـن تخفيض الاسعار لمصلحة المستهلك.

وليس أدلّ على هذا من ان نشرة «وول ستريت» الموسومة بـ «الحوْليّ» The Annalist نصّت في ذلك الحين على ان «الرساميل المالية الكبرى خليقةٌ بأن تُفيد، في السياق الطويل، من النظام

الجديد. ذلك بأن استبعاد اساليب التنافس، وإدغام المصارف الخاصة بالجهاز المالي الحكومي ادغاماً أشدّ وأوثق، وإحـكام الرقابة والضبط والتنسيق: كل أولئك عوامل تزيد مستقبـل الرأسمالية المالية، قوةً ومنعة.»

وكان كثير من اصحاب الاعمال ينفذون «قانون الانعـاش الصناعي القومي»، حيثما كان ذلك التنفيذ لمصلحتهم، ويخرقونه حيثما كان تنفيذه لمصلحة العمال. وقد قال احـد العمال للصحافي جورج لايتون Leighton، خريف سنة ١٩٣٣: «بربك لا تقلْ لاحد انك كنت هنا. فقد اشتكى قبلي عمال عديدون فكان مصيرهم الفصل من الخدمة». وفي التحقيق الذي نشره لايتون في «هاربرز ماغازين» قال: «ان قانون الانعاش الصناعي القومي ليُنتهك اليوم، نصاً وروحاً، سراً وعلانية.»

وأخيراً اجمع العمال أمرهم، وعمدوا الى تطبيق المادة السابعة (أ) من «قانون الانعاش الصناعي القومي» وهي التي تنص على «حق العمال في ان ينظموا صفوفهم ويساوموا أصحاب العمل على نحو جماعي تكتلي.»

وهدَر جون ل. لويس Lewis زعيم عمـال المناجم قائلاً: «القانون في جانبنا!»، وفتح صناديق الاتحاد لتمويل حملة نظامية كاسحة أسفرت عـن مضاعفة عدد العمال المنتسبين الى النقابات اضعافاً ثلاثة في مدى اربعة أشهر ليس غير. وفي نوار سنة ١٩٣٤ أضرب اثنا عشر ألفاً من عمال تفريغ السفن وشحنها، في شواطيء المحيط الهادىء، بزعامة هاري بريدجز Bridges فتعطلت حركة

الملاحة من سان دييجو San Diego الى سيتل Seattle تعطلاً كاملاً .

وفي أواسطقوز، وبعد أن قتل نفر من المضربين برصاص البوليس أعلنت مدينة سان فرنسيسكو برمتها الاضراب العام ، طوال أربعة أيام . وفي سنة ١٩٣٥ عمّت الاضرابات البلاد من أقصاها الى أقصاها وبلغ نضال العمال في سبيل انتزاع حقوقهم السليبة أوج احتدامه .

وكان المثرون قد ضاقوا ذرعاً ، في الوقت نفسه ، بالمسلك الجديد (نيوديل) . ذلك بأن مقدّمي الصناعيين ورجال المال الذين حسبوا أن روزفلت لم يكن يهدف في تصريحاته «الراديكالية» الى أبعد من اكتساب عطف الجماهير ، ما لبثوا أن أدركوا أن الرئيس كان يعني ما قاله حول « القلة ذات الامتياز » و « المثل العليا للديموقراطية »، وحق العمال في ان ينظموا أنفسهم ، «وحق البائسين في ان يتطلعوا الى العون الحكومي » . حتى اذا وسّع المسلك الجديد برنامجه في الاسعاف والخدمات العامة ، استجابة للضغط الشعبي، وتعاظم نشاط اتحادات العمال وتكاثر عدد المنتسبين اليها ، أعلن كبار الرأسماليين الحرب على روزفلت « الذي خان طبقته » ، وشنوا حملة حقوداً على « ذلك الأحمر المتربع في البيت الابيض » ورجال حكومته كلها . ولم يُشرق ربيع ١٩٣٥ حتى كان ثمانون في المائة من رجال الصناعة في البلاد قد أعلنوا معارضتهم للمسلك الجديد .

ولم يخفّ عداء الرأسماليين الكبار للمسلك الجديد عندما افتتح الرئيس روزفلت الكونغرس في ٤ كانون الثاني ١٩٣٥ ، بعد أن

Riyad Nassar Library

أحرز الديموقراطيون انتصاراً كاسحاً في الانتخابات ، فقال : « لقد فوّضَنا الشعب تفويضاً صريحاً بأن نحمل الاميركيين على الأقلاع عن فكرة اكتساب الثروة ، من طريق الربح الفاحش ، اكتساباً يؤدي الى فرض النفوذ الشخصي غير العادل على الشؤون الخاصة ، ومن ثم على شؤوننا العامة ، مع بالغ الأسف، ايضاً . »

وفي واشنطن أعدّ « نواب الثروة السياسيون » العدة لتعطيل كل تشريع من تشريعات « المسلك الجديد » في المستقبل . فقد أوردت صحيفة « نيويورك تايمس » في عددها الصادر في ٢٤ شباط ان « لجنة تضم مئة عضو » قد شُكلت في المجلس التمثيلي « لعقد اجتماعات سرية » تهدف الى وضع الخطط التي تُفسد على الحكومة مشروعاتها الاصلاحية .

وفي ٢٧ نوار ١٩٣٥ نقضت المحكمة العليا « قانون الانعاش الصناعي القومي » قاطعة الطريق دون أيما تعديل يمكن ان يطرأ على ساعات العمل واجور العمال بحكم القانون الاتحادي (الفدرالي) . وهنا عقد الرئيس روزفلت مؤتمراً صحفياً في البيت الابيض شهده ما ينوف على مئتي صحافي ، شجبَ فيه قرار المحكمة العليا وتلا بضع عشرة برقية من آلاف البرقيات التي انهالت عليه والتي يتساءل مرسلوها أليس ثمة ما يستطيع الرئيس ان يفعله « لأنقاذ الشعب » ؟

ثم ان الرئيس قال : « وأياً ما كان فالقضية الرئيسية تتلخص الآن في ما يلي : هل يعني هـذا القرار ان حكومة الولايات

المتحدة ليس لها سلطة على أيما مشكلة من المشكلات الاقتصادية في البلاد ؟ »

وابدى روزفلت ثقته الوطيدة بأن ذلك لن يكون .

وبعد شهر واحد أقر الكونغرس قانوناً آخر قضى باقامة « مجلس قومي لشؤون العمل » من صلاحيته التحقيق في مختلف الشكاوى الواردة اليه . وقد نصّ هذا القانون على حق العمال في انتخاب ممثلين ينوبون عنهم في مفاوضة أرباب المصانع والاتفاق معهم على الأجور وتحديد ساعات العمل ، وحظر انشاء نقابات مموّلة من جانب الشركات والاساءة الى العمال النقابيين او إيثار غير النقابيين عليهم .

وهكذا أمست خطوط المعركة واضحة بيّنة ، ولم يحجم الرئيس روزفلت عن تحديد المعسكر الذي يذود عنه ، فتحدث الى الامة ، اوائل سنة ١٩٣٦ ، فقال :

«إننا نصرّ على ان يكون للعمل مثل الاحترام الذي للملكية المادية . ولكن عمالنا اليدويين والعقليين يستحقون شيئاً اكثر من الاحترام . إنهم يستحقون حماية عملية تكفل لهم اداء عملهم لقاء تعويض يمكنهم من بلوغ مستوى صالح من العيش ، ويساعدهم على تحقيق هامش من السلامة يقيهم غوائل الحياة ... »

وتابع الرئيس خطبته فقال :

« إن في الامة لنفراً أخطأوا قراءة آية العصر وآية التاريخ الاميركي ، سواء بسواء . إنهم يحاولون ان ينكروا على العامل حق المساومة الجماعية ، وحق اكتساب الرزق اللائق ، وحق السعي من

أجل السلامة والأمن . وقصارُ النظر هؤلاء ، لا العمال ، هم الذين يهدّدون هذه البلاد بنزاع طبقي انتهى في البلدان الاخرى الى قيام الديكتاتورية والطغيان » .

وإنما كُتب على وحدة الأمة ان تتمزق ، طوال العقد الرابع من هذا القرن ، بنزاع مرير أضرم ناره اولئك النفر من « قصار النظر » الذين تحدّث عنهم روزفلت .

وقد وصف ثيودور درايسر Dreiser طبيعة هذا الصراع وصفاً دقيقاً هو أقرب ما يكون الى النبوءة حين كتب ، سنة ١٩٣١ ، هذه الكلمات : « ان الصراع الاكبر الذي تشهده اميركة اليوم إنما يدور بين الغنى والفقر ، وهو يتلخص في السؤال التالي : أيكون في استطاعة الفرد ، مهما كان صغيراً فقيراً ان يحتفظ باحترامه الذاتي وبحياته نفسها ، أم ان اقلية قليلة من التجار سوف تستولي آخر الأمر على مقاليد الأمور وتفرض على سائر أفراد الامة — وعددهم اليوم نحو ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ — ما الذي ينبغي ان يعملوه ، والطريقة التي يتعيّن عليهم أن يفكروا بها ، ومقدار المال الضئيل الذي يحسن بهم أن يعيشوا عليه ، بينما يغرق أفراد هذه القلة في متارفهم من غير ما وازع ولا رادع ؟ تلك هي الحرب التي توشك ان تندلع نيرانها في هذه البلاد ! »

٤ . ملك قامعي الأضرابات ...

•

« ان من أضخم مفاخرنا كونَ الطبقة العاملة الاميركية قد بلغت على وجه العموم ، مستوىً من العيش اعلى من ذلك الذي بلغته ايما طبقة عاملة أخرى في العالم . فكيف تمّ ذلك لعمالنا؟ انما تمّ لهم ذلك من طريق النضال ليس غير، النضال العنيف ضدّ معارضة مريرة وبواسطة التنظيم العمالي في المحلّ الاوّل . »

من خطبة لرو كويل كانت ،
ايلول ١٩٤٨

في كانون الثاني ، سنة ١٩٣٥ ، نشرت مجلة « فورتشين » Fortune مقالاً صوّرت فيه سيرة احد اصحاب الملايين الاميركيين الذين اكتسبوا شهرتهم وثروتهم كما يقول محررو المجلة «من تجارة لا يُسمح بممارستها في أيما مكان في العالم ، خلا الولايات المتحدة الأميركية . »

أما اسمُ المليونير فكان بيرل ل . بـيرغوف Bergoff وأما صناعته فكانت تحطيم الاضرابات .

استهلت المجلة مقالها ذاك بأن واجهت القارىء بهذه المشكلة الافتراضية :

« انت مديرٌ لأحد المصانع المعروفة : هذا ما تقوله البطاقة المعلقة على باب مكتبك . ومنذ اسبوع اجتمع اليك وفد من عمالك وأعطوك مهلة سبعة أيام لرفع اجورهم من اربعة دولارات الى اربعة دولارات ونصف يومياً ، وإلا ... لم يبق لانقضاء المهلة غير اثنتي عشرة ساعة ... إنّ الصداع لم يزايل رأسك طوال اربع ليالٍ واربعة ايام ...

ما المبلغ الذي طالب به ذاك الرجل ذو المظهر الغريب ؟ لقد طالب بخمسين الف دولار لقاء منحك ضماناً مطلقاً بأن يقمع الأضراب ، ويسحق اتحاد العمال ، ويغادرك سيّد مصنعك غير منازع . كل ذلك لقاء خمسين ألف دولار ولقاء ما لا تدري من الرؤوس المهشمة ... »

واستطردت المجلة فقالت :

«وإنما قدّمنا لكلامنا بهذه المقدمة لكي نلقي ضوءاً ضئيلاً على الاضطراب العقلي الذي يستولي على مدير المصنع الاميركي حين يواجهه شبح الاضراب المخيف... فاذا وطّن النفس ، آخر الامر ، على الصمود في وجه العمال بأي ثمن فأغلب الظنّ انه سينهض ويتلفن الى رجل يدعى بيرل ل . بيرغوف في مدينة نيويورك . ذلك ان مستر بيرغوف هو اقدم المشتغلين بتحطيم الاضرابات واشدهم بأساً

وأصلبهم مكسراً ...

والحق ان بيرل بيرغوف تمتّع طوال عشرين سنةً ونيفاً بشهرةٍ قومية واسعة . فكثيراً ما كانت الصحف الاميركية الصادرة في طول البلاد وعرضها تطلق عليه ، بسببٍ من احمرار شعره ، لقب « الشيطان الاحمر »، وكثيراً ما كان معاونوه يطلقون عليه ، في كثير من الاحترام ، لقب « اللواء » أو « الجنرال ». اما بيرغوف ذاتهُ فيؤثر اللقب الذي صاغه هو لنفسه : « ملك مفسدي الاضرابات » ...

•

ولنعد قليلاً الى الوراء . ففي مطلع العقد الرابع من القرن الحاضر ، حين اجتاحت البلاد تلك الازمة الاقتصادية الخطيرة التي تهدّدت كيانها بالزوال ، أمست حاجة الرأسماليين ماسّة الى خدمات مكتب بيرغوف ، فكثر زبائنه وعاد لا يقبل مهمة القضاء على الاضرابات الصغيرة إلا في القليل النّادر ، كأن يكون صاحب المصنع صديقاً شخصياً لبيرغوف. وقد تحدّث مرةً في ذلك فقال: « إن ثمة مؤسسات أخرى قد تقمع إضراباً يقوم بـه عمال مصنع من مصانع الازرار مثلاً ، ولكنْ حين تنشأ الحاجة الى قمع إضراب يقوم به عمال مصنع من مصانع الفولاذ فعندئذٍ يُعهَد في هذه المهمة إليّ دون غيري من الناس . »

وكانت المكافآت التي يحصل عليهـا بيرغوف جزاء تحطيمه إضرابات العمال جديرةً بمكانة زبائنه في عالم الصناعة والمال . فلم تدخل سنة ١٩٢٥ حتى كانت ارباح مؤسسة بيرغوف قد بلغت

عشرة ملايين دولار . وقُدّرت ثروته الخاصة ، آنذاك ، فاذا هي أربعة ملايين دولار ليس غير ...

وفي سنة ١٩٣٤ صرح بيرغوف لأحد الصحفيين بقوله: « ان إعداد العدّة لقمع اضراب ما، اشبه بتعبئة جيش صغير لخوض حرب فعليّة ».

واستعان بيرغوف على تعبئة قواته وتوجيه عملياتها في الميدان بجماعةٍ من الاشرار الذين لا خلاق لهم والذين دخلوا السجون فقضوا فيها دهراً طويلاً . وكان بيرغوف اذا اشار الى هؤلاء الاعوان قال إنهم « نبلاؤه » .

أما « قوى الاحتياط »، كما يدعوها بيرغوف، فكانت تتألف في الاعم الأغلب من مجموعة من الأوباش والمجرمين الصغار ومحترفي قمع الاضرابات . وكانت مهمتهم تقتضيهم أن يحلّوا محل عمال المصانع المضربين من غير أن يأتوا في معظم الأحوال عملاً حقيقياً. وكثيراً ما لا يزيد عملهم على خلق جو كاذب من الانتاج الفعّال بأساليب مختلفة من مثل إبقاء المداخن ، مطّردة الأنفاس ، ذرّاً للرماد في العيون .

وكان بيرغوف يحتفظ بقائمة ضخمة تضم اسماء « النبلاء » و« جنود الاحتياط » الذين استخدمهم طوال اشتغاله في قمع الاضرابات ، مصنفة على اساس من الخبرة وطول المعاناة. وقد قال مرةً: « ان هذه القائمة أثمن رأسمالٍ وظفته في التجارة ، بل هي عماد صناعتي الأول ، وركيزتها الرئيسية لأنها ثمرة التنخل وتجارب الايام . »

وقال ايضاً : « يهمنا حين نختار الرجل الذي نعهد اليه في قمع إضراب ما، أن يكون من ذوي العادات الحسنة . ولكننا لا نستطيع ،

في الوقت نفسه ، أن نعهد في مثل هذه المهام الى نفر من اساتذة المدارس الدينية المتزمّته ! »

وليس من ريب في ان العنف واراقة الدماء كانا يرافقان نشاط بيرغوف القامع للاضرابات. فلم يكن يُلقي بالاً للاصابات والضحايا التي تتكشف عنها اجراءاته الزجرية واساليبه التعسفية . كل ما كان يهدف اليه هو ان يهزم خصومه سيكولوجياً ...

والواقع ان رجال بيرغوف كثيراً ما كانوا يرتكبون ، وهم يقومون بالمهام الموكولة إليهم ، أفظع الجرائم وأبشعها، فيغيرون على المدينة تلو المدينة ، شأن قطعان الجنود المرتزقة في القرون الوسطى ، فيسلبون وينهبون ويروّعون الآمنين ، ثم يغادرون وراءهم ركاماً من أجساد الجرحى والقتلى ...

وفي ٢٤و٢٥ تشرين الاول سنة ١٩٣٤ نشر بيرغوف مقالين في صحيفة «نيويورك بوست» تحدث فيهما عن نشاطه في قمع الاضرابات تحدّث المدلّ الفخور، فقال: «كنت، طوال ثلاثين عاماً، زعيماً لقامعي الاضرابات جميعاً ، ولقد وُفقت في أحيان كثيرة الى ان أعبيء جيوشاً صغيرة بعد بضع ساعات من التجاء شركات السكك الحديدية والبواخر وغيرها اليّ ... »

ويذهب بيرغوف الى ان اساليب قمع الاضرابات لم تتغير ، منذ نزوله الى هذا الميدان ، إلا قليلاً ، فلا يزال الهدف الرئيسي لكل مشتغل بهذه الصناعة هو تحطيم معنويات المضربين و«إقناعهم» بأن قضيتهم خاسرة مئة بالمئة . ولكن ثمة، على كل حال، تطوراً طرأ على اساليب الاقناع :

« كنا نحتفظ في الأيام الخالية بمستودع للاسلحة والذخائر يشتمل على ٢٥٠٠ بندقية ومثلها من العصي الغليظة. أما اليوم فنحن نجاري المطالب العصرية ... لقد ارسلنا مقادير من الغاز المسيل للدموع الى جورجيا Georgia ابتغاء قمع الاضراب الذي اعلنه عمال النسيج فيها . »

وبعد ان نصّ بيرغوف على ان الدخل الصافي الذي يُقدمه أيما مشروع تجاري هو المحك المطلق لنجاحه يلاحظ « ان الارباح الناشئة عن قمع الاضرابات كانت ضخمة ولا تزال . » ولكنّ النجاح لا يمكن ان يُقاس بالارقام وحسب، فهناك اسبابٌ اخرى تشيع في النفس الرضا :

« صرتُ انظر الى الخدمات التي تقدمها مؤسستي الى دنيا التجارة والصناعة نظرتي الى الخدمات التي يُسديها الطبيب الى مرضاه ... واحسب ان ثمة شهادة جامعية تدعى «الدكتوراه في الاقتصاد» .. ولكني استطيع ان ازعم، من غير ان اخشى ايما نقد أو اعتراض، انني جدير بان أمنح شهادة « الدكتوراه في الاقتصاد العملي ... »

●

وفي كانون الاول سنة ١٩٣٤ ، بعد سبعة وعشرين عاماً قضاها في تجريد جيوش المجرمين ضد العمال المطالبين بحق الحياة، وفي ترويع المدن الآمنة والتسبب بموت مئات من المواطنين، مثل بيرغوف ، آخر الامر ، بين يدي القضاء . ومن عجبٍ ان التهم الموجهة اليه لم تسقها أيما سلطة محلية او اتحادية ، وإنما ساقتها جماعة من المجرمين القدماء وقامعي الاضرابات المحترفين . وكانت دعواهم تتلخص في ان بيرغوف استأجرهم لافساد إضراب ما ، حتى

اذا قاموا بالمهمة التي عهد اليهم فيها لم يدفع اليهم أجورهم .

ونظرت القضية في قاعة المحكمة البلدية بمدينة نيويورك برئاسة القاضي كايس وينتر Winter .

وبعد السماع الى اقوال المدّعين دافع بيرغوف عن نفسه قائلاً: « لقد خدمتُ الصناعة الاميركية ، في الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، طوال ثلاثين سنة كاملة . ووجهت كتائب من رجالي الى كوبا وكندا . ووفّقتُ الى القضاء على عدد كبير من الاضرابات التي قام بها في السنين الاخيرة عمال السكك الحديدية ، وأحواض السفن ، ومصانع النسيج . ولا تزال الحاجة ماسة الى خدماتي ، حتى هذه الساعة . »

وأنكر بيرغوف التهم التي وجهها اليه خصومه قائلاً ان اخلاقه المسلكية ما انفكت موضع إعجاب الصناعيين وارباب العمل ، وتقديرهم . واستطرد فقال : « اني اعرف رؤساء شركات السكك الحديدية جميعاً ، وقد افادوا كلهم من خبرتي وخدماتي ... واستطيع ان اؤكد ، في هذا المقام ، اني لم أخدع ، طوال عملي في هذا الحقل ، رجلاً واحداً عن نفسه ، ولم يضع له عندي فلس واحد . فأنا ابرز قامعي الاضرابات في البلاد وابعدهم صيتاً . »

ولم تفد بيرغوف بلاغته ، فقضى الرئيس وينتر بان يدفع الى أعوانه السابقين جميع الاجور والتعويضات التي يطالبون بها ، ولكن بعد ان أرضى غرور الرجل فوصفه في نصّ الحكم قائلاً : « إنه عبقري مهنته الفعال »، وأشار الى «نشاطه العظيم في خدمة الشركات الكبرى » ....

وعلى اية حال فقد كانت « خدمات بيرغوف العبقرية» تؤذن بالانقضاء ... فلم تكد اتحادات العمال تنمو وتزدهر ، ولم يكد الكونغرس يقرّ القانون القاضي بتحريم انتقال قامعي الاضرابات من ولاية الى اخرى ، حتى كان العهد الذهبي لصناعة بيرغوف قد امسى خبراً ماضياً ...

وفي سنة ١٩٣٦ أغلق « ملك قامعي الاضرابات » مكاتبه وأخلد الى الراحة ...

٥ . داخل امبراطورية فورد

●

**جائز ان يكون الخالق قد وهبنا بعض
الحقوق التي لا تُنتزَع، من مثل حق
الاجتماع في أمن ، وحق الشكوى
والاعتراض... ولكنْ حاوِلْ ان
تستعمل هذا الحق في «ريفر روج»
مع كتائب فورد المسلحة ، حاول
ذلك اذا كانت أفكار المستر فورد
لا تتورّك على ماتذهب اليه ، حاول
ذلك وانظر أي أرض سوف تتلقى
ظهورك المهيض المحطم ...**

من « أرض الأحرار » لأرتشيبالد ما كلايش

« إننا لن نعترف بـ « اتحاد عمال مصانع السيارات » او اي اتحاد آخر »، بهذا صرّح هنري فورد بعد ان وقّع سائر منتجي السيارات الكبار عقوداً مع مندوبي ذلك الاتحاد، «ذاهباً الى ان «اتحادات العمال هي أسوأ ما مُنيت به الارض من رزايا وأدواء».

والواقع ان احداً من رجال الصناعة الاميركيين لم يحارب اتحادات العمال بمثل الضراوة التي اصطنعها هنري فورد في حربه لها.

ولئن كان إقرار قانون واغنر Wagner ، الخاص بالعمل لم يخفف شيئاً من غلوائه وعزمه على ان يظل عماله خارج نطاق الاتحاد ، فما زال فورد يعتبر نفسه فوق قوانين البلاد وتشريعاتها .

وقد لا تعلم ان امبراطورية فورد الخاصة تترامى عبر القارات الست . فهو يملك مصانع ومكاتب في الصين، ومصر والارجنتين، والمكسيك ، وهنغاريا ، واليابان ، والمانيا ، وعدد غير يسير من البلدان الاخرى . وهو يستغل حقولاً للزيت في كاليفورنيا ومئات آلاف الفدادين من الاراضي الغنية بالفحم والخشب في كانتاكي Kentucky ، وفرجينيا الغربية ، وشمالي ميشيغان ، و ٢،٢٢٥،٠٠٠ فدان من الاراضي المزروعة مطاطاً في بارا Para بالبرازيل . ليس هذا فحسب ، بل إنه يسيطر على نحو ربع الزجاج الذي تنتجه الولايات المتحدة ؛ ويملك مصارف وسككاً حديدية وخطوطاً جوية وبواخر تجارية .

وكانت المصانع الواقعة على ريفر روج River Rouge في ديربورن Dearborn ، ميشيغان بمثابة العاصمة لامبراطورية فورد المترامية الاطراف . وفي الحق انها اكبر وحدة صناعية في العالم؛ وهي تنبسط على اكثر من الف فدان ، فتؤلف مدينةً قائمةً بنفسها . وقد تعجب اذا علمت ان هذه المدينة الصناعية الجبارة تنتظم مئة ميل من الخطوط الحديدية ، وميلاً ونصف من احواض السفن ، وشبكةً رائعة من الطرق والقنوات العريضة ، وان أبنيتها العملاقة تضم مكاتب للموظفين ، ومصانع لصبّ الحديد ، ومصانع لانتاج الفولاذ ، ومصانع لتجميع السيارات ، ومطابع

ضخمة ، ومصنعاً للورق ، ومعامل لأُطر السيارات وللزجاج والأسمنت . وحين تعمل هذه الوحدة الصناعية بأقصى سرعتها وفعّاليتها تضم بين جدرانها ٨٥،٠٠٠ الفاً من العمال ...

ولو قد اخذنا بالاسطورة التي نسجها حول اسم هنري فورد اخصائيون في شؤون الدعاية تُدفع اليهم اعلى الرواتب وتُغدق عليهم الهبات والعطايا اذن لتمثل لنا صانع السيارات العالمي رجلاً إنسانياً كبيراً ، ومحسناً خطيراً وحكيماً تحدوه على العمل الرغبة في تقدم البشرية عموماً ، ومصلحة عماله خصوصاً .

تلك هي الاسطورة ، أما الواقع فيقول ان العبقرية الصناعية التي عُرف بها صاحب الملايين المملينة — اذا جاز التعبير — كان يُرادفها عقم فكري ، وتعصب ذميم ، وعداوة ضارية للتقدم الاجتماعي .

ففي مصانع فورد المنثورة في أقطار الدنيا تلتقي ، على صعيد واحد ، الرغبة العارمة في اصطناع احدث الاساليب التقنية وأعظم المعدّات الآلية ، بالأزراء البالغ الذي يلقاه عمال تلك المصانع ، والمعاملة الوحشية التي يعاملون بها .

ولم تكن هذه المفارقة لتتجلى في مصنع ما من مصانع فورد بأوضح وأفضح مما تجلّت في مصانعه القائمة عند ريفر روج ، في دير بورن ، بولاية ميشيغان ..

ففي هذه المصانع كان العمال يعيشون وكأنهم في دولة فاشيّة ذات استقلال ذاتي ، في قلب الولايات المتحدة — دولة تُساس أمورها بالعنف والارهاب ، والحديد والنار .

واذا كان ديكتاتور هذه الدولة هنري فورد ، فأن رئيس بوليسها السري كان هاري هربرت بينيت Bennett .

●

سئل هربرت بينيت عن وظيفته الحقيقية في مؤسسة فورد فقال : « أنا ؟ انا الممثل الشخصي لمستر فورد ليس غير . » وانه لجوابٌ يمور بالتواضع المصطنع ؛ ففي أواسط العقد الرابع من هذا القرن كان في اميركة رجال كثيرون يشاركون مجلة « لوك » رأيها في ان بينيت كان هو « الرئيس المطلق للشركة » ... أما فورد نفسه فكان يرى ان كفاءة هربرت بينيت تؤهله لان يدير مؤسسات اعظم من «شركة فورد للسيارات ». وذهبَ الى ابعد من ذلك ، يوماً ، فأكّد « ان بينيت يجب ان يكون رئيس الولايات المتحدة » .

وانما بدأ بينيت عمله في مؤسسة فورد يومَ عهد اليه الصناعي الكبير في مهمة الحفاظ على احفاده ووقايتهم شرّ اختطافٍ محتمل ، فقام بينيت بما وُكل اليه على نحوٍ اكسبه ثقةَ سيده ، فعيَّنه سنة ١٩٢٦ رئيساً « لدائرة الخدمة المدنية » في الشركة .

وكان الغرض الظاهري من انشاء « دائرة الخدمة المدنية » في مؤسسة فورد حماية ممتلكات الشركة من اللصوص. ولكن الغرض الحقيقي كان في الواقع شيئاً غير ذلك ، فلم يكن من همّ هذه الدائرة ان تذود عن هنري فورد غوائل اللصوصية ، وانما كان من همها ان تذود عنه غوائل تكتل العمال الكادحين في مصانعه وانتظامهم في نقابات توحد كلمتهم وتنطق بلسانهم .

وفي ظل بينيت وقيادته توسعت « دائرة الخدمة المدنية » هذه حتى لقد غدت جهازاً ضخماً تمتدّ شُعبُهُ الى ماوراء تخوم المؤسسة ومصانعها . فلم تكد سنة ١٩٣٠ تهلّ حتى استغرقت شبكتها مدينتي ديربورن وديترويت ،وشملت البلاد من اقصاها الى اقصاها نافذةً الى كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والحياة الخاصة .

وكان في عداد رجالها وأحلافها السريين جماعة من جواسيس العمل ، وقطاع الطرق، والمجرمين السابقين ، ومن رجال التحري وضباط الشرطة والقضاة ،ومن المحامين والمعلمين ومحرري الصحف والتجار ، ومن الموظفين البلديين وموظفي الولايات والادارة الاتحادية .

وقد وصف مالكولم بنجاي Bingay نفوذ « دائرة الخدمة المدنية » البالغ فقال :

« كان المرشحون للحاكمية ولعضوية الشيوخ والكونغرس وللمناصب القضائية يرتعدون جزعاً وخوفاً وكلهم يتساءل أتقف « جماعة بينيت » الى جانبه أم تقف ضدّه ؟ وحتى المسؤولون عن جامعة ميشيغان كانوا ينتظرون كلمة تصدر من فمه حول سلوك تلك المؤسسة العتيقة العريقة .

اما نشاط هذه الدائرة خارج المصانع فقد وصفه رالف ريمار Rimar ، أحد موظفيها البارزين ، بقوله :

« لقد امتدّت شبكتنا الجاسوسية الى منزل كل عامل من عمالنا، والى مكاتب كبار موظفي الولاية والمدينة . والواقع ان سنوات من التجسس النظامي الموصول قد زوّدتنا بسجل وافٍ ينتظم ثبتاً بالنشاط الذي يقوم به كل من عمال فورد،على اختلاف

ضروبه . ليس هذا فحسب، بل لقد زوّدتنا هذه السنوات بملفات تنطوي على كل ما يتصل بحياة الحكام ورجال الدولة الخاصة ...

كان رجالي يرفعون اليّ تقارير تنطوي على محادثات جرت في دكاكين البدّالين ، وأسواق اللحم ، وفي المطاعم وبُؤَر القمار ، وحدائق الجمعة ، والحلقات الاجتماعية ، ونوادي الصبيان ، وحتى في الكنائس . ذلك بان النسوة القاصدات الى السوق لشراء بعض الحاجات المنزلية قد يتجاذبن أطراف الحديث حول اعمال ازواجهن وضروب نشاطهن ، فاذا فعلن سمعتُ ، وشيكاً ، كل كلمة من كلماتهن ... كذلك يتحدث الصبية عن حياة آبائهم فيكون في هذه الاحاديث فائدة كبيرة لدائرتنا ... »

وكان ريمار يرفع الى قيادة « دائرة الخدمة المدنية » من حين الى آخر ، قوائم بالعمال المنخرطين في سلك النقابة والعمال العاطفين عليها ، فتلجأ الشركة ، في الحال ، الى الاستغناء عن خدماتهم .

ونشأت صلات تعاملٍ حميمة بين « دائرة الخدمة المدنية » في مؤسسة فورد وأوساط الاجرام السرية . فكان اعضاء « العصابة الأرجوانية » و« العصابة الدموية » وغيرهما من عصابات ديترويت وديربون يختلفون الى مصانع فورد في ريفر روج، يتبوّأون منها حيث يشاؤون ، ثم يغادرونها مُثقَلين بالألطاف والأعطيات ...

أما المهمة الموكولة الى ابطال تلك العصابات فكانت حماية رجال السياسة المتمتعين بعطف فورد ، وإمداد « دائرة الخدمة المدنية » بما تحتاج اليه من القوى البشرية، والتنكيل بالعمال الذين تسوّل لهم أنفسهم الانضواء تحت لواء نقابة من النقابات،او اتحاد

من الاتحادات ...

ففي ٢٦ آذار سنة ١٩٣٧ قصد مندوبون عن « اتحاد عمـال السيارات » الى ديربورن ، بعد ان استجازوا سلطات المدينة في ذلك ، لكي يوزعوا كراريس الاتحاد على ابواب مصانع ريفر روج ، فوجدوا عند مداخل المصنع جماعة من مجنّدي « دائرة الخدمة المدنية » تصدّهم عن سبيلهم ...

وصرخ احد هؤلاء المجندين : « هذه ممتلكات فورد ، فحذار ان تقربوها ! »

ولم يكد مندوبو الاتحاد يعودون ادراجهم حتى هاجمهم مجنّدو هيربرت بينيت من خِلاف .

وقد وصف ريموند سانفورد Sanford ، احد قسيسي شيكاغو ، وكان من شهود الحادث ، الهجوم الذي شنّه عملاء فورد على ريتشرد فرانكنشتين Frankensteen رئيس لجنة « اتحاد عمال السيارات » في مصانع فورد فقال :

« لقد أمسك بعضهم برجله اليمنى ، وأمسك بعضهم برجـله اليسرى ، ثم امسك غيرهم بيديه واخذوا يباعدون ما بين رجليه ويلوون جسده في قسوةٍ وعنف ... وعندئذ أقبل نفر آخرون فأنشأوا يرفسونه عـلى أصل فخذه وعلى كليته اليسرى وما حول رأسه ويطأون بطنه بأعقابهم وطأً شديداً . »

ومن عجبٍ ان رجال شرطة ديربورن لم يتدخلوا لأنقاذ مندوبي اتحاد العمال على الرغم من ان هؤلاء المندوبين كانوا يوزعون كراريسهم خارجَ الحرم الفوردي ... فقد ضُرِبَ وليم ميرّيويذر

Merriweather ، احد اعضاء الاتحـــاد ، بهراوة طرحَتْه ارضاً ، وهاجمته ثُلّة من مجندي « ادارة الخدمة المدنية » صائحـــة : « اقتلوه ... هشّموا رأسه ... » وقد وجد الاطباء الذين فحصوا وليم ميرّيويذر، في ما بعد، ان مستأجَري بينيت كسروا عموده الفقري ، فهو منذ اليوم معدودٌ في العاجزين ...

•

وفي ربيع ١٩٣٧ علمَ هاري بينيت ان الاتحاد الدولي لعمال السيارات في أميركة على وشك القيام بحملة دعاوية واسعة بين عمال مصنع فورد لتجميع السيارات في دالاس Dallas من اعمال ولاية تكساس Taxas .

وكان مصنع دالاس لتجميع السيارات واحداً من ستة عشر مصنعاً للتجميع يملكها هنري فورد في الولايات المتحدة . وإذْ كان انضواء العمال القائمين بأعباء مصنع من هذه المصانع تحت راية الاتحاد العام يشكل سابقة خطرة تشجّع عمال المصانع الأخرى على التشبّه بهم ، فقد وجه بينيت رجلًا من أقدر الرجال وامرّهم عوداً ، واسمه وارن وورلي Worley الى دالاس ليقطع الطريق على البـلاء الذي يوشك ان ينقضّ ...

ولم يكد وورلي يصل الى مصنع دالاس ، حتى دعا رودولف راتلاند Rutland رئيس شعبة « الخدمة المدنية » في المصنع ، كبار رجاله الى الاجتماع برسول المستر بينيت . وفي الحال رسمَ وورلي وراتلاند خطة للردّ على حملة اتحاد عمال السيارات الاميركي ...

ووُضع بيري Perry ، وهو سفاح ضخم كان من قبل مصارعاً

يزن ٢٣٠ رطلاً، على رأس شرذمة من السفاكين الاشداء، فاختار لمعاونته ملاكماً قديماً يدعى بارتو هيل Hill ومجرماً سابقاً يدعى بيفل Bevill وكانت الشرذمة كلها تتألف من اربعين مجرماً وسفاكاً محترفاً، مزوّدين باسلحة وافرة، مختلفة الضروب والالوان.

ونظم بيري فرق استطلاع بثّها في ارجاء دالاس كلها، فهي تختلف الى محطات القُطُر والاوتوبيس والى الفنادق بحثاً عن مندوبي اتحاد العمال ... حتى اذا عثر رجالها على أحـد هؤلاء المندوبين اتصلوا ببيري، وعندئذ تنشط شرذمة السفاكين للعمل ...

وفي ٢٣ حزيران وصل الى دالاس احد موظفي اتحاد عمال السيارات الاميركي، واسمه بارون دي لويس De Louis، يصحبه ليونارد غوامبلهايم Guempelheim عضو اللجنـة التنفيذية لفرع الاتحاد في كانساس Kansas. وقبلَ ان يسجل الرجلان اسميهما في فندق دالاس الجديد عَرف بيري بوجودهما في المدينة.

وفي ذلك اليوم نفسه، بينما كان دي لويس وغوامبلهايم يتناولان طعام الغداء، في احد المطاعم، برزلهما بيري فضرب دي لويس بجمع كفه ضربة طرحته الى الوراء فوق المشرب. ثم ارتدّ هو واعوانه الى غوامبلهايم، فأوسعوه ضرباً وركلاً وقالوا له: «الآن تستطيع ان تغادر مع زميلك ذاك هذه المدينة، ولكن حذار ان ترجعا اليها كرة اخرى!»

وفي مدى ستة اشهر انقضت على وصول وارن ووورلي إلى دالاس وُفّقت شرذمة بيري المسلحة الى الاعتداء على خمسين عضواً من اعضاء الاتحاد، أو اختطافهم أو اخراجهم الى ظاهر المدينة حيث كانوا يُجلدون بالسياط، وتُعبّد اجسادهم بالقطران، ويمثّل

بهم تمثيلاً مريعاً. وهكذا ساد المصنع جوّ من الريبة والذعر، فاذا بالعمال لا يجرأون على مجرّد الكلام في موضوع الاتحادات، واذا بجميع الجهود التي بذلت لضم عمال مصنع فورد في دالاس الى الاتحاد العام تُمنى باخفاق ذريع.

حتى إذا اطلت سنه ١٩٤٠ اتهم المجلس القومي لشؤون العمل شركة فورد للسيارات بخرق احكام قانون العمل في مصانعها القائمة بدالاس.

وكشف التحقيق الذي أُجري في دالاس، من ٢٦ شباط الى ٢٨ اذار ١٩٤٠ النقاب عن قصة الحملة التي شنتها إدارة مصانع دالاس على اتحاد النقابات والاتحاديين من العمال. وقد شهد ضدّ فورد، في هذا التحقيق، نفر كبير من جواسيس شركته السابقين وسفاحية المجرمين، حتى لقد استغرقت شهاداتهم جميعاً إضبارات تنطوي على ٤٢٥٨ صفحة كبيرة ...

واليك طرفاً من شهادة بيري، رأس شرمذة السفاحين التي كانت شركة فورد تستخدمها للتنكيل بمندوبي اتحاد العمال:

س. وما تفعلون بهم بعد ذلك؟

ج. كنا نجلدهم و نوسعهم ضرباً ...

س. بماذا كنتم تضربونهم؟

ج. كان بعضنا يضربهم بجمع كفه، وكان بعضنا الاخر يضربهم بالهراوات الغليظة.

اما اكثر الشهادات إثارة للشجن فتلك التي اذلى بها آرتشي لويس، وهو بائع مطافيء عُرف في دالاس بحماسته لنقابات العمال.

فقد روى آرتشي كيف اثارت حماسته هذه حفيظة « دائرة الخدمة المدنية » في مؤسسة فورد ، وكيف هاجم سفاحو فورد اخاه ، وهم يحسبونه هو ، فقد كانا توأمين ، وطفقوا يجلدونه بهراواتهم على رأسه ويرفسونه بأعقابهم على معدته في غير ما رحمة ولا استبقاء .

ثم صوّر آرتشي تردّد اخيه ، بعد ذلك الحادث ، بين الموت والحياة ، طوال عدة شهور ؛ حتى اذا أشرف على الهلاك ، آخر الامر ، التفت الى آرتشي وقال له : « انت تعلم انهم قتلوني خطأ ، وهم يحسبون انني انت ... ! »

ودافع محامو فورد عن فورد دفاعاً فريداً . فقد زعموا ان عماله كانوا « يخافون » أن « يغزو » مندوبو اتحاد العمال مصانع دالاس ، فالتمسوا « الحماية » من العصابات المنظمة ...

ولكن الادلة كلهـا كانت تدين المستر فورد بخرق احكام قانون العمل ؛ من اجل ذلك اصدر المجلس القومي لشؤون العمل حكمه القاضي بأن تقلع الشركة عن تلك التصرفـات البشعة ، وبأن تعيد الى مصانعها جميع اولئك العمال الذين فصلوا بسبب من نشاطهم النقابي ...

•

وفي غرّة نيسان ١٩٤١ بلغت ثورة العمال في امبراطورية فورد ذروتها . ذلك بأن بينيت كان قد امر بفصل جميع العمال النقابيين من مصانع ريفر روج ، فهاج العمال وماجوا وغادروا آلاتهم معلنين الاضراب العام .

وفي اليوم التالي صرّح هاري بينيت بأنه غير مستعدّ لدرس

Riad Nassar Library

الازمة مع ممثلي اتحاد العمال ، وقال : « انها خطة شيوعية مرسومة ومحاولة الى خلق حالةٍ ثورية تمكن الشيوعيين من اقامة ديكتاتورية البروليتاريا ... »

ولجأ بينيت ، خلال الاربع والعشرين الساعة التالية ، الى اصطناع طريقة بائسة لفكّ الاضراب . فقد شرع يهرّب جماعةً من مفسدي الاضرابات الزنوج الى مصانع ريفر روج ابتغاء إثارة الاضرابات العرقية من ناحية ، وتشويه وجه الاضراب في عين الرأي العام من ناحية ثانية . فكان بينيت يشجع اولئك الزنوج على صنع المدى وغيرها من اسلحة الاجرام داخل جدران المصنع ، وكان رجاله يغرونهم بمهاجمة العمال البيض بذلك السلاح ...

ولولا يقظة كبار المسؤولين في اتحاد عمال السيارات وحكمة الجالية الزنجية في ديترويت لشهدت المدينة كارثـة من أدهى الكوارث واقبحها . فقد اوعز الاتحاد الى اعضائه بتفادي الاصطدام بمفسدي الاضراب مهما كلف الامر ، وهرع وجوه المواطنين الزنوج الى ريفر روج ووجهوا نداء الى ابناء جلدتهم — بواسطة مكبرات الصوت — دَعوْهم فيه الى مغادرة المصانع .

وغادر مفسدو الاضراب اماكنهم افواجاً اثر افواج ...

وبدت مصانع ريفر روج اشبه ما تكون بالمدينة المهجورة .. كانت ابنيتها الضخمة ساكنة فارغة ، وكانت طرقها الطويـلة مشوقةً الى سيارة واحدة تجري عليها ، وكانت سفنها الضخمة قابعة في احواضها وكأن على رأسها الطير !

وفي ٤ نيسان اعلنت شركة فورد اضطرارهـا الى اغلاق

مصانعها الستة عشر الخاصة بتجميع السيارات ، بسبب من أزمة القطَع الناشئة عن اضراب العمال في مصانع ريفر روج .

وفي ٨ نيسان دخل هاري بينيت في مفـاوضات مع زعمـاء اتحاد العمال ...

وبعد ثلاثة ايام أقرت شركة فورد رفع اجور عمالهـا الى المستوى الذي بلغته اجور العمال في مصانع السيارات الاميركية الاخرى ، واعترفت بحق اتحاد العمال في ان يكون لساناً ينطق باسم أعضائه العاملين في مصانع فورد ...

وتشاء المصادفة ان يخفت الصراع بين العمال وهنري فورد في الوقت المناسب ...

فبعد خمسة اشهر ونصف دخلت الولايات المتحدة الاميركية الحرب ضد المحور .

٦ . مجازر في الغرب الأوسط

•

« اننا نعتبر هـذه الحقائق بدهية : أن الافراد جميعاً خلقوا متساوين ، وقد منحهم خالقهم حقوقاً معينة غير قابلة الانتزاع . ومن هـذه الحقوق حق الحياة ، وحق الحرية ، وحق الناس السعادة ... »

لائحة اعلان الاستقلال ،
٤ تموز سنة ١٧٧٦

لم تشهد الولايات المتحدة ، في ما شهدته من مئات المنظمات الفاشيّة خلال العقد الرابع من هـذا القرن ، منظمة اقترفت من الجرائم المروّعة اكثر مما اقترفت « الفرقة السوداء » ، وهي جمعية سرية كان أعضاؤها يلبسون أردية سوداء ويعتمرون قبعات مستطيلة وُسِمَت كل منها بجمجمة وعظمتين متعارضتين . والحق ان هذه العصابة فرضت حكماً من الارهاب شمل ميشيغان وإنديانا وأوهيو وغيرها من ولايات الغرب الاوسط ، طوال اربع سنوات كوامل (١٩٣٢ – ١٩٣٦) ؛ فكانت تضرم النار في البيوت ، وتلقي القنابل على مراكز النقابات ، وتروّع السكان الآمنين ، وتقتل

الافراد وتمثل بهم .

واتبعت « الفرقة السوداء » في تنظيمها ، القاعدة العسكرية ، فكان أعضاؤها يقسمون الى « كتائب » تعمل كل منها بقيادة « زعيم » او « رئيس » . ولكي تقوم الفرقة بما تهدف اليه من تفريق اجتماعات العمال ، واضرام النيران في الابنية ، وجلد العمال النقابيين او قتلهم فقد انشأت شراذم خاصة لهذه الاغراض . فشرذمة لمحاربة الشيوعية ، وشرذمة لالقاء القنابل ، وشرذمة لاحراق البيوت ، وشرذمة لانزال العقاب ، وشرذمة للقتل والاعدام . وكان اعضاؤها يقسمون الايمان المغلّظة على ان يطيعوا رؤساءهم طاعة عمياء ، ويصونوا أسرار الفرقة مهما كلف الامر ، حتى اذا حنث احدهم بيمينه أورد موارد التعذيب او الموت جزاءً وفاقاً .

وكانت حفلات الانتساب الى الفرقة تقام تحت جنح الظلام ، في الأقبية الموحشة حيناً ، وفي الغابات النائية حيناً آخر . وكان يطلب الى كل داخل في الفرقة ان يركع وسط حلقة من كبار الاعضاء ذوي الأردية السود ، ويقسم يمين الولاء للفرقة السوداء ، والمسدس المشحون يَضغط على صدره ضغطاً محكماً ... وفي جملة « الأسرار » التي تُكشف للداخل ، ساعتئذ ، هذا السرّ :

« نحن نعتبر جميع الاجانب وجميع الزنوج وكل من يؤمن بالمساواة العرقية اعداء لانفسنا ولبلادنا » .

ولا تكاد هذه الحفلة الرهيبة تنتهي حتى يعطى كل من الاعضاء الجدد رصاصة مسدس من نوع كاليبر ٣٨ و٠ ، وينبأ بأنه سيعطى « رصاصة اخرى » اذا ما أفشى أسرار الفرقة ...

واتخذت الفرقة السوداء من ميشيغان معقلاً لها ، حيث بلغت نسبة البطالة حدّها الأعلى اثناء الازمة المالية التي اجتاحت اميركة في سنوات الثلاثين . حتى اذا دخلت سنة ١٩٣٥ كان اعضاء الفرقة في ميشيغان قد بلغوا عشرات الآلاف ، وكان جهازها السرّي قد سرى ، وكأنه السرطان الخبيث ، في حياة الولاية الصناعية والسياسية جميعاً .

وغصت المصانع بالعمال المنتسبين الى الفرقة السوداء ، وانتظمت الدرجات العليا من الفرقة نفراً من كبار موظفي المدينة ومشترعيها وقضاتها وتجارها وضباط البوليس فيها . وقد أوردت صحيفة « نيويورك تايمس » في بعض اعدادها المتأخرة « ان الاموال كانت تجمع لتدعيم صندوق الفرقة في كنيستين من كنائس ديترويت على الاقل . وقد انخرط في سلك هذه المنظمة عدد غير قليل من رجال السياسة طمعاً في كسب الاصوات الانتخابية ... »

وقامت الفرقة السوداء بنشاطها المناوىء للحركة العمالية ، شأن سائر المنظمات الفاشيّة في اميركة ، باسم النضال ضد « الخطر الشيوعي » . فأعدت قوائم بالعمال « الحمر » الخطرين وبجميع « العاطفين » على الحركة التقدمية ، لتنتقم منهم في اللحظة المناسبة .

وكان من بين الاسماء التي ضمتها قوائم الفرقة اسم محامي العمال الشهير موريس شوكر Sugar ، فلما حان وقت الانتقام منه عهد زعماء المنظمة الى احد الاعضاء ، ديتون دين Dean ، في نسف منزله . فما كان من « دين » هذا إلا ان استأجر جناحاً في البناء الذي يقطن فيه شوكر ، ولكنه عجز عن المضي في المهمة الموكولة اليه ، حتى

اذا سئل عن سرّ ذلك في ما بعد قال : « لقد ارتعدت فرائصي حين ذكرت ان نسف البناء سيودي بحياة كثير من الناس ! »

ولكنّ يقظة الضمير هذه ما كانت لتدرك « شراذم النسف » المخصوصة ، فكانت بيوت الزعماء النقابيين تُنسَف او تحرق في مدينة بعد أخرى ، بايدي اعضاء الفرقة السوداء ، وكانت مكاتب الحزب الشيوعي والجمعيات التقدمية تلقى المصير نفسه في كثير من الأحيان .

وكان اعضاء الفرقة السوداء يقترفون جرائم القتل ، في بعض الأحيان، اشباعاً لشهوة القتل ليس غير . وقد وصف ديتون دين مرة ، جريمة من هذا الضرب وقعت في نوار سنة ١٩٣٥ فقال :

زارني هارفي ديفيس Davis ، احد زعماء الفرقة السوداء يوماً ، وفيمانحن تتجاذب اطراف الحديث سألني هارفي ما اذا كنت استطيع ان آتيه بِضُحكةٍ * من الزنوج ...

وحين ابديت استغرابي لذلك قال انه سيقيم مع جماعة من الرفاق حفلةً سامرةً عند البحيرة ، وانهم في حاجة الى قليل من العبث يجلون به صدأ نفوسهم . وقد أجمعوا امرهم على ان يصطحبوا في هذه الحفلة زنجياً يتندّرون عليه ثم يقتلونه رمياً بالرصاص ، فقد كان الكولونيل ديفيس يريد ان يختبر بنفسه أيّ شعور يستحوذ على المرء حين يصوّب الرصاص الى صدر زنجيّ ...

عندئذ اتصلت بتشارلي روس Rouse فقال ان طِلبتنا في حوزته وهو زنجيّ يعمل عنده بأجرٍ ، وهكذا اتخذنا جميع الترتيبات مع

* الضحكة (بسكون الحاء) : من يضحك عليه الناس .

ديفيس ... »

وكان الزنجي المختار عاملاً في الثانية والاربعين من عمره يدعى سيلاس كولمان Coleman . وبعد ان أوهمه المتآمرون ان سيّده راغب في ان يدفع اليه ما تأخر من اجوره ، حملوه تحت جُنح الظلام الى نُزُل صيفيّ قائمٍ في ظاهر مدينة ديترويت ، حيث كان هارفي ديفيس وعدد من زعماء الفرقة السوداء يعاقرون بنت الحان ، مع زوجاتهم . حتى اذا بلغ كولمان النُزُل اصطحبه رجال الفرقة الى مستنقع مجاور . واليك ما حصل هناك ننقله من كلام ديتون نفسه :

« ... ثم ان الرجل الملوّن اتجه نحو مؤخرة السيارة متسائلًا ما الذي كنا نعمله هناك ، فلم يكد وجهه يقع على وجوهنا حتى شهر ديفيس مسدّسه واطلق منه بعض العيارات النارية . وحاول الزنجي ان ينطق بكلام ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلًا ، فقد مزّق الرصاص رئتيه ، ولم يدع له ما يقول غير كلمة آه ...

واطلق سيلاس العنان لرجليه وكأنه الوعل ، فلحق به الرفاق وهم يتصايحون : « لا تدعوه يُفلت ، لا تدعوه يُفلت ! » ويفرغون رصاص مسدساتهم في قفاه ...

ثم اننا رجعنا الى سياراتنا وقفلنا عائدين الى النُزُل . وهناك قدموا اليّ والى تشارلي روس زجاجة من الجعة فاحتسيناها وانقلبنا الى ديترويت . اما هم فأقاموا في ذلك المكان وواصلوا سمرهم الصاخب ... »

وفي ما بعد ، عُثر على جثة كولمان ، في احدى الغابات ، وقد

احالها الرصاص المتراكب الى ما يُشبه الغربال.

ومن عجب ان معظم الجرائم التي اقترفهاأعضاء الفرقة السوداء لم تَحظ من رجال الامن بما تستحقه من اهتمام، فكانوا يجتزئون بتدوينها، في سجلاتهم، بوصفها جرائم «لم يُكشف عنها النقاب بعد». وقد صرّح الكابتن إيرا مارمون Marmon، من شرطة ولاية ميشيغان، بان خمسين حادثة من حوادث «الانتحار» الغامضة التي وقعت في ميشيغان خلال السنوات ١٩٣٣ - ١٩٣٦ كانت من عمل الفرقة السوداء وتدبيرها ...

وفي صيف سنة ١٩٣٦، وبعد سلسلة موصولة الحلقات من الجرائم المروّعة التي اهتزت لهاالولاية، اضطرّت سلطات ميشيغان المحلية الى ان تفتح باب التحقيق في اعمال الفرقة السوداء وآثامها. فاعتُقِلَ احد عشر عضواً من اعضائها بتهمة الاشتراك بقتل تشارلز بول Poole؛ وبعد محاكمة مثيرة اصدر القضاء حكمه عليهم بالسجن مدى الحياة ...

وفي واشنطون قدّم عضو الشيوخ، ألمر بنسون Benson، اقتراحاً الى المجلس يقضي بأن تفتح الحكومة الاتحادية تحقيقاً في فظائع الفرقة السوداء.

وفي ٢٨ نوار سنة ١٩٣٦ أعلن النائب العام، هومر كومنجز Cummings أن وزارة العدل كانت «على علم بتصرّفات الفرقة السوداء منذ سنة تقريباً»، ولكن تدخّل الوزارة كان متعذراً لأن هذه التصرفات «لا تشكل خرقاً لايما قانون من قوانين الاتحاد»!

القسم الثالث

«ديوان التفتيش» الحديث ...

Riyad Nassar Library

٧ : نهاية « المسلك الجديد »

●

« والواقع أنه إذا ما قدر لقوى الرجعة أن تفوز آخر الامر ، فليس من شك في أننا سنستسلم لروح الفاشيّة ههنا في الوطن، على الرغم من قهرنا الاعداء في ميادين القتال القائمة في ما وراء البحار . »

الرئيس فرانكلن روزفلت
١١ كانون الثاني ، ١٩٤٤

« أ » تراث الحرب

لقد قضى عشرون مليوناً من المحاربين ، في الميدان ، ولقي عشرات الملايين من الرجال والنساء والأطفال حتفهم بسببٍ من الجوع والمرض، ومن معسكرات الاعتقال وغرف الموت. وحيث قامت في السنوات السوابق مدنٌ طبّقت شهرة جمالها الآفاق ، تترامى اليومَ خطوط لا نهاية لها من هيا كل الأبنية المهدومة ، وترتفع جبال من الأنقاض المركومة ...

فهل تكشّفت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية عن عالم

أفضل يتمتع ابناؤه بالسلم والأمن والطمأنينة ؟

•

كانت منظمة الامم المتحدة تشكل حجرَ الزاوية في بناء السلم العالمي، وكان نجاح هذه المنظمة رهناً، كما هو معروف، بالاحتفاظ بذلك التحالف الوثيق الذي جمع خلال سنوات الحرب الاخيرة، ما بين الديموقراطيات الغربية والاتحاد السوفياتي .

ولكنّ القوى الرجعية، على جانبي الاطلسي، لم يكن لها غير مصلحة ضئيلة في الاحتفاظ بذلك التحالف مُحكَمَ الاواصر، وثيق العرى . كان من همها في المحل الاول، شأنها بُعيْد الحرب العالمية الاولى، أن تحمي مصالحها الرأسمالية، وان تكسر من حدة المدّ الديموقراطيّ العارم، وتمكّن للنظام العتيق البالي، في الأرض . وهكذا انطلقت الصيحة الرجعية من جديد داعيةً الى شنّ صليبية دولية لا تبقي ولا تذر، ضد الشيوعية .

والحق انه لم يكد تمضي على النصر الذي تم للحلفاء في اوروبة ستة أشهر ليس غير حتى اكتشف ونستون تشرشل «خطر البلشفية» كرّة اخرى . فدعا في خطاب ألقاه في الولايات المتحدة، يوم الخامس من آذار سنة ١٩٤٦، الى ان تعقد الولايات المتحدة وبريطانية العظمى حلفاً «يقي الحضارة المسيحية خطر الشيوعية الروسية المستفحل ...»

وإنما ألقي خطاب تشرشل المثير هذا بمناسبة منحه رتبة فخرية من كلية وستمنستر Westminister في فولتون Fulton، ميزوري Missouri وهي كلية مغمورة تقع على مبعدة ١٥٠ ميلاً من بلدة

انديباندنس Independence مسقط رأس ترومان . ومن عجب ان الرئيس الذي اطلع على الخطاب قبل إلقائه، شهد ذلك الاحتفال مع من شهده من رجال الدولة الاميركيين .

والواقع ان ترومان كان قد حذّر، عقب فوزه بالرئاسة الاولى، من مغبة الاختلاف بين الامم المتحدة . ولكنه ما كاد يتولى أزمة الحكم حتى اصطنع رجال حكومته سياسة من شأنها نسف الجسور القائمة بين هذه الامم وتعريض وحدتها لأشد الخطر .

وانما انشقّت الامم المتحدة، أول ما انشقت، على نفسها في مؤتمر سان فرانسيسكو، المنعقد صيف سنة ١٩٤٥، وكانت القضية التي نشأ من اجلها الخلاف تتلخص في ما اذا كان من الخير ان تدعى الارجنتين للاشتراك في المؤتمر، لتصبح بعدُ عضواً في هيئة الأمم المتحدة، أم لا ؟ فأما مندوبو الولايات المتحدة وبريطانية فنادوا بضرورة الدعوة، واما مندوب الاتحاد السوفياتي فعارض فيها . واخيراً فازت وجهة النظر الغربية على وجهة النظر السوفياتية، وغدت الارجنتين في عداد الامم المتحدة .

وواضح ان الهدف الاسمى الذي عملت الامم المتحدة بسبيل تحقيقه كان القضاء على الفاشيّة في العالم قضاءً كاملاً . ولكن نضال الولايات المتحدة وبريطانية لأقحام الارجنتين في مؤتمر سان فرنسيسكو كان ينطوي على تأييد، لا على معارضة، لقضية دولة فاشيّة اعترفت الحكومة الاميركية نفسها بصفتها النازية في الكتاب الازرق الذي اصدرته عن الارجنتين . وهكذا دشنت الدولتان الغربيتان الكبيرتان «سياسة المخاشنة» مع الروسيا ..

وفي خلال الاشهر التي تلت قُدّر لهذه السياسة ان تصبح هي القاعدة التي تقوم على أساسها مسالك الحكومتين البريطانيـة والاميركية جميعاً .

•

ولم يتجلّ خروج الدولتين الغربيتين خروجاً سافراً على مبادىء الامم المتحدة الرئيسية ، في مكانٍ ما ، بقدْر ما تجلى في السياسة التي اتبعتاها نحو عدوتهما الكبرى : ألمانية .

فبعد انقضاء بضعة أشهر على استسلام النازيين كانت وحدات من الجيش الالماني يبلغ عددها نصف مليون رجل تقريباً لاتزال سليمة لم تُمَس في منطقة الاحتلال البريطاني من ألمانيـة . وفي منطقة الاحتلال الاميركية كان الجيش الاميركي يسلح آلافاً من الجنود الفاشيين البولنـديين واليوغوسلافيين والاوكرانيين الذين حاربوا الى جانب النازيين في الجبهة الشرقية ...

ليس هذا فحسب، بل لقد عمل البريطانيون والاميركيون، بُعَيد الهدنة مباشرة، على إنعاش الصناعة الالمانية وتضميد جراحاتها، على ما يؤخـذ من تحذير أطلقه آنذاك الشيخ هارلي كيلجور Kilgore ، رئيس اللجنة الفرعية المنبثقة عن لجنة الشؤون العسكرية في مجلس الشيوخ الاميركي . وفي مطلع نوار سنة ١٩٤٦ ألقى وزير المالية السابق ، هنري مورغانتاو Morgenthau خطاباً من وراء المذياع شجب فيه سياسة مستر بيرنز الخارجية في ما يتصل بألمانية وقال: «اذا كان مستر بيرنز يبتغي ان يخرق احكام ميثاق

بوتسدام ... فعندئـذ أجيز لنفسي ان أتنبأ بأننا سوف نكرّر أخطاء فرساي الفاضحة ، ونضع الاساس لحرب عالمية ثالثة . »

وفي ١١ أيـلول أبرق ادوين هارترتش Hartrich مراسـل « نيويورك هرالد تريبيون » من ألمانية، يقول : « لقد غدا رجال الاعمال والصناعيون الالمان مقتنعين احسن الاقتناع بان اميركة وبريطانية عازمتان على تقوية ألمانية الغربية لتقف في وجه الروس في ألمانية الشرقية . »

ولم يؤدّ حلول الجنرال مارشال محل جيمس بيرنز كوزير للخارجية الاميركية ، في كانون الثاني ١٩٤٧ ، الى أيما تبدل في سياسة الولايات المتحدة الخارجية . فما هي الا فترة قصيرة حتى صرّح وكيل وزارة الخارجية ، دين اتشيسون ، امام الصحفيين بقوله :

« ينبغي ان نسارع الى إعادة تشييد داريْ الصناعة العظيمتين اللتين لم تعرف اوروبة وآسية لهما ضريباً، أعني المانية واليابان... ويتعين علينا ان نقوم ، في الحال ، بكل خطوة ممكنة ، ولو لم توافق على ذلك الدول الاربع الكبرى كلها ، في سبيل انعاش أوروبة ، ومن ضمنها المانية نفسها . * »

وفي الشرق الأقصى ، كما في اوروبة، سارت «سياسة المخاشنة» هذه جنباً الى جنبٍ مع تألف العسكريين والرجعيين ومَدّهم بكل عونٍ مستطاع .

فبُعَيْد استسلام اليابان أخذ الجيش الاميركي في الصين يدرّب

* في ٧ كانون الثاني ١٩٤٩ عين دين أتشيسون وزيراً للخارجية .

ويسلح اربعين فرقة من قوات الكيومنتاغ يبلغ عدد افرادها اكثر من سبعمائة الف رجل ، أي ضِعفْ عـــدد الجنود الذين درّبهم الجيش الاميركي وسلحهم خلال الحرب العالمية الثانية بطولها. وفيما كان الجنرالسّيمو تشيانغ كاي شك يكافح يائساً للابقاء على نظامه الأقطاعي المتفسّخ ، منحت حكومة ترومان الكومنتاغ قروضاً تزيد قيمتها على ٦٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار لشراء فضول الاسلحة الاميركية في جزائر المحيط الهادىء . ولم تدخل سنة ١٩٤٧ حتى كانت قيمة العتاد الحربي الاميركي وغيره من ضروب العون المقدّمة الى تشيانغ كاي شيك قد أنافت على اربعة مليارات دولار .

ومنذ ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ حذّر عضو الشيوخ هيوغ دي لاسي De Lacey الأمة من سياسة ترومان في الشرق الاقصى قائلاً إنها « تمثل منطق رجال المال والاعمال الكبار الطامعين في استغلال القارة الآسيوية استغلالاً لا يعرف الحدود والقيود. انها تمثل منطق الاستعمار الدولاري ؛ منطق حرب عالمية جديدة تُشنّ ، هذه المرة ، على الاتحاد السوفياتي ، من قواعد عسكرية ضخمة في المحيط الهادىء ، ومن اليابان ، ومن القواعد التي يسيطر عليها أعداء السوفيات في شمالي الصين ... »

وأعلن دي لاسي ، آخر الامر ، ان مواصلة هذه السياسة خليقة بأن تجعل « الحرب الاهلية في الصين ، امراً محتوماً ... » *

* لم يطل صيف ١٩٤٦ حتى اندلعت نيران الحرب الاهلية في الصين . وإذ كان الشيوعيون باديء الامر أقلية يقتصر سلطانها على بضع ولايات في الصين الشمالية فقد أوقعت بهم قوات تشانغ كاي شيك المسلحة تسلحاً حسناً .

وفي ١٢ آذار سنة ١٩٤٧ بلغت سياسة المخاشنة الغربية للاتحاد السوفياتي أوجها التاريخي. ففي ذلك اليوم وقف الرئيس ترومان في جلسة مشتركة عقدها الكونغرس وألقى خطاباً خطيراً طالب فيه بأقراض الحكومتين اليونانية والتركية اربعمائة مليون دولار وبتقديم العون العسكريّ اليهما ...

وأحدَثَ هذا الخطابُ ضجة مدوّية في طول البلاد وعرضها. فوصفته صحيفة «تشيكاغو دايلي نيوز» بقولها انه « دعوة صريحة الى الحرب » مع الاتحاد السوفياتي . وصرّح نائب الرئيس السابق ، •

بيد انهم ما عتموا ان انتقلوا ، بعد عامين اثنين ، من الدفاع الى الهجوم. وفي تشرين الاول سنة ١٩٤٨ سقطت موكدن Mukden اعظم مـــدن منشوريا الصناعية ، في يد الجيش الاحمر الصيني . وفي الاشهر الاثني عشر التالية اشتدت وطأة الهجوم الشيوعي على القوات الوطنية ، وتساقطت بيبنغ Peiping ونانكنغ Nanking وشانغهـــاي ، وكانتون ، وتشونجكنغ Chungking في سهولة ويسر ، بأيدى قوات ماوتسي تونغ Mao Tse - tung العارمة .

وفي ٩ كانون الاول سنة ١٩٤٩ احتلت القوات الشيوعية تشانغتو Chengtu آخر معقل من معاقل القوات الوطنية ، وبلغت حدود الهند الصينية . وهكذا استولى الشيوعيون على بلاد الصين برمتها (ويبلغ عدد سكانها ٤٧٠،٠٠٠،٠٠٠ نسمة ، أي نحو ربع سكان العالم اجمع) باستثناء جزيرة فورموزا التي لجـأ اليها فلول تشانغ كاي شيك .

وفي آب ١٩٤٩ اعلن وزير الخارجية دين اتشيسون في رســالة قدمها الى الرئيس بين يدي الكتاب الابيض الذي اعدته وزارة الخارجية الاميركية عن العلاقات الاميركية الصينية ان « النتيجة المشؤومة التي انتهت اليها الحرب الاهلية في الصين كانت امراً لا قبل للولايات المتحدة بدفعه .» ثم اضاف : « لقد بذلت الولايات المتحدة غاية الجهد لتحويل مجرى الحرب ، ولم تدع شيئاً تتوسل بـه الى ذلك الا فعلته » ، ولكن جهودها كلها ذهبت ادراج الرياح .

Riyad Nassar Library

هنري والاس Wallace ، وكان قد أُخرج من منصبه كوزير للتجارة بسبب من معارضته لسياسة ترومان الخارجية ، بقوله : « عندما يدشن الرئيس ترومان الصراع العالمي بين الشرق والغرب ، فكأنه يقول للزعماء السوفيات إننا نعدّ العدة لحرب جديدة ... »

وعلقت مجلة « تايم » على الخطاب بقولها :

« لقد كان صوت الخطاب العالي يتحدث كله عن اليونان وتركية ، ولكنّ الهمسات المنبعثة من وراء الخطاب كانت عن أوقيانوس الزيت القائم الى الجنوب .

« فبينما كانت الولايات المتحدة تستعدّ للقيام بخطوتها التاريخية ، انتهت مجموعة جبارة من شركات الزيت الاميركية الى قرار تاريخي . وبموافقة الحكومتين الاميركية والبريطانية الضمنية عقدت تلك الشركات سلسلةً من الاتفاقات الضخمة لاستغـلال ذلك الاوقيانوس الزيتي الى ابعد مدى ... كانت شركة ستاندرد أويل اوف نيو جيرزي عازمة على ان تنفق هي وأحلافها ثلاثمائة مليون دولار أو يزيد ، في بلاد الشرق الاوسط المضطربة ، لأنقاذ تلك المشروعات . »

وكتب رالف هندرسون Henderson ، المحرر المالي لصحيفة « نيويورك وورلد تلغرام » يقول : « ان في ذلك لما يساعد على خلق حالة اكثر ضماناً وأوفر ربحاً بالنسبة الى اصحاب الرساميل ، وإنه لنبأ سارّ على كل حال . »

« ب » عودة هربرت هوفر

لم يكن قد انقضى شهران على وفاة فرانكلين روزفلت عندما

Riyad Nassar Library

دخل هربرت هوفر ، صباح ٢٨ نوار ١٩٤٥ ، البيت الابيض للمرة الاولى ، منذ اثنتي عشرة سنة .

ووصلَ هوفر قبل بضع دقائق من الموعد الذي ضربه الرئيس ترومان لمقابلته . وفيما كان ينتظر حلول ذلك الموعد طفق يجوس خلال بعض الغرف التي حرمت عيناه رؤيتها منذ شهر نوار ١٩٣٣ !

كان الرئيس السابق قد بلغ السبعين ، الآن ، وكان شعره الأشيب قليلاً متفرقاً ، وكان وجهه متغضناً متجعداً . ولكـــن هوفر استشعر ، كما زعم الصحفي سيدني شاليت Shallet بعد اشهر قليلة ، انه غدا منذ اليوم « رجلا جديداً » ..

ودام الاجتماع بين ترومان وهوفر ثلاثة أرباع الساعة ، ثم دعي مصورو الصحف ووكالات الأنباء الى التقاط الرسوم للرجلين وهما يتصافحان ويبتسم كل منهما للآخر ...

وحين غادر هوفر البيت الابيض تجمهر حوله الصحفيون يسألونه : « ماذا بحثت مع الرئيس ؟ » ... فافترّ وجه هوفر عن ابتسامة وقال : « ان لرئيس الجمهورية الحق في ان يعطي تصريحاته الخاصة حول ايما شيء قد يكون قاله لزائريه ، أو قاله زائروه له . وأحسب ان هذا هو قصارى مـا سوف تحصلون عليه مـــني في الوقت الحاضر » .

وفي ٤ حزيران صدرت مجلة « تايم » لتقول : « إن الاشاعات لتصمّ آذان العاصمة ، وكلها يدل على ان هربرت هوفر سيعود الى مركز القيادة ، ولو بوصفه مستشاراً على الأقل ... »

وبعد اجتماع ترومان وهوفر بيومين اثنين لاحظت الصحيفة

الناطقة باسم وول ستريت * Wall Street ، في كثيرٍ من الحماسة :
« ان ايام المسلك الجديد الصليبية ولَّت وانقضت . »

ففيما كان هوفر يزور البيت الابيض كان عددٌ غير يسير من انصار «المسلك الجديد»،وعلى رأسهم ثلاثة من وزراء روزفلت، يُقصون عن مناصبهم ليحلّ محلّهم رجالٌ «ديموقراطيون» بالمعنى الذي كان للكلمة قبل سنة ١٩٣٢ ، وقد ذهبت النشرة الرسمية لاتحاد الصناعيين الوطني ، الصادرة في ٧ تموز ١٩٤٥ ، الى « ان أثر ذلك في الصناعة سوف يكون انخفاضاً كبيراً في الرطوبة الدَّبِقَة التي سادت طوال السنوات الاثنتي عشرة الاخيرة . »

وكان بين « الديموقراطيين ، بمعنى الكلمة المصطنع في ما قبل عام ١٩٣٢ » واللاديموقراطيين بأيما معنىً للكلمة ، الذين تولّوا مناصب رئيسية في حكومة ترومان كلٌ من أفريل هاريمان ، Harriman وزير التجارة ، وروبرت لوفيت Lovett وكيل وزارة الخارجية ، ولويس دوغلاس سفير الولايات المتحدة في بريطانية ، وآرشيبالد ويجينز Wiggins وكيل وزارة المالية ، وغيرهم من كبار المساهمين في مختلف المصارف والشركات والتروستات .

حتى اذا أسندت وزارة الخارجية الى الجنرال مارشال ألحق عددٌ متزايدٌ من رجال الحرب المحترفين بالسلك الديبلوماسي ، وعُهِدَ اليهم في تولي كثير من المناصب الرئيسية في وزارة الخارجية . وما هي إلا فترة حتى صار في ميسور « نشرة الجيش

* حي المال في مدينة نيويورك ، وهو يسيطر على الحياة الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة سيطرة تكاد تكون كاملة . [المعرب]

والاسطول » أن تقول : « إن الجيش صار هو صاحب السيطرة الفعلية على الشؤون الخارجية » ...

وعلّقت صحيفة « الجمهورية الجديدة » (نيو ريبوبليك) على هذا الوضع بقولها: «لقد ترك إقصاء المسلكيين الجدد New Dealers عن الحكومة فراغاً فيها ، فما كان من اصحاب الخوذ الفولاذية ورجال وول ستريت إلا ان اندفعوا ، كما يندفع الهواء ، لملء ذلك الفراغ . »

ولكن كان ثمة فئة ثالثة اندفعت ، هي ايضاً ، لملء الفراغ الذي احدثه إقصاء المسلكيين الجدد. وقد اطلق مراسلو الصحف في واشنطن على هذه الفئة اسم « عصابة ميزّوري » Missouri Gang وكانت تتألف من اصدقاء ترومان القدماء الذين حاربوا الى جانبه في الحرب العالمية الاولى ، والذين قرّبهم الرئيس الجديد بُعيد دخوله البيت الابيض على الرغم من مسالكهم غير المنقبية ، فشكّلوا ما صار يُعرف وشيكاً بـ « وزارة المطبخ » ...
« Kitchen Cabinet »

« ج » السر العظيم

« في اعتقادي ، ان الفاشية الدولية ، على الرغم من هزيمتها في ميدان المعركة ، لا تزال على قيد الحياة ... » هكذا كتب جون روج Rogge المدّعي العام المساعد في مذكرة قدمها الى المدّعي العام في ٢٨ شباط سنة ١٩٤٦ . « لا ، إن الفاشيّة لم تمت في الولايات المتحدة ... وها هي الوجوه القديمة المألوفة

Riyad Nassar Library

توّج ، كرةً اخرى ، للأكاذيب الفاشيّة القديمة المألوفة . »

وكان جورج روج هذا ، ذو الجسم العملاق والوجه الطفلي ، يمثل في حكومة اميركة بعد الحرب ، طائراً ضالاً يحلّق مع سرب غير سربه . كان لا يزال يفكر بلغة « المسلك الجديد » ويتحدث في حماسة عن العدالة الاجتماعية والديموقراطية الحقّ .

وفي ربيع ١٩٤٦ تلقى جون روج من الكابتن سام هاريس Harris عضو اللجنة الاميركية الموفدة الى نورمبرغ للتحقيق في جرائم النازي ، معلومات تكشف الستار عن الروابط الوثيقة التي كانت قائمة بين حكومة هتلر وبعض المواطنين الاميركيين . فما كان من روج الا ان هرع الى مكتب المدعي العام ، توم كلارك Clark وألحّ عليه في ضرورة السماح له بالذهاب الى المانية للاطلاع على البيّنات التي اعتمدها هاريس في ما ذهب اليه من ادّعاء . وعلى الرغم من ان المدعي العام لم يتحمس كثيراً للفكرة فقد اجاز لمساعده ان يفعل ما بدا له .

وطلب روج ان ترافقه الى المانية بعثة مؤلفة من تسعة اعضاء ، ولكن وزارة العدل ضنت عليه بهذا العدد . فاجتزأ بمساعد قضائي ، وبمحققين ، وأميني سرّ ...

وفي ٤ نيسان ، ١٩٤٦ طار روج الى اوروبة .

ومكث روج في المانية احد عشر اسبوعاً ، قضى معظمها في نورمبرغ ومعسكر سيبرت Sibert ، وهو احد مراكز الاستخبارات الاميركية في ألمانية . وهنا استجوب عدداً من متهمي نورمبورغ وعشرات من كبار الموظفين السابقين في الادارة النازية ، وراجع

آلافاً من الاوراق السرية التي اشتملت عليها ملفات وزارة الحرب ووزارة الخارجية ووزارة الدعاية في الحكومة الهتلرية . وفي الحال أدرك المدعي العام المساعد انه يميط اللثام عن مؤامرة هي اضخم جداً ، وأبشع جداً ، مما كان يتوهم بادىء الرأي !

وتحدّث روج ، في ما بعد ، عن مهمته فقال : « لقد أظهرت تحقيقاتنا أننا لم نكن نقدر مدى النشاط النازي في الولايات المتحدة حق قدره . فعندما قصدت الى المانية شعرتُ ان اعظم خطر يتهدّد الديمقراطية الاميركية إنما ينبع من هذه الصلات القائمة بين رجال الصناعة الالمان ورجال الصناعة الاميركيين ، وادركت ان مجموعةً من اشهر الاعلام في اميركة كانت تشارك في المؤامرة النازية ... »

وعندما رجع روج الى واشنطون ، في اواخر حزيران ، كان على مثل اليقين من انه يحمل بينات كافية لأقامة الدعوى على نفر غير يسير من رجال اميركة المعروفين .

وفي حماسة لا تعرف الكلل ، انكبّ روج على إعداد تقرير شامل عن نتائج رحلته الى المانية . وفي اوائل تموز قدم الى النائب العام ، توم كلارك ، نسخة عن القسم الاول من هذا التقرير الخطير .

ولم يكن رَجْعُ النائب العام متفقاً ، بحال ، مع ما توقعه روج . فقد ازعجته الوقائع التي اكتشفها مساعده ازعاجاً كبيراً ، وبدت أمارات القلق والاضطراب على محياه . حتى اذا أتمّ تلاوة التقرير أعلن أن لا سبيل الى نشره ، وان من الخير الاحتفاظ به

ك « وثيقة سرية » ...

وذُهل َروج. فقد كان الرأي مستقراً قبل سفره الى ألمانية، على ضرورة نشر جميع النتائج التي يُسفر عنها التحقيق . من أجل ذلك اقترح على كلارك ان يرجيء قراره النهائي في ما يتصل بنشر التقرير أو عدمه الى ما بعد الاطلاع على التقرير برمته .

ولم يحر النائب العام جواباً ، خارجاً بالصمت عن لا ونعم...

وطوال شهري تموز وآب واصل روج وضع تقريره . حتى اذا أشرف على الغاية، او كاد، اقترح احد مساعدي كلارك اللجوء الى « حلّ وسط » لنشر التقرير. وكان هذا الحلّ يقول بأن يعمد روج الى تسمية المعروفين من افراد الرتل الخامس الصغار ،ويضرب صفحاً من اسماء السياسيين ورجال الصناعة الاميركيين جميعاً .

وهاج روج لدن سماعه هذا الاقتراح، متسائلًا عن الفائدة من نشر التقرير اذا لم يأت على ذكر المتهمين الرئيسيين ؟ ..

واكتفى كلارك، في الجواب عن هذا السؤال ، بهز كتفيه...

وفي ١٧ أيلول ١٩٤٦ أنجز روج تقريره، بعد ان بلغت صفحاته ثلاثمائة وستاً وتسعين ، وقدمه الى النائب العام .

وبعد فترة قصيرة حصل روج على اجازة تبيح له التغيب اسبوعين عن وزارة العدل لكي يقوم بجولة في البلاد يحاضر خلالها عن الخطر الفاشيّ في الولايات المتحدة والطرائق التي اصطنعها النازيون لأفساد الديموقراطية الاميركية .

وفي ٢٢ تشرين الاول ألقى روج أولى محاضراته هذه، في كلية سوارثمور Swarthmore ببنسلفانيا . وكان بين الرجال الذين نصّ

Riyad Nassar Library

المحاضر على أنهم تعاونوا مع النازيين اثناء الحرب ، عضو الشيوخ السابق بورتن هويلر Wheeler .

وفي صباح ٢٥ تشرين الاول غادر روج نيويورك بالطائرة قاصداً الى الشاطيء الغربي ليلقي حلقة جديدة من محاضراته في مدينة سيتل Seattle بولاية واشنطن . ولكن الطائرة هبطت ، بسبب من رداءة الاحوال الجوية ، في سبوكين Spokane ، وفي المطار قيل لروج إنه ليس ثمة متسع له في الطائرة، منذ اليوم، وان عليه ان يتخذ ترتيبات جديدة للطيران الى سيتل. كذلك قيل له إن رجلًا يدعى السيد سافيج Savage هو في طريقه الى المطار للاجتماع به .

وما هي إلا لحظة حتى سعى الى روج رجل غريب ، وعرّفه الى نفسه قائلًا : « مستر سافيج ، من رجال مكتب المباحث الاتحادي » . ثم قدّم الى روج ظرفاً غير مختوم .

وكان ذلك الظرف ينطوي على رسالة موجهة الى روج ومذيلة بتوقيع النائب العام ، وفيها ما يؤذن روج بفصله من وزارة العدل منذ اليوم ...

وتفصيل ذلك ان عضو الشيوخ السابق ، بورتن هويلر ، زار البيت الابيض ، في ٢٤ تشرين الاول – قبل يوم واحد من صدور القرار بفصل روج – وتحدّث الى الرئيس ترومان حديثاً شخصياً .
وفي ذلك المساء تلفن الرئيس الى النائب العام ، كلارك ، فما كان من هذا إلا ان عقد مؤتمراً صحفياً في منتصف الليل اعلن فيه فصل النائب العام المساعد ، روج ، من وزارة العدل الاميركية ،

« لخرقه المتعمّد احكام النظم والقواعد المقررة ... »

وما انقضت على عقد هذا المؤتمر الصحفي اربع وعشرون ساعة حتى أوفدت وزارة العدل من يحمل الى روج قرار فصله .

وقد علّق ستون I. F. Stone في صحيفة « بي. أم » P. M. على فصل روج هذا من وزارة العدل فقال : « ان حكومة ترومان والنائب العام توم كلارك لم يؤانسا من نفسيهما القدرة على خوض معركة ضارية ضدّ ليندبرغ Lindbergh ، وكوفلن Coughlin ، وهويلر ، وفورد .» ثم أضاف :« ان المناخ الفكري الذي خلقته ابواق الحكومة والصحافة المعادية للسوفيات لم يكن ليساعد على تجريم جماعة رأسمالها الأعظم انها تؤلف سداً منيعاً في وجه الشيوعية .. »

والواقع ان همّ الحكومة ، اليوم ، لم يعد ملاحقة المشايعين السابقين للنازية ، ولكن ملاحقة الاحرار وأعداء الفاشيّة والتنكيل بهم .

وإنما لعبت الدور الاكبر في هذه الرواية « اللجنة البرلمانية للتحقيق في النشاط اللاأميركي » .

٨ . واشنطن تقتبس أساليب الطغيان النازي ...

•

«هل تستطيع ان تقول ان اصدقاءك ورفاقك أذكياء وبارعون ؟ »

سؤال وجهه مجلس الولاء الاميركي ، ١٩٤٨ ، الى موظف حكومي متهم بعدم الولاء .

« أ » مرسوم الولاء

لم تنقضِ عشرة ايام على إعلان « مبدأ ترومان » Truman Doctrine حتى اصدر الرئيس « مرسوم الولاء » . والحق أن القرب الزمني لم يكن هو الصلة الوحيدة بين الحدَثين . فبينما وضع « مبدأ ترومان » القواعد لسياسة خارجية تهدف الى تأييد الرجعية تحت ستار وَقف « التوسع الشيوعي » في ما وراء البحار، أقرّ « مرسوم الولاء» خطةً لكبت الحرية الفكرية تحت ستار القضاء على « الخطر الشيوعي » في الوطن .

كان كلٌّ من التشريعين متمّماً للآخر . وقد بلوَرا جميعاً ذلك التحول الذي أصابَ الولايات المتحدة منذ وفاة فرانكلن ديلانو روزفلت ...

أما مضامين «مرسوم» الولاء البعيدة المدى فقد أشارت اليها رسالة لوكالة الصحافة المتحدة ، من واشنطون، يوم اذاعة القانون بالذات :

«ان مرسوم الرئيس ترومان يشمل نحواً من ٢،٢٠٠،٠٠٠ وظيفة تنفيذية ... ولو قد طُبّق المرسوم على اساس شخصي إذن لكان من الميسور ان يقع في شباكه كل موظف في الدولة ، من رئيس الجمهورية حتى الآذن الموكل بأصغر مكتب للبريد في البلاد.»

وصاغَ « مرسوم الولاء » — من غير ان يحدّد للولاء معنىً بعينه — برنامجاً ضخماً لأجراءات التحقيق، فأقام «مجلس ولاء» في مختلف دوائر الدولة ، وعهدَ إلى النائب العام في وضع قائمة بجميع المنظمات غير الموالية .وكان الغرض المنصوص عليه من هذا البرنامج هو توفير « الحد الأعلى من الحماية » للولايات المتحدة ، والحؤول دون تسرب العناصر غير الموالية الى صفوف موظفيها . »

وقد كتب احد المحامين البارعين * ، في « المجلة التقدّمية » The Progressive نقداً لهذا المرسوم ، تحت عنوان « برنامج الولاء غير القانوني » جاء فيه :

« ان مرسوم الولاء لن يلقي القبض على أيما جاسوس ، ذلك بأنه لايعدو أن يكون، كما يدلّ اسمه، وسيلةً الى امتحان مبلغ تعلق الموظفين الاتحاديين ببعض المثل الفكرية غير المحدّدة . ان هدفه من الوجهة الظاهرية ، هو تعقّب الشيوعيين واصطيادهم ، ولكنْ اذا كنتَ من موظفي الدولة ففي استطاعة المشرفين على

* L. A. Nikoloric.

تنفيذ هذا المرسوم ان يَصموك بالخيانة طوال عمرك ، حتى ولو لم تكن في يوم من الأيام شيوعياً . وانما تُصبح غيرَ موالٍ لمُثُل الدولة اذا اعتقد مجلس الولاء الخاص بالدائرة التي تعمل فيها انك كنت في يوم من الايام ، او انك لا تزال الى اليوم :

« أ » تعطف على الشيوعية .

« ب » أو تعطف على منظمات يُزعم انها عاطفة على الشيوعية.

« ج » أو تتصل بأشخاص ينطبق عليهم أي من الوصفين السابقين .

« د » أو تكثر من الكلام في حضرة اشخاص تنطبق عليهم الاوصاف السابقة .

ثم أضاف الكاتب قائلاً : « وفوق هذا كله فليس مطلوباً من مجالس الولاء ان **تبرهن** انك تنتمي الى احدى الفئات الاربع . يكفي ان يثور حولك أقل الشك حتى تُدان . »

ومن عجب ان ممثلي الشعب الاميركي المنتخبين مرّوا بهذا المرسوم ، غير الديموقراطي وغير الدستوري ، مرور الكرام. بل ان الكثرة الكثيرة من رجال الكونغرس رحّبت بالمرسوم واعتبرته خطوة اساسية في سبيل سعادة الأمة .

ولكنّ ما اعتدّه رجال الكونغرس خطوةً نحو سعادة الأمة لم يكن غير إجراء أحمق ينضح بالاثم والعدوان .

فلم يكد وكيل النيابة ابراهيم بومرانتز Pomerantz يرجع من المانية إثر محاكمات نورمبرغ حتى وجه رسالة الى صحيفة « نيويورك تايمس » (٤ نوار ١٩٤٧) جاء فيها :

« ... لقد تشرّبنا في نظامنا التشريعي الطغيان الالماني الذي

خضنا الحرب الاخيرة للقضاء عليه . أشير بذلك الى مرسوم الولاء الذي يقضي بفصل كل موظف من موظفي الدولة ، البالغ عددهم مليونين ونصف المليون ، عن عمله اذا ما كان في الزمن الحاضر ، او في الزمن الماضي ، عضواً في أيما منظمة اتفق أن وضعها النائب العام في قائمته السوداء ، او مجرد عاطف على تلك المنظمة ، مناصر لها .

« ثم ان المنظمة لا تتلقى ايما إشارة تؤذن بان ولاءها موضع الشك والريبة . وهي لا تُمنح ايما فرصة لتفنيد التهمة الموجهة اليها . . كذلك لا تتاح للمواطن الاميركي فرصة ما يتحدى فيها حكم النائب العام على منظمته .

« وهذه الأدانة من غير محاكمة — وقد اقتبسناها عن أشدّ عهود الطغيان النازيّ إظلاماً — هي تجديد مذهل في إجراءاتنا القضائية الأميركية . »

بيد ان التسفيه لمرسوم الولاء كان أعجز من ان يقلق ضمير النائب العام ، توم كلارك . ففي لغة تذكر بتلك التي اصطنعها النائب العام ، بالمر ، اثناء الحملة التي شنت على الشيوعيين بعد الحرب العالمية الاولى ، وصف كلارك برنامج الولاء بقوله انه وسيلة لنشر « المبادىء المسيحية » ولصيانة « الديموقراطية والحقوق الدستورية التي قاتل من اجلها اجدادنا . »

ومن مادة استُقيَتْ في الاعمّ الاغلب من اوراق « لجنة التحقيق في النشاط اللا إميركي » تقدم النائب العام الى وضع مادعته صحيفة « نيويورك تايمس » « القائمة المبدئية الأمّ » بالمنظمات الشيوعية ،

Riyad Nassar Library

ابتغاء الاسترشاد بها عندما يشرع في تصيُّد موظفي الدولة غير الموالين » . وفي ٤ كانون الاول أذيعت « القائمة المبدئية الأم » على الناس ، فاذا بها تنطوي على اسماء ثمان وسبعين منظمة هي في نظر كلارك ، « منظمات ديكتاتورية ، او فاشية ، او شيوعية ، او هدّامة . »

وكان نحو من نصف هذه المنظمات التي سماها النائب العام ، منظمات المانية ويابانية وإيطالية نشطت في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية او اثناءها ، ثم زالت نهائياً من الوجود .

واما سائرها فكان يتألف في كثرته الكبيرة من جماعات تقدمية يسارية ، ولجان معنية بالدفاع عن الحريات المدنية ، ومنظمات مناوئة للفاشية .

وفي ٢٨ نوار ١٩٤٨ نشر كلارك قائمة هدامة اخرى اشتملت على اثنين وثلاثين منظمة إضافية « غير موالية » . وكانت المنظمة الفاشية الوحيدة التي ورد ذكرها في هذه القائمة هي شعبة الحزب النازي في ما وراء البحار * ، وقد أمست خبراً ماضياً قبل ان توضع قائمة كلارك بزمن طويل .

وفي ما يتصل بطرق الافادة من هذه القوائم ، صرح النائب العام قائلاً : « سوف نفعل ذلك على الاسلوب الاميركي . . . بطريقة شرعية نظامية . إننا لن نصطنع أساليب الغستابو الهتلرية او نقوّض صروح الحرية والعدل التي قاتلنا قتال المستميت للحفاظ عليها ! . »

ولكن أعمال « مجالس الولاء » كانت اعلى صوتاً من كلمات

* *Ausland Organization der* N . S . D . A . P .

النائب العام . فما هي إلا فترة حتى ألقت هــذه الاعمال ما دعاه ابراهيم بومرانتز « ظلالاً من محاكم الشعب الالماني ذات الرائحة البغيضة . »

« ب » خلف الابواب الموصدة

«إن الاجراءات التي تتبعها مجالس الولاء لتشكل خرقاً لاحكام لائحة الحقوق. ذلك بأن الموظف إنما يواجه في هذه المجالس خصوماً متّهـمين ، لا قضاة متجردين . »

هكذا قال وكيل النيابة نيقولوريك في مقاله « برنامج الولاء غير القانوني » . . .

ولكن أبرز المظاهر المستهجنة في هذا البرنامج هي ، في رأي نيقولوريك ، « طبيعة البينات التي تُبنى التهمة على أساس منها . »

وذكر وكيل النيابة، الذي اعتمده موظفو الدولة مستشاراً لهم في كثير من القضايا المتصلة بمرسوم الولاء، حالاتٍ بعينها تثبت ما يذهب اليه ... واليك بعض هذه الحالات :

١ كانت الآنسة « أ » تقضي ساعات مــا بعد الظهر من يوم بعينه من ايام الأسبوع في جمع الاعانات لأسعاف ضحايا الحرب الروس . وكان لها أثر فعال في حمل الشيخين « بال » Ball و « بيبر » Pepper على التحدث الى أبناء مدينتها حول ضرورة التحالف مع الروسيا . وانما كان ذلك سنة ١٩٤٣ يوم كان الروس ينهضون بعبء الحرب الأكبر ، في أوروبة . كذلك نشطت الآنسة « أ » في حقل الصليب الاحمر ، وجمعت اموالاً ، وحاكت سترات صوفية قدمتها الى جمعيات الاسعاف البريطانية والفرنسية ... وبسبب من ذلك كله اعتبرت غير موالية للولايات المتحدة ...

٢ تزوج السيد « ب » من فتاة كانت قبل عشر سنوات ، وفي اثنــاء

طلبها العلم في احدى الكليات ، عضواً في عصبة الشباب الشيوعية . وكان نشاط هذه العصبة شبه مقصور ، في مدرستها ، على المطالبة بتخفيض نفقات المهــاجع وزيادة تعويضات الطلبة الفقراء الذين يقومون في الكليــة بخدمات مختلفات تساعدهم على مواصلة التحصيل . وبعد ستة أشهر او ثمانية استقالت السيــدة « ب » من العصبة ، ولم يزعم احد انها كانت على اتصال مهما يكن بالحركة الشيوعية منذ ذلك الحين . ولكن المشرفين على إنفاذ برنامج الولاء اصروا على ان السيد « ب » مواطن يعوزه الولاء لبلاده ...

٣ كان للسيد « ج » صديق في الجامعة . وكان هذا الصديق، الذي لم يره السيد « ج » منذ خمسة عشر عاماً ، متهمــاً بالاشتراك مع نفر ممن يدعونهم شيوعيين في عمل مخلّ بأمن البلاد . وتلبية لنداء وجه الى معظم زمــلائه في الدراسة قدم السيد « ج » بعض المال للنهوض بنفقات الدفاع عن صديقه . وعلى الرغم من ان القضاء برأ ساحة الصديق ، فقد اتهم السيد « ج » بعدم الولاء .

٤ كان السيد « د » موظفاً مدنياً يعمل مع قوات الاحتلال في اليابان . فاقترح في احد المؤتمرات ان تشترط قوات الاحتلال هذه عند توزيع السماد على المزارعين اليابانيين تقاضي نسبة بعينها من انتاج المزارع ، لتباع بواسطتها في السوق الحرة دفعاً لبلاء الخزن والاحتكار . فما كان من كبير ممثلي الجيش في المؤتمر إلا ان سأل السيد « د » ما اذا كان شيوعياً ، وما اذا كان يؤمن بحرية التجارة . فأجابه السيد « د » بقوله انه ليس شيوعياً وانه يؤمن بحرية التجارة ، ولكنه قدم اقتراحه ذاك لثقته اليقينية بأنه يقضي على السوق السوداء . وما هي الا فترة ، حتى فصل السيد «د» من عمله واعيد الى الولايات المتحدة متهماً بعدم الولاء بسبب من هذه الحادثة !

٥ بعث احد زملاء السيــد « ه » رسالة الى مكتب المباحث الاتحادي F. B. I زعم فيها انه « سمع » ان حماة السيد « ه » روسية الهوى وبناء على ذلك فقد اتهم السيد « ه » بعدم الولاء .

هذا من حيث « البيّنة » التي كانت التهمة توجه على اساسها . أما الاسئلة التي اعتاد المحققون طرحها على الموظفين المتهمين بعدم الولاء فكانت بدورها عجباً من العجب . وفي ما يلي نماذج من هذه الاسئلة ننقلها عن المحاضر الرسمية لمحاكمات مجالس الولاء :

هل تستطيع ان تقول ان اصدقاءك ورفاقك اذكياء وبارعون ؟.

هل تملك كتاباً من تأليف جون ريد Reed ؟

هنالك شك في انك تكنّ عطفاً على الفئات المحرومة . هل هذا صحيح ؟

هل كان والدك مواطناً من مواليد هذه البلاد ؟ وجدك ، ماذا تستطيع ان تحدثنا عنه ؟

هل تعتقد ان نظام الحكم الروسي صالح للروس ؟

هل تؤيد مشروع مارشال ؟

ما شعورك تجاه عزل الزنوج وفصلهم عن المواطنين البيض ؟

هل دعوت انت او زوجك في يوم من الايام ، زنجياً الى بيتكم ؟

هل تستطيع ان تقول ان لزوجك وجهات نظر سياسية تحررية ؟

هل كان احد من انسبائك عضواً، في وقت من الأوقات، في الحزب الشيوعي ؟

هل سبق لك ان شهدت ، انت وزوجك ، اجتماعات نوقشت فيها وجهات نظر تحررية ؟

ما قولك في الحالة القائمة اليوم في ايطالية ؟

هل تفهم السبب الذي من أجله تعارض الكنيسة الكاثوليكية الشيوعية ؟

لنفرض انك اكتشفت ، في يوم من الايام، ان زوجتك شيوعية، فما الموقف الذي تتخذه من هذا الوضع ؟

وفي كتاب نُشر سنة ١٩٤٩ بعنوان «حرياتنا المدنية الذاوية» روى جون روج Rogge مساعد النائب العام سابقاً، وقائع مذهلة استقاها من دعاوى الولاء التي لعب فيها دور المستشار لموظفي الدولة المتهمين. ومن ابرز هذه الدعاوى تلك التي اتهم فيها بعدم الولاء ميكانيكيٌ من اصل سويدي، يُدعى تشارلز أوسكار ماتسون وكان قد سلخ ثلاثين عاماً وهو يعمل في حوض السفن بمدينة نيويورك. وكان ذلك في شباط ١٩٤٨. واليك ما دار بين مجلس الولاء والمتهم كما رواه روج في كتابه ذاك :

المجلس : هل انت عضو في الحزب الشيوعي؟ ،او هل كنت

في يوم من الأيام ، عضواً في هذا الحزب ؟

ماتسون : لا، لست عضواً في الحزب الشيوعي ولم انتسب الى هذا الحزب في يوم من الأيام .

المجلس : هل كانت زوجتك ، او احد من اقربائك ، عضواً في الحزب الشيوعي ؟

ماتسون : كلا ، إن زوجتي عضو في بعض الكنائس ، وهي لا تنتسب الى أيما حزب من الاحزاب .

المجلس : هل تذكر انك شهدتَ، يوماً، اجتماعاً من اجتماعات «العصبة الاميركية للدفاع عن الديموقراطية » ؟

ماتسون : جائز ان اكون قد شهدت بعض هذه الاجتماعات، فلست واثقاً من ذلك تماماً .

وعندما سأل المجلسُ المتهمَ عن طبيعة مطالعاته علمَ انه كان مشتركاً ، في فترة ما، بالمنشورات الصادرة عن «الجماعة الأدبية»:

المجلس : ما نوع الكتب التي كانت تصدرها هذه الجماعة ؟

ماتسون : كانت كتباً مفروضاً فيها ان تكون افضل ما أُخرج للناس في شهر .

المجلس :هل أصدرت الجماعة كتباً من تأليف تيودور درايزر؟

ماتسون : نعم ، لقد أصدرت في ما أحسب ...

المجلس : هل اصـــدرت كتباً من تأليف فويشتوانجر ؟

Feuchtwanger

ماتسون : أظن انها نشرت كتاباً بقلم درايزر ...

المجلس : هل قرأت،عمرَك ، كتاباً من تأليف فويشتوانجر؟

ماتسون : لا .

المجلس : ومن تأليف هاوارد فاست ✲ ? Howard Fast

ماتسون : انا لا أعرفه ، ولم اسمع باسمه قبل اليوم .

ثم ان المجلس تقدّم الى استجواب ماتسون حول « معتقداته السياسية » :

المجلس : هل سبقَ لك ان ناقشت « مبدأ ترومان » ?

ماتسون : نعم ، بعض الشيء .

المجلس : ما قولك فيه ?

ماتسون : لم اكوّن رأياً نهائياً فيه .

المجلس : هل انت معه ام ضده ?

ماتسون : إني ليأخذني الأسف لحال كثير من الناس هناك، وإني ليأخذني الأسف لحال الناس عندنا . ولأضرب لك مثلاً على ذلك: إنهم يريدون منا طروداً. وقد جمعتُ انا وابنتي بعض الثياب العتيقة، وبدلاً من ان نبعث بها الى الجهة الاخرى أرسلناها الى الهنود...

بعد ذلك طلب « روج » الاستماع الى الشهود ، وهم نفر من العمال في أحواض السفن التابعة للاسطول . فأجمعوا كلهم على ان ماتسون لم ينطق يوماً بكلمة يشتمّ منها عدم الولاء، ولم يأتِ يوماً عملاً ينطوي على شيء من ذلك. وما من شاهدٍ قال في المتهم كلمة « غير صالحة . »

وقد سأل المجلس احد هؤلاء الشهود ما اذا كان يعتبر ماتسون مفكراً عميقاً ? فاجاب الشاهد قائلاً إنه غير واثق من ذلك .

✲ مؤلف اميركي تقدّمي . اشهر مؤلفاته « المواطن توم بين » وقد نقلناه الى العربية ونشر في سلسلة « كنوز القصص الانساني العالمي » .

Riyad Nassar Library

وعلى الرغم من هذا كله فقد طُرِد تشارلس أوسكار ماتسون من وظيفته .

●

ومن دعاوى الولاء التي شهدها جون روج ايضاً بوصفه مستشاراً للمتهم ، تلك التي أقيمت على جورج غورتشوف Gorchoff المهندس العامل في حوض السفن التابع للاسطول الاميركي في مدينة نيويورك . وعلى عكس كثير من الموظفين الذين اتهموا بعدم الولاء ، والذين اخذهم الذهول وخانتهم الكلمات عند استهلال التحقيق معهم ، تكشّف غورتشوف ، لا عن نزعة الى التحدّي فحسب ، بل عن صفاء ذهني عجيب ايضاً .

فما كادت الجلسة تُفتتح حتى دار هذا الجدل بين المتهم وبين اعضاء المجلس :

غورتشوف: في التهم الواردة هنا ما يفيد ان معلومات اضافية ستقدّم اثناء التحقيق توكيداً لتلك التهم وتفصيلاً لأجمالها . فهل أستطيع ان احصل على هذه المعلومات الاضافية ، الآن ?

المجلس : هذا تحقيق غير رسمي . وليس عندنا معلومات اضافية نسوقها اليك .

غورتشوف: ذلك ما نُص عليه في الرسالة التي وجهها امير البحر هيبرل Haeberle اليّ .

المجلس : تلك إجراءات غير قوية...وان جميع المعلومات التي قُدّمت الينا حول هذه القضية إنما قُدمت بوصفها سرية فليس يجوز الافضاء بها اليك .

غورتشوف : من الواضح انني لا أستطيع ان أفنّد هـذه الاسئلة من غير ان يستدعى الاشخاص المشار اليهم الى هنا ... خذ مثلاً السؤال الزاعم بأني كنت اقنع الناس بالدخول في الحزب الشيوعي ...

المجلس : هل فعلت ذلك أم لا ؟

غورتشوف : من الذي قال إنني قمت بذلك ؟

المجلس : لسنا ههنا في محكمة من محاكم العدل .

غورتشوف : أعلم ذلك . وأنا أيضاً لست محامياً .

المجلس : هذه ليست محكمة . لقد اتهمت بـ ...

غورتشوف : هل تملكون سلطة تخوّلكم تبرئة ساحتي ؟

المجلس : لا .

غورتشوف : من الذي يملك هذه السلطة اذن ؟

المجلس : كل مانستطيع انفعله هو ان نقدّم توصية الى القائد الموكل بحوض السفن.

وهكذا واصل غورتشوف تحدّي المجلس طالباً اليه تقديم معلومات واقعية في مايتصل بالتهم الموجهة اليه ، محتجاً على اعتبار المجلس تلك الاتهامات الغامضة التي قدّمها اليه دساسون مجهولون، « بيّنة سرية » يدينه على أساس منها . قال مخاطباً اعضاء المجلس: « إنني أمثل أمامكم لكي أحاول إقامة الدليل على براءتي . ومن اجل ان اقوم بذلك لا بدّ ان تواجهوني بأمور واقعية ... إن المسألة ليست مسالة وظيفة وحسب ؛ انها مسألة حياتي — خمسة عشر عاماً من حياتي . فخلال المدة التي قضيتها في هذه البلاد قدّر

لي ان أتزوّج ، وان أرزق ولدين صغيرين . أنا لم أعد فتىً ناشئاً يطوّف في البلاد بحثاً عن عمل ... »

وفيما كان غورتشوف يطالب بمعلومات راهنة حول واحد من متهميه المغفلين سأل زميل لـ « روج » المجلس : « هل تصرون على عدم البوح بتلك المعلومات ؟ »

فأجاب رئيس المجلس : « نحن لا نملك معلومات كهذه . اننا لا نعرف اسم الشخص ... »

وهنا صرخ روج : « كل ما بين ايديكم ، اذن ، هـو كلام ليس عليه من دليل ؟ »

— « ولكنه كلام قد مُحّص وحقق فيه . »

— « من الذي محصه وحقق فيه ؟ »

— « ليس في وسعي ان أخبرك ... »

— « أهي جماعات غير معروفة ؟ »

فتردد رئيس المجلس لحظة ثم أجاب : « لك ان تصوغها بأي طريقة شئت ! »

●

وفي سخرية لاذعة استطرد روج في مؤلفه « حرياتنا المدنية الذاوية » قائلاً : « هل لك عدو موظف في الدولة او في مصنع متعاقد مع الدولة ؟ اني مخبرك عن طريقة لطرده من عمله ... ارسل بطاقة بريدية الى مكتب المباحث الاتحادي (F. B. I.) من غير ان توقعها ...واذكر في هذه البطاقة ان زوجة عدوّك قرأت بعض مؤلفات ثيودور درايزر ، واشتركت بصحيفة « الجمهورية

الجديـدة « New Republic » ، ودعت ذات يوم رجلاً من الزنوج الى بيتها ...

«ضع هذه البطاقة في البريد وثق بأن عدوّك قد انتهى. ذلك بأن مكتب المباحث الاتحادي سوف يجري تحقيقاً سرياً يؤدي بعدوّك ، آخر الامر ، الى المثول امام مجلس الولاء حيث تمسي بطاقتك جزءاً حيوياً ، ولكنه سرّي ، من البينة التي يُدان بها. ان الفرصة لن تتاح له ليواجهك ، انت الذي اتهمته . ولسوف يتعين عليه ان يدفع عن نفسه تهماً لم يسمع بها من قبل. وقد يطرد من وظيفته ، وقد يسمح له بالاستقالة ، بل انه قـد يخرج من الميدان مبرّءاً. ولكنه على أية حال سيغدو رجلاً يتحاماه المجتمع ويجفوه الناس ... لقد اتّهم يوماً بنقص في الولاء ! .. »

واذا شئت مصداقاً للوقائع المروّعة التي أوردها مساعد النائب العام السابق ، روج ، فاسمع الى هذه الخبرة التي تمت لبرت اندروز Bert Andrewz مدير مكتب « نيويورك هـيرالد تريبيون » في واشنطون ، والفائز بجائزة بوليتزر Pulitzer Prize في الصحافـة لعام ١٩٤٧ .

ففيما كان اندروز يجمع المـادة الضرورية لكتابة سلسلة من المقالات عن برنامج الولاء زار وزارة الخارجية للتحقق من أوضاع سبعة من الموظفين فُصلوا من مناصبهم بتهمة عدم الولاء. وفي مؤتمر غير رسمي ضمّ الصحفي المعروف وثلاثة من موظفي وزارة الخارجية تساءل اندروز قائلاً : « أمن العدل أن يُرمَى موظف ما بعدم الولاء ويسرّح على أساسٍ من بيانات مُغفلة؟.. أتكون

Riyad Nassar Library

هذه هي الطريقة الاميركية في التأتي للأشياء ؟ »

وضجر أحد هؤلاء الموظفين الثلاثة من تطاول النقاش ، بأكثر مما يحتمل صدره الحرج ، فندّت منه هذه الكلمـات : « ولكن علام المراوغة في مسألة مثل هذه؟ فمن الواضح الجلي أن أي واحد منا ، نحن المجتمعين في هذه الغرفة ، يمكن أن يُجعل ضحية شهادةٍ كاذبة اذا ما كان له عددٌ كافٍ من الخصوم في الادارة الـتي تلاحقه . »

وفيما كان أندروز يُصيخ في دَهش متعاظم ، تابع الموظف كلامه ذاك قائلاً : « أجل ، مثلُ هذا الوضع طبيعيّ جـداً . وعندئذ لن نجد عاصماً يذود عنا الضرّ إلا بمقدار ما وجدَ مستر*.. ذلك العاصمَ ، على الرغم من براءتنا التامة . »

وهنا صاح اندروز وهو لا يقضي العجب : « ماذا تقول » ؟

فاكتفى الموظف الكبير بأن أعاد كلامه السابق ، في تـؤدةٍ وهدوء .

فما كان من اندروز الا أن قال : « إذا كان رجـلٌ في مثل ثقافتك وذكائك يستطيع ان يقول شيئاً كهذا من غير أن تعصف به هزّة ، ومن غير ان يستشعر أيما خطرٍ شخصي فعندئذ لا بدّ ان يكون هناك خلَلٌ ما ... »

والواقع أنه كان ثمة خللٌ ما ، من غير ريبٍ ، لا في العاصمة وحدها ، بل في طول الولايات المتحدة وعرضها ...

* وهنا ذكر الموظف اسم واحد من رجـال الوزارة الذين سرحوا من الخدمة .

٩ أنماط من الكبت والاضطهاد

•

« ان الخونة الحقيقيين في يوم الناس هذا هم اولئك الوطنيون المزيفون الذين يسيئون الى الحقيقة ، ويعترضون سبيل الكشف الاجتماعي ، ويضنون على الأمانة الفكرية بمنبر حر ، ويزعمون – فيما تجتمع نذر العاصفة وتتلبد فوق الرؤوس – ان الولايات المتحدة هي حمامة سلام ورخاء ، أو طائر من طيور الجنة يحمل الى العالم اليائس بشائر النجاء ! »

من مقدمة صموئيل شمالهاوزن لكتاب « هذه هي اميركية ! » المنشور عام ١٩٣١

« أ » برنامج عبوس

في ١٥ حزيران سنة ١٩٤٧ ، وقف الرئيس ترومان ، وكان عائداً من زيارة رسمية الى كندا ، ليكحل طرفه بمشهد شلالات

Riyad Nasser Library

نياغارا الشهيرة .

وطوال لحظاتٍ من الصمت المفكر أنشأ ترومان يتأمل الشلال العَظيم الراعد ليقول آخر الامر : « لا ريب أني أكره أن تحطني هذه اللجج ، من علٍ ، وأنا قابعٌ في جوف برميل ! »

ولكن الشعب الاميركي كان يواجه ، في ذلك الوقت بالذات، مشكلاتٍ أخرى هي أعظم شأناً واكبر خطراً ! ...

فمنذ انقضاء الحرب وتكاليف المعيشة آخذةٌ في الارتفاع على نحوٍ متسارعٍ جعل أجور العمل هزيلةً لا تكاد تفي بأبسط حاجات صاحبها . ففي حزيران سنة ١٩٤٧ سجلت الاسعار ، حسب إحصاءات وزارة العمل ، ارتفاعاً يبلغ ١٨ ٪ بالنسبة الى ما كانت عليه في حزيران ١٩٤٦ . وهذا ما دعا الدكتور أدوار بيرنكر Bernecker المشرف على مستشفى مدينة نيويورك، الى قرع ناقوس الخطر قائلاً : « اذا ظلّت تكاليف المعيشة تمعن في الارتفاع على النحو الذي نشهده اليوم فخليقٌ بصحة فئات كبيرة من المواطنين ان تتعرّض لخطر جسيم ، بسبب من سوء التغذية . »

ومن اغرب التصريحات التي صدرت حول ارتفاع اثمان الطعام ذلك الذي أطلقه الشيخ روبرت تافت Taft وذهب فيه الى أنه يقرّ هربرت هوفر على « أن الحل الافضل لذلك هو ان يضع الناس حداً لأسرافهم ، فيأكلوا مقداراً من الطعام أقلّ ... »

وانتهت ازمة المساكن الى غاية لم تنته اليها في أيما وقتٍ مضى . كان نحوٌ من ثلاثة ملايين اسرة اميركية تعيش في بيوت مشتركة، وكان مئات من الالوف يلتمسون مكاناً يتخذونه لهم منزلاً فلا

يجدون ، وكان اكثر من عشرين مليوناً من المواطنين يحيون في أحياء قذرة ، واكواخٍ حقيرة ، وكان ثُلث سكان البلاد كلها يقطنون منازل تُعوزها ادنى شروط اللياقة .

وفيما كان مستوى معيشة الشعب الاميركي آخذاً في الانحطاط كان برنامج الهجوم الكالح على حقوقه السياسية يمضي قُدُماً في غير ما هوادة ولا استبقاء .

كان في أدراج الكونغرس ما يزيد على مئتي مشروع بقانون تهدف كلها الى كبت العمال وارهاقهم ، وكانت الولايات يقتفي بعضها آثار بعض في سن التشريعات الرامية الى تقويض دعائم الحركة العمالية النظامية .

ففي نبراسكا Nebraska ، وداكوتا الجنوبية S. Dakota وآريزونا Arizona اعتُبر الاضراب عملاً غير مشروع . وأُقِرّ « حق العمل » او « حق الخروج على الاضراب » في جورجيا وكارولينا الشمالية وفيرجينيا وتنيسي Tennessee ، وآركانساس Arkansas وفلوريدا وآلاباما Alabama . ومما يدلك على طبيعة هذه التشريعات ترحيب الاوساط الرأسمالية بها ترحيباً بالغاً. فقد اصدر اتحاد الصناعيين في ولاية تكساس ، مثلاً ، بياناً نصّ فيه على ان القوانين العمالية الثمانية التي أقرتها تلك الولاية، وكلها مجحف بحق العمال ، جاءت « وفق آمال هذه المنظمة ورغباتها . »

وفي ٢٣ حزيران سنة ١٩٤٧ أقر الكونغرس قانوناً « عطل بضربة واحدة كثيراً من الحقوق التي كسبها العمال في السنوات العشر الاخيرة تعطيلاً شرعياً ، على حدّ تعبير « الاتحاد الاميركي

للحريات المدنية » ...

وما ذلك القانون الا قانون تافت – هارتلي Taft — Hartley الذي حرّم الاضراب على العمال، وعلى مستخدمي الدولة، والذي حظر على اتحادات العمال إنفاق أيما مبلغ من المال لاغراض سياسية، وقضى بسحب الحقوق النقابية من أيما اتحاد يحجم رجاله عن توقيع الأيمان الخطيّة المضادة للشيوعية .

« ب » الخوف نفسه

في آب سنة ١٩٤٧ نشر « الاتحاد الاميركي للحريات المدنية » تقريراً عن « الحريات الاميركية » لخص فيه الاتجاهات السياسية خلال الاثني عشر شهراً السالفة بهذه الكلمات :

« لقد طغت على البلاد موجةٌ متعارمة من الردّة الى الوطنية الضيقة ، والروح العسكرية، والدفاع عن الوضع الراهن. وغلب التهييج المصاقب للهستيريا على كل محاولة عامة لبحث ايما قضية من القضايا المتصلة بالشيوعية ، وقد أذكته سياسة خارجية تهدف الى قطع الطريق دون تقدّم النفوذ السوفياتي .

«وفي مثل هذا الجو من الرجعية المحاربة كان من الحتم ان تقام العراقيل في وجه جميع القوى الساعية الى الاصلاح ، بل كان من الحتم ان تهاجم الحريات المقرّرة المتصلة بها ... »

وحتى في عهد غارات بالمر والحملة الصليبية المحمومة على الشيوعية عقب الحرب العالمية الاولى، لم تشهد البلاد هجوماً غامراً على الحريات الاميركية التقليدية كالذي شهدته صيف ١٩٤٧، ففي كل رجا من ارجاء الجمهورية كانت الدولة تطارد «الشيوعية» وتتوعد «الشيوعيين»

وفي كل بقعة من بقاع الجمهورية انبرى رجال الامن الاتحاديون وجواسيس العمل ، وشرطة المباحث في الولايات الى التدخل في شؤون المواطنين الأميركيين ، فهم يضعون قوائم سوداء لا تكاد تنتهي باسماء « المهيّجين الراديكاليين » و« العاطفين على الشيوعية »، وهم يحصون على الاحرار وعلى اعداء الفاشيّة حركاتهم ويدونونها في سجلات مخصوصة .

وكان ج . ادغار هوفر قد استوى على قمة الشهرة والسلطان. ففي ١٥ كانون الاول سنة ١٩٤٧ كتب جان هاسبروك Jan Hasbrouck في « الجمهورية الجديدة » يقول : « ان ج . ادغار هوفر قد غدا اليوم واحداً من ستة رجال هم اكثر الناس نفوذاً في واشنطن». والواقع ان رجال هوفر السريين لم يغادروا مظهراً واحداً من مظاهر الحياة الاميركية إلا غزوه . فاتحادات العمال والاحزاب السياسية ، والصحف والجامعات ، ودوائر الحكومة والقوات المسلحة ، كل اولئك انبثّ فيه عيونُ هوفر وجواسيسه على نطاق واسع مخيف .

وكان النائب العام توم كلارك يقود ، شأن بالمر الرئيس السابق لمستر هوفر ، حملة كثيفة لترحيل « الراديكاليين » ذوي الاصل الاجنبي ...

وفي عدد من الولايات كانت المجالس التشريعية قد أقامت لجانها الصغيرة الخاصة بالنشاط اللاأميركي ، فهي منهمكة في سنّ القوانين المبنية على أساس من تقارير هذه اللجان . ففي ١١ آب سنة ١٩٤٧ نشرت «الجمهورية الجديدة» تقريراً عن «وضع الحريات

Riyad Nasser Library

المدنية اليوم» استقت مادته من رسائل مندوبيها في مختلف الولايات . والذي يؤخذ من هذا التقرير أن الموجة المضادة للديموقراطية آخذة في التعاظم يوماً بعد يوم ، في ارجاء الجمهورية كلها . فمن ميشيغان كتب آندرو بيشوب Bishop يقول : « ان الحريات المدنيـة قد أصيبت اليوم بأعنف ضربة وُجّهت اليها منذ عهد بالمر . » ومن كاليفورنيا كتب روبرت كنكايد Kincaid يقول : « ان الهجوم الحاضر على الحريات المدنية يمتاز بالجهود المبذولة لفرض ضرب من الرقابة الفكرية على المدرّسين والمشتغلين في حقل الخدمة العامة ورجال النقابات البارزين ، كما يمتاز بالضغط الاقتصادي الموصول على الاقليات ، وبالاغارة على ما يزعمون انه كتب مدرسية تحرض على العصيان . » أما غولد بيتش Beech فوصف الحال في الجنوب بقوله: «ان العناصر الرجعية هنا لفي شوق طاغٍ الى التماس وسائل أجدّ وأبرع للتنكيل بالزعماء النقابيين وبالزنوج و « الشيوعيين» ..

وفي الجامعات والمؤسسات العلمية ، وفي المصانع والجمعيات الاخوانية ، وفي اتحادات العمال ودوائر الدولة الاتحادية والمحلية والبلدية كانت تحقيقات « الولاء » قائمةً على قدم وساق ، وكان الاميركيون يؤمرون بأن يقدّموا حساباً عن معتقداتهم الاجتماعية والسياسية ...

ومما يدلك على مدى ما تعرّضت له الحريات المدنية من محنة في هذا العهد، تلك الرسالة التي وجّهها الى رئيس الولايات المتحدة ووزير الخارجية ورئيس مجلس النواب اثنان وعشرون استاذاً من اساتذة كلية الحقوق بجامعة ييل، في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧،

وقد جاء فيها :

« ان موجةً من الكبت لتطغى ، في هذه الايام ، على البلاد بفضل « مرسوم الولاء » الذي وقعه الرئيس في الربيع الماضي ، و « بيان مبادىء السلامة » الذي اصدرته وزارة العدل مؤخراً وبفضل أعمال اللجنة البرلمانيــة الناظرة في ضروب النشاط اللاأميركي ...

وتحت ستار الحصانة النيابية حيناً، وستار السرية حيناً آخر، يُقدم نفرٌ من كبار رجال الدولة على القيام بأعمال تتنافى والتقليد الاميركي الخاص بالحريات المدنيــة ، وتشكل في ما نرى خرقاً لأحكام الدستور . »

وفي مقالة نشرت في « صحيفة جماعة المحامين » قال ريتشارد وات Watt استاذ القانون المساعد في جامعة شيكاغو : « لقد انطفأت تلك الروح التي ولدت حُلم الحريات الاربع ، وههنا في الوطن أمست الحريات نفسها في خطر ... وها هي ذي روح الفاشيّة ، تخيم على الولايات المتحدة ، بعد انقضاء سنتين ليس غير على إيقاعنا الهزيمة بأعدائنا الفاشيين في معارك ما وراء البحار . »

والحق ان الشعب الاميركي لم يُمتحن في ايما يوم من ايام الحرب الاخيرة القاتمة بمثل القلق والخوف اللذين يجتاحان البلاد اليوم ، بعد سنتين من انبلاج فجر السلم .

فعلى صدر البلاد كلها ، وعلى صدر كل مظهر من مظاهر حياتها ، كان يجثم كابوس الخوف : الخوف من « الرتل الخامس الشيوعي » ، والخوف من الاسلحة الذرية والبيولوجية ، والخوف

Riyad Nassar Library

من ازمة اقتصادية جديدة ، واخيراً الخوف من الفصل بتهمة الخيانة وعدم الولاء ، والخوف من النبز بلقب « الأحمر » .

وما كان أصدقَ السيدة روزفلت حين كتبت في عمودها الذي يصدر في عشرات من الصحف في آن معاً : « هناك أناس يخافون النقاشَ في موضوعات غير شعبية ، وأناسٌ يخشون ان يُروا وهم يتحدثون الى جماعات اخرى من الناس ، وأناس يحذرون أن يعلم أحدٌ أنهم يقرأون كتباً بعينها ، وكل هؤلاء لا يستبدّ بهم الخوف بسبب من أيما اساءة او اقترافِ ذنب ، ولكن بسبب مما يمكن ان تفجأهم به الايام . »

وقد صوّر جورج سيلدس Seldes الصحافي المجرّب ومحرّر صحيفة « في الواقع » In Fact هذا الوضع نفسه فقال :

« ان في واشنطون لخوفاً ، لا بين موظفي الحكومة ، ولكن في صفوف البقية الباقية من الاحرار والديموقراطيين الذين لم يزايلهم الامل في استنقاذ شيء من « المسلك الجديـــد » ... هناك خوف في هوليوود ... هناك خوف في دور النشر . وهناك خوف يرين على الكتّاب ، والعلماء ، والمدرّسين ، والاحرار ، وعلى جميع اولئك الذين لا يشاركون في الحركة الرجعية ، ولا ينتسبون الى الجماعات الفاشيّة الوطنية . » وهو لا يعدو أن يكون تفصيلاً لما اجملته صحيفة « بي . أم » P.M. حين قالت : « نحن في اميركة نعيش اليوم في عصر من الذعر والرعب . »

ذلك كان الجو الذي سادَ البلاد بعد خمسة عشر عاماً انقضت على خطاب الرئيس روزفلت الافتتاحي الذي خاطب فيه الأمة

بقوله : « دعوني أؤكد لكم إيماني الوطيد بان الشيء الوحيد الذي يتعين علينا ان نخافه هو الخوفُ نفسه * . »

« ج » استراتيجية فرق الصاعقة

كانت السماء غائمة في غرّة تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ ، وكان نحوٌ من ألفي رجل وامرأة قداحتشدوا في فِناء «قاعة الاستقلال»

---

* ومما يدلك على مدى التوتر الذي انتهت إليه حالة الذعر هذه، في اميركة بعيد الحرب الاخيرة ، تكاثر حوادث الانتحار والموت الفجائي . ففي ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ انتحر جون جيلبرت وينانت Winant احد زعماء « المسلك الجديد » البارزين ، وسفير الولايات المتحدة السابق بلندن، في منزله بمدينة كونكورد ، نيوهامبشاير . وفي ٤ حزيران سنة ١٩٤٨ لجأ مورتون كانت Kent احد موظفي وزارة الخارجية،وقد اتهم بالاتصال بعميل مزعوم من عملاء السوفيات، الى ذبح نفسه بآلة جارحة . وبعد شهرين اثنين ،في ١٦ آب ، قضى هاري ديكستر هوايت White ، وكيل وزارة الماليــة السابق ، نحبه بسبب من نوبة قلبية اصابته اثر مثوله امام اللجنة البرلمانية للتحقيق في النشاط اللاأميركي . وفي ٢٠ كانون الاول ١٩٤٨ انتحر لورانس داجان Duggan وهو موظف سابق في وزارة الخارجية اتهم بالشيوعية ، بأن ألقى بنفسه من احد أبنية نيويورك الشاهقة الى الرصيف . وفي ٢٤ كانون الاول ١٩٤٨ انتحرت السيدة ميني جوتريد Gutride ، وهي مدرّسة نيويوركيــة حققت معها السلطة بتهمة القيام بنشاط « شيوعي » . وفي ١٤ شباط سنة ١٩٥٠ ، وبعد ان صرحت بانها ترفض العيش في عصر ينتج فيه البشر القنابل الهيدروجينية طرحت السيدة اميلي آندرسون؛ نفسها تحت عجلات القطار . وفي مطلع نيسان سنة ١٩٥٠ القى الـبروفوسور ماتايسين Matthiessen الاستاذ في جامعة هارفرد وأحد زعماء الحزب التقدمي ، بنفسه من نافــذة أحد الفنادق ، الى الارض ، فمات لساعته . وبعد ثلاثة ايام انتحر ن.و. روبرتسون وهو صحافي عرف بنزعاته التحررية .

في فلادلفيا ليشهدوا اجتماعاً جماهيرياً يُعقد برعاية «مواطني اميركة التقدميين» . اما الغرض من ذلك الاجتماع فكان الاحتجاج على ضروب التصرف غير الديموقراطية التي تصدر عن اللجنة البرلمانية للتحقيق في النشاط اللاأميركي .

وفيما كان الخطباء يرتقون المنبر انبثّ عشرات من الأوغاد الأشداء في صفوف النظارة ، وشرعت جماعات تحمل شعار «الفرقة الاميركية» وغيرها تنعق وتخور وتطلق الاهانات والتهديدات.

وعندما اقترب صاحب الكرسي من مكبر الصوت تعالى الصياح: «اذهبوا الى روسيا ، أيها الفجرة !»،« انصرفوا ايها الشيوعيون القذرون !»

واختلطت أصوات الخطباء بالضجيج الغامر فلم يبقَ في طاقة الجمهور ان يتبيّنها .

وعندما ألحّت احدى النساء على ان يُفسَح للخطباء في مجال القول ، ويُفسَح للنظارة في مجال السماع ، انقضّ عليها نفرٌ من الأوباش الشرسين ، وطرحوها ارضاً وطفقوا يدوسونها بنعالهم.

وعندئذ دارت رحى الضرب واللكم في الفِناء كله ...

حتى اذا أُعطيت اشارة بعينها انطلق نفرٌ من الاوباش نحو المنبر الذي استوى عليه الخطباء . وإذ قد حالَ رجال الشرطة بينهم وبين ارتقائه ، داروا من حول مقاعد النظارة ، رافعين أيديهم بصنوف من التحية الفاشيّة ، موجّهين الى الخطباء شكولاً من التهديد والاستهزاء .

وكان بين المستوين على منبر الخطابة القاضي الشهير فرنسيس

Riyad Nassar Library

فيشر كاين Kane الذي استقال سنة ١٩٢٠ من منصبه كنائب عام إقليمي احتجاجاً على غارات بالمر . فتقدم الى مكبر الصوت ، وجلال الثمانين يرفّ على وجهه ، ودعا الناس الى التزام الصمت والسكينة قائلاً : « اذا لم نمنح كل امريء حق التعبير عن نفسه فعندئذ تغرب شمس الحرية في بلادنا ، وعندئذ يذهب كل ما حاربنا من أجله في الماضي أدراج الرياح ... » ولكن الصياح الهائج طغى على كلماته ، واخذ السفلة يرجمونه بالحصى والقطع النقدية الصغيرة ، حتى لقد تحطمت نظاراته . ليس هذا فحسب ، بل لقد اخذ بعضهم يلقي القنابل ذات الرائحة الكريهة على المنبر ...

وطوال ساعة ، حاول الخطباء إيصال كلماتهم الى آذان الجمهور ، فلم يُكتب لهم التوفيق . وعندئذٍ أعلن صاحب الكرسي ان الاجتماع قد انتهى .

ومن عجب ان اكثر من مئة شرطي شهدوا الاجتماع ، فلم يُلقوا القبض إلا على رجل واحد ليس غير . اما هذا الرجل الواحد فكان عضواً في « جماعة مواطني اميركة التقدميين » ...

●

وبعد ثلاثة اسابيع عَقد « نادي الهلال الديموقراطي » اجتماعاً ليلياً في احد المنازل بظاهر لوس أنجيلوس Los Angeles ، في الطرف الآخر من القارّة . وفجأةً اقتحم المنزل نفر من رجال « الفرقة الاميركية » ، وشقّوا طريقهم وَسْط أعضاء النادي المأخوذين . حتى اذا انتهوا الى منصّة الرئاسة اقصى قائدهم سكرتير النادي عنها واخذ يقرأ قراراً استُهلّ بالكلمات التالية : « ان جماعة

مواطني اميركة التقدميين ... »

ولفت ربّ المنزل ، وهو مزارع متقاعد يدعى هيوغ هارديمان ، نظرَ القائد الى ان في الامر خطأ ، وانه وضيفه لا ينتسبون الى « جماعة مواطني اميركة التقدميين » . ولكنه تجاهل هذا التنبيه وأصدر امره الى رجاله بان « يتقدموا للعمل حسب الخطة المرسومة » .

وفي الكونغرس الاميركي شجب نائب كاليفورنيا تشيت هوليفايد Chet Holified الغارة كجزء من « موجة الخوف والشك والهستيريا التي تجتاح البلاد » ، ثم قرع ناقوس الخطر قائلاً : « لقد كان محل الغارة اليوم ، نادياً ديموقراطياً في مونتروز Montrose ... وليس ثمة ما يمنع ان يكون محل الغارة ، في غد ، جماعة يهودية ، او جماعة جمهورية ، او جماعة زنجية ، او جماعة عمالية .. »

●

وكما كان يقع في اوروبة في ظل الفاشيّة ، تعرّض الشيوعيون في الولايات المتحدة لاضطهاد عنيف يهون بالقياس اليه كل اضطهاد .

ففي كولومبوس ، أوهيو ، اقتحم بضع مئات من الرجال ، مساء ٣٠ آذار ١٩٤٨ ، منزل فرانك هاشمال Hashmall سكرتير الشعبة المحلية للحزب الشيوعي . واذ لم يجدوا هاشمال ، الذي أخذ حِذْره من الغارة قبل وقوعها فحمل أسرته الى منزل أحد الاصدقاء ، فقد عاثوا في البيت فساداً ، ممزّقين الكتب ، مهشمين الأثاث ، محطمين النوافذ . وحين استدعي رجال الشرطة الى مكان الحادث وقفوا فترة يتطارحون النكات مع السفلة المغيرين ثم انقلبوا على أعقابهم ...

LAU Riyad Nassar Library

ولم يُلقَ القبض على أيما رجل من ابطال الغارة ...

وعندما طُلب الى حاكم ولاية أوهيو، توماس هيربرت، ابداء رأيه في الغارة اجاب بقوله: « إنها لا تعدو ان تكون حادثاً فَقَد فيه بعض الاشخاص عقولهم... والواقع ان المغيرين لا يؤلفون جماعة منظمة على الاطلاق. ولست ارى من الحكمة ان أتدخل في الامر. » ثم انتقل الحاكم الى القول: « ومهما يكن من شيء، فعلى هاشمال ان يعود الى الروسيا... نحن لا نحب الشيوعيين ولا نريد أحداً منهم في أوهيو. انها ليست تلك الولاية التي ترغب فيهم. »

« د » هل هذه هي اميركة ؟

كتب ابراهيم بومرانتز في عدد كانون الاول سنة ١٩٤٧ من « الصحيفة البروتستانتية » يقول « تشهد البلاد اليوم حملة هستيرية موجهة، في الظاهر، ضد الهدف الذي يزداد شعبية يوماً بعد يوم: الشيوعيين. ولكنك لا تكاد تتعمق درسَ هذه الحملة حتى يتبدّى لك ان الهجوم يهدف في الواقع الى القضاء على كل مقاومة لموجة الحرب والرجعية الآخذة في الامتداد. »

واستطرد بومرانتز فقال:

« والخطة التي اقتبست عن النازيين إنما تجري هكذا:

تُلقي الصحف والاذعات، في رُوع الرأي العام، ان الخطر الشيوعي بات يهدّد كيان البلاد كلها، فتحرص على ان تُقدم اليه أنباء مثيرة تدور على محور التجسس لاستراق أسرار القنبلة الذرية، والتآمر لقلب نظام الحكم، والخيانة العظمى ...

LAU Riyad Nasser Library

حتى إذا انتهت هذه المرحلة اصبح الرأي العام مستعداً للمرحلة الثانية: اطلاق صفة « الاحمر » من غير ما تمييز على عناصر المعارضة جميعاً. »

وكان يحمل لواء المعارضة لسياسات الحكومة الداخلية والخارجية، سنة ١٩٤٨، الحزب التقدمي بزعامة نائب الرئيس السابق، هنري ا. والاس Wallace.

●

في ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ تألفت لجنة قومية لرفع هنري والاس الى مقام الرئاسة. وكان يرأس هذه اللجنة ألمر بنسون Benson، حاكم مينيسوتا Minnesota التقدمي السابق.

وقد أوضح ألمر بنسون، بخطاب ألقاه في أول اجتماع عامّ عقدته تلك اللجنة في شيكاغو، نيسان سنة ١٩٤٨، السبب الذي من اجله « اضحت الحاجة ماسّة الى انشاء حزب جديد » فقال: « بعد غدٍ تنقضي ثلاثة اعوام على وفاة فرانكلين ديلانو روزفلت. وقد حدثت خلال هذه المدة القصيرة تغيرات عميقة مشؤومة في بلادنا ... ذلك بأن امتنا خطت في عهد الرئيس روزفلت الذي دام ثلاث عشرة سنة خطواتٍ واسعة في سبيل الفوز باسلوب في الحياة آمنٍ مطمئنٍ جديرٍ بأن يجعل للعيش معنى ... ولكن حكومة الولايات المتحدة ما لبثت ان وقعت، بعد وفاة روزفلت، في ايدي تلك الزمرة البالغة النفوذ، التي كان الرئيس السابق يدعوها « جماعة الملكيين الاقتصاديين ». وإذ وُفقت هذه الزمرة الى السيطرة على الحزبين الرئيسيين جميعاً فقد سعت الى ان تبسط

سلطانها على السوق العالمي كله ، ولو أدّى ذلك الى توريط بلادنا في حرب عالمية جديدة . ولما كان جزء من حملتهم يُشَنّ باسم الجهاد ضد الشيوعية فقد قاموا بهجوم عنيف على حقوق المواطنين الاميركيين المدنية والسياسية ...وعندما تنتهي حكومةٌ ما الى ان تصبح غير ممثلة للشعب ، وعندما يصبح الرجال القابضون على أزمّة السلطان السياسي أجراء يخدمون مصالح القلة ذات الامتياز ، يكون الوقت قد حان للتنكر لتلك الحكومة واقصائها عن محلّ السلطة ... وها هو الوقت ، الآن ، قد حان ! »

ولم تنقضِ بضعة اشهر حتى انشئت لجانٌ فرعية لضمان النصر لهنري والاس ، في اثنتي عشرة ولاية ، وحتى عُقدت اجتماعات جماهيرية كبرى لتأييد والاس ، في نيويورك ، وفيلادلفيا ، وديترويت ، وشيكاغو ، ولوس انجيلوس ، وغيرها من عواصم البلاد .

وفي المؤتمر التأسيسي الذي عقده الحزب التقدمي في فيلادلفيا ، في ٢٢ - ٢٥ تموز ، والذي شهده ٣٢٤٠ مندوباً وفدوا من ثماني واربعين ولاية ، اختير هنري والاس مرشحاً للرئاسة ، واختير الشيخ غلن تيلور Tylor مرشحاً لنيابة الرئاسة .

ومنذ اللحظة الاولى ، استهدفت حركة والاس لهجوم ظالمٍ عنيف . فاذا بصحافة البلاد ودور الاذاعة فيها تزعم ان الحزب التقدمي « منظمة شيوعية تتلقى الأوامر من موسكو » ...واذا بالرسوم تصوّر هنري والاس على هيئة « حالم مشوّش الافكار جعلَ من نفسه ناطقاً بلسان ستالين في أميركة » . واذا بنعوتٍ

Riyad Nassar Library

من مثل « آلات الكرملين المسخرة » ، و « الرتل الخامس العامل لمصلحة الروسيا » ، و « الخونة الذي باعوا البلاد » تُلصق بأعضاء الحزب التقدمي من كل حدبٍ وصوب .

وفي الكونغرس دعا ممثلون عن الأمة في المجلسين الى اجراء تحقيق فدرالي في امر الحزب التقدمي . واعلن الشيخ سكوت لوقاس Lucas ، ممثل ولاية ايلينويز ، ان « كل من يصوّت لهنري والاس انما يصوّت للكرملين . »

وفي مؤتمر صحفي عقده ترومان في البيت الابيض تساءل الرئيس : « ولكنْ لمَ لا يذهب والاس الى الروسيا ؟ » ...

وبينا كانت الدعاية المناوئة لوالاس تقوى وتشتد كانت التدابير التعسفية تُتخذ ضد الحزب التقدمي في طول البلاد وعرضها .

لقد أوصدت قاعات عامة كثيرة في وجهه . وحُرم الحقَّ في عقد الاجتماعات في زوايا الشوارع ، وحُظر عليه توزيع منشوراته الانتخابية ، واعتُقل نفرٌ من خطباء الحزب البارزين .

وفيما رفضت عدة صحف نشر اعلانات الحزب التقدمي ، ولو بأجرٍ ، أخذت صحف بيتسبورغ ، وبرمنغهام ، ودانبوري ، وغيرها من المدن تنشر اسماء الذين وقعوا عرائض تطالب بقبول ترشيح والاس للرئاسة ، وعناوينهم . كذلك تعرّض التجار الصغار الذين أعلنوا تأييدهم للحزب التقدمي لمقاطعة منظمة ، وخسر كثيرٌ من الرجال والنساء اعمالهم ، لا لشيء ، غير تعليقهم أزرار والاس على صدورهم .

وما اكثرَ الاساتذة الذين أخرجوا من مناصبهم في الجامعات

والكليات بسببٍ من عطفهم على والاس ، او نشاطهم من اجل إنجاحه . ومن هؤلاء الدكتور كلارنس آثيرن Athearn أستاذ الفلسفة في كلية ليكومنغ Lycoming ببنسلفانيا ، والدكتور جورج باركر Parker استاذ الدين والفلسفة في كلية ايفانزفيل Evansville بأنديانا ، والاستاذ كلايد ميلر، الثقة في شؤون الدعاية، في جامعة كولومبيا، والاساتذة ليونارد تشوزن Chosen وتشارلز دايفيس Davis ودانيال آشكنز Ashkenes الاعضاء في هيئة التدريس في جامعة ميامي ...

ليس هذا فحسب . بل لقد صرّح هاري توي Toy ، مدير الشرطة في ديترويت ، بأنه يعتقد ان اعضاء الحزب التقدمي أعداء لأميركا ، ومثل هؤلاء الاعداء « ينبغي ان يُقتلوا ، او يُطردوا الى خارج البلاد ، او يُلقى بهم في غياهب السجون ... »

وقام خصوم الحزب، في عدد غير يسير من الولايات، بمحاولات علنية لحرمانه الحق في خوض معركة الانتخاب .

وفي ٤ حزيران أعلن أدورد هومل Hummel ان الحزب الجديد لن يسمح له بخوض معركة الانتخابات في ولاية أوهيو بعد ان تلقى الدليل القاطع من مكتب المباحث الاتحادي F. B. I. على ان انصار والاس يدعون الى قلب الحكومة الاميركية «عنوة» و«عنفاً» .

وفي ولايتي نبراسكا واوكلاهوما حظر على الحزب التقدمي خوض المعركة لأسباب تِقْنية أو فنية .

وعلى الرغم من ان مئة الف من مواطني « ايلينويز » تقدموا بعرائض يطلبون فيها إنصاف الحزب التقدمي، فقد حيل بين هذا

Riyad Nasser Library

الحزب وبين خوض المعركة في طول الولاية وعرضها، باستثناء قضاء كوك بحجة انه لم يستكمل الشروط التِّقْنية التي ينص عليها القانون .

ولم يتورّع خصوم الحزب التقدمي عن الاغارة على مكاتبه يحطمون ابوابها ونوافذها ، ويضعون اليد على ما حُفظ فيها من اوراق وسجلات ...

وفي ٦ نيسان عقد والاس اجتماعاً شعبياً في مدرّج ايفانزفيل الكبير ، بولاية انديانا، فما كان من بعض الاشقياء الا ان اقتحموا البناء وحاولوا ان يشقوا طريقهم ، عنوة ، الى حيث كان والاس يخطب الناسَ . وبعد مناوشات ضارية أصاب اذاها كثيراً من اعوان والاس البارزين ، رُدّ المعتدون على اعقابهم .

وفي أوغوسطا Augusta، جورجيا ، مرَّ نفرٌ من انصار الحزب التقدمي بتجربةٍ مريعة. وقد روت الآنسة رودا آشر Ascher أحد هؤلاء الانصار، حكاية تلك التجربة في مقال نشرته بعدُ في صحيفة « نيويورك ستار » فوصفت « كيف اغارت عصابة من الاشرار حاملي البنادق والمسدسات على المنزل الذي اجتمع فيه انصار والاس »، و« كيف عمد واحدٌ من افراد هذه العصابة الى ضرب فوربس Forbes (من انصار والاس) بعقب بندقيته ، على رأسه ، فخر على الارض والدم يتدفق من جرحين بليغين في جبهته . »

وبلغت حملة العنف المنظمة ضد الحزب التقدمي أوجها عندما بدأ والاس جولته الانتخابية في الجنوب، أواخر الصيف من ذلك العام .

وقد استهل والاس هذه الجولة بخطاب ألقاه في مؤتمر الحزب التقدمي الذي عُقد في دورهام ، كارولينا الشمالية ، في ٢٩ آب .

ولم يكد شمل النظارة يجتمع حتى هاجم الأوباش بعض اعضاء المؤتمر «ورُمي النظارة بالبيض – كما تقول صحيفة « تايم » – وفُجّرت المفرقعات النارية والقنابل النتنة . » وأخيراً وضع رجال الشرطة ورجال الحرس الوطني حداً للشغب ، بعد ان طُعن احد طلاب جامعة كارولينا الشمالية المؤيدين لولاس ، في ذراعه وظهره .

وفي اليوم التالي قصد والاس الى مدينة بورلنجتون Burlington في كارولينا الشمالية ، ليلقي خطاباً انتخابياً في ابنائها . ولكنه لم يكد يترجل من سيارته حتى أُمطر بوابلٍ من البيض والطماطم وجوبِهَ بعاصفة من الحوار والصياح: «لماذا لا ترجع الى الروسيا؟». وفي غير ما تردد شقّ والاس طريقه وسط الزحام، حتى اذا واجه عدداً من خصومه تساءل : « هل هذه هي أميركة ؟ »

وفي مختلف المدن التي زارها والاس في جولته الجنوبية استقبله من لا خلاق لهم بضروب الاهانة الشخصية ، ورشقوه بالبيض والطماطم وما اليهما، وعملوا على تعطيل اجتماعاته بأحداث الشغب والفوضى.

ولم يسجل تاريخ الولايات المتحدة ان مرشحاً للرئاسة تعرّض للاذى والاهانة والتهديد بقدْر ما تعرّض لها هنري والاس .

ولم تذهب الأشهر التي قضاها خصوم الحزب التقدمي في الدعاية ضده، والتهويل عليه ، والامعان في إيذائه ، أدراج الرياح. فقد كانت تقديرات المقدّرين لقوة والاس الانتخابية تتراوح ما بين خمسة ملايين صوت وعشرة ملايين صوت. ولكن عدد الاصوات التي نالها والاس فعلاً ، يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، لم يزد على ١،١٣٧،٩٥٧ صوتاً .

١٠ . مأساة الزنوج ...

•

« ليس لايما رجل ملوّن تعمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عملٌ ما في ولايات الجنوب. إن هذه البلاد ملك للرجل الابيض ، ويجب ان تظل كذلك ... »

عضو الشيوخ جيمس بيرنز ،
في ٢٥ آب ١٩١٩

« أ » باسم الحرية

في ايلول سنة ١٩٤٧ طاف « قطار الحرية » بالولايات المتحدة – وقد صُبغ رمزياً بالاحمر والابيض والازرق – يجرّ وراءه ثلاث عربات للعرض تحتوي على مئة واحدى وثلاثين وثيقة وعَلماً « تمثل تطور الحرية في الولايات المتحدة. » ومن نكد الدنيا ان يكون النائب العام ، كلارك ، هو الموحي بفكرة هذا الطواف الذي شمل الولايات كلها ، وان يكون الرئيس ترومان اول من يقرّ الفكرة ويؤيدها .

وقد جرت هذه الحملة الدعاوية تحت إشراف «مؤسسة التراث الاميركي» التي يرئس هيئة أمنائها وينتروب آلدريش Aldrich مدير

مصرف تشايس الوطني .

وقد جاء في بيان «مؤسسة التراث الاميركي» الشارح لاغراض هذه الحملة :

«سوف نعلنها عقيدةً أساسية ان جوهر الديموقراطية هو قدسية الفرد ... لقد وُلد الناس ليكونوا احراراً، لان الناس الاحرار هم وحدهم الذين يستطيعون ان يمشوا على الارض مرفوعي الرأس. اننا سوف نؤكد حقيقة ان بلادنا تؤمن بوحدة الشخصية الفردية وحريتها في الطموح الى اسمى مراتب التطوّر . »

وأكّدت المؤسسة ان المباديء التي تعمل على نشرها ذات مضمون دولي ، وليست ذات مضمون وطني فحسب :

« ونحن عندما نتحدث عن « اسلوبنا في الحياة » إنما نتحدث في الواقع عن الآمال التي تداعب الملايين من البشر في بلدان العالم كله . فليس ثمة حدود جغرافية لسعي البشر العالمي الى التحرّر .. وانما يتعين علينا دائماً ان نجعل من «اسلوبنا في الحياة» أسوة حسنة لسائر الشعوب » .

ومن عجب ان هذه التصريحات المتنطسة حول الديموقراطية الاميركية جاءت في وقت تعرضت فيه حريات الاميركيين لهجوم لم تشهد له ضريباً في عهد من العهود . ولو قد جاءت في غير هذا الوقت اذن لاصطدمت بمظهر قبيح من مظاهر « اسلوب الحياة الاميركية » لا يصلح ان يكون قدوة لسائر الشعوب ، على وجه القطع ...

أشير بذلك الى هذه الواقعة البغيضة الفاجعة التي تصرخ بأعلى

الصوت ان ١٥٬٠٠٠٬٠٠٠ أميركي - اي واحداً من كل عشرة اميركيين - محكوم عليهم منذ ساعة الميلاد بان يظلوا طوال حياتهم مواطنين من الدرجة الثانية ، مواطنين خاضعين لأبشع ضروب الكبت والاضطهاد والمهانة .

فبعد مئة وخمسين سنة، او يزيد، من تأسيس الجمهورية الاميركية على المبدأ الاساسي القائل بان الناس جميعاً يخلقون متساوين، وبعد نحو مئة عام انقضت على توقيع « اعلان التحرير » ، لا يزال المواطنون الزنوج يعيشون في اميركة حتى هذه الساعة، في ظروف لا تليق بكرامة الانسان .

•

« ليس من شك في أن العرق لم يُتخذ في بلدٍ ما - باستثناء افريقية الجنوبية - وسيلةً الى اضطهاد شعبٍ من الشعوب كما اتخذ في هذه البلاد ... لقد انتهى الرقّ بوصفه امتلاكاً للعبيد، ولكنه باقٍ ما يزال بوصفه نظاماً طبقياً . وانما يُقصد به اليوم الى ابقاء الملونين في مركز أدنى من ذلك الذي يتمتع به البيض، ويُتوسل الى ترسيخه بطرائق مختلفة، فهي حيناً أحكام قتلٍ او اعدامٍ ينزله الجمهور الأرعن في الزنجي ، بمعزلٍ عن السلطة الحاكمة، وهي حيناً تشريعات مجحفة واجراءات قانونية ظالمة ، وهي حيناً عاداتٌ وتقاليد ما انزل الله بها من سلطان . »

هذا ما كتبه هاري هايوود Haywood ، سنة ١٩٤٨ ، واصفاً وضع الزنوج الاميركيين في كتابه « تحرير الزنوج » .

ولكن بعض الثغرات ما لبثت ان أحدثت في اسوار هذا

النظام الطبقي الاميركي ، خلال الفترة التي وُضع فيها « المسلك الجديد » موضع التطبيق في البلاد ، وفي سنوات الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص . وبنموّ حركة التنظيم النقابي وُفق عشرات الألوف من الرجال والزنوج والنساء الزنجيات الى شغل أعمال كان يحال بينهم وبين توليها ، من قبل ، بوصفها اعمالاً تقتضي بعض البراعة . ثم تضاعفت حاجة القوات المسلحة الى القوى البشرية فأدى ذلك الى تحطيم كثير من الحواجز التي كانت تعوق انخراط الزنوج في مختلف فروع النشاط العسكري .

حتى اذا وقّعت الهدنة أطلعت السياسات القديمة رأسها قليلاً قليلاً . وفي صيف سنة ١٩٤٦ كفّ الجيش عن قبول الزنوج في صفوفه ؛ وبعد بضعة اشهر خُيّر جميع الزنوج العاملين في السلاح البحري بين الصرف وبين الانتقال الى شعبة الخدمة المدنية في الاسطول.

وفي ميدان الصناعة انتهى الزنوج الى ان يصبحوا ، شأنهم في الايام السالفة ، آخر من يُستخدم ، واول من يُفصل من العمل. وفي ما بين تموز ١٩٤٥ ونيسان ١٩٤٦ ازداد انتشار البطالة بين العمال الزنوج ضعفَ ازدياده بين العمال البيض . .

وهكذا تبنّت الدولة سياسة اضطهاد الملونين ، فهي قانون البلاد .

وفي ميسور المرء أن يكوّن فكرة عن حالة الزنوج في الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية ، اذا ما علم ان اضطهاد الملونين هو في الواقع جزء من سياسة الدولة ، تنص عليه الدساتير المحلية في كثير من الولايات . ودونك هذه الفقرات من دستور ولاية

Riyad Nasser Library

ميسيسيبي :

الفصل الثامن ، في التربية والتعليم ، الفقرة ٢٠٧

« يراعى في هذا الحقل ان يفصل اطفال البيض عن اطفال الزنوج فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة . »

الفصل العاشر ، في الاصلاحات والسجون ، الفقرة ٢٢٥

« للمجلس التشريعي ان يهيء الاسباب الآيلة الى فصل المساجين البيض عن المساجين السود جهد الطاقة والامكان .

الفصل الرابع عشر ، أحكام عامة ، الفقرة ٢٦٣

« ان زواج شخص أبيض من شخص زنجي او خلاسي أو من شخص ثُمن الدم الذي في عروقه دم زنجي يعتبر غير شرعي وباطلاً . »

ولعل أعجب ما في قوانين ولاية مسيسيبي النصّ التالي :

« كل من يطبع وينشر أو يوزع منشورات مطبوعة أو مضروبة على الآلة الكاتبة أو مخطوطة باليد تحض الجمهور على إقرار المساواة الاجتماعية والتزاوج بين البيض والسود أو تقدّم اليه حججاً واقتراحات في هذا السبيل يُعتبر عمله قباحةً يعاقب عليها القانون ويحكم عليه بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دولار أو بالسجن مدةً لا تتجاوز ستة أشهر أو بالعقوبتين معاً . »

وفي وثيقة قدمت في شهر شباط ١٩٤٧ الى « الامم المتحدة » تحت عنوان « نداء الى العالم » نصّت « الجمعية الوطنية لترقية الشعب الملوّن » على ان « تشريعات مماثلة لتشريعات ولاية ميسيسيبي تطبق أيضاً في فرجينيا ، وكارولينا الشمالية ، وكارولينا الجنوبية ، وجورجيا ، وألاباما ، وفلوريدا ، ولويزيانا ، وآركانساس ، وأوكلاهوما ، وتكساس . ومثل تلك التشريعات ، ولكنها أقل

قسوةً ، تُطبق في ديلاوار ، وفرجينيا الغربية ، وكنتاكي ، وتنيسي ، وميزوري ... وهناك ثماني ولايات شمالية تحرم التزاوج بين البيض والسود ، وهي كاليفورنيا ، وكولورادو ، وايداهو ، وانديانا ، ونبراسكا ، ونيفادا ، وأوريغون ، وأوته ... »

ويتابع النداء بسط المظالم التي يعانيها الملوّنون في الولايات المتحدة فيقول :

« وفي عشرين ولاية من ولايات البلاد يفصل ما بين الطلبة البيض والطلبة السود في المدارس ، فصلاً إلزامياً . أما ولاية فلوريدا فتقضي قوانينها بان تخزن الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج في معزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض .

« وفي أربع عشرة ولاية من ولايات البلاد يفرض القانون عزل ركاب القطر الحديدية البيض عن ركابها السود ... في حين يفرض القانون اقامة غرف مستقلة للبيض والسود ، في ثماني ولايات . أما في سيارات « الاوتوبيس » فالعزل مطلوب في احدى عشرة ولاية ...

« وثمة قوانين تقضي بالفصل ما بين المرضى البيض والمرضى السود في المستشفيات . وفي إحدى عشرة ولاية يفصل ما بين المصابين بالامراض العقلية على أساس اللون والعرق ايضاً ...

« والفصل مطلوب بين البيض والسود في السجون والمؤسسات الاصلاحية في احدى عشرة ولاية من ولايات الاتحاد .

« وثمة قوانين تقضي بعزل البيض عن السود في شؤون كثيرة لا مجال لتعدادها هنا . ولكن إيراد بعض الأمثلة قمين بان يوضح مدى الظلم اللاحق بالعناصر الملونة ، بقوة القانون . ففي اوكلاهوما يفرض القانون إقامة غرف تلفونية مستقلة للزنوج ، وفي تاكساس يحظر على المصارعين البيض أن ينازلوا المصارعين السود ، وفي كارولينا الجنوبية لا يسمح للعمال الزنوج والبيض بأن يقيموا على صعيد واحد ، في مصانع النسيج القطني ، ولا يجاز الزنوج ان يدخلوا او يخرجوا من الابواب عينها التي يدخل منها البيض ويخرجون . »

وفي نهاية الحرب كان خمسة ملايين زنجي يقطنون « النطاق الاسود » Black Belt في الجنوب ، وكان اكثرهم يعيش في حال من العبودية الفعلية او الاسر الالزامي في الاراضي المزروعة قطناً . وعلى الرغم من ان الزنوج يؤلفون نحواً من ستين بالمئة من سكان « النطاق الاسود » الذي ينبسط على اثنتي عشرة ولاية من ولايات الجنوب ، فقد حُرِمَت كثرتهم الكبيرة حقّ التصويت . اما الوسائل التي اصطُنعت لأقصاء المواطنين الزنوج عن صناديق الاقتراع فقد تراوحت ما بين ضريبة الاقتراع وغيرها من الطرائق « الشرعية » وبين ضروب الترهيب والتنكيل على أيدي الجماعات المتعصبة الجاهلة .

وليست الحال افضل بكثير في ولايات الشمال .

ففي جميع المدن الشمالية الكبرى تجد الكثرة الساحقة من السكان الزنوج محشورة في احياء قذرة تتألف من بيوت خشبية متداعية تسرح فيها الفئران والجرذان ، وتندلع في جنباتها ، كل يوم ، ألسنة النيران . وتبلغ كثافة السكان في الحيّ الزنجي ٩٠،٠٠٠ شخص في كل ميل مربع ، في منطقة حدّدت السلطات الصحية كثافة السكان المثلى فيها بـ ٣٥،٠٠٠ شخص لكل ميل مربع . وفي هارلم Harlem — حيّ الزنوج بمدينة نيويورك — يبلغ متوسط السكان في كل وحدة من وحداته ٣،٧٨١ شخصاً . وقد قالت صحيفة Architectural Forum تعليقاً على هذا الوضع : « لو اتخذنا كثافة السكان في حيّ هارلم قاعدةً وحاولنا ان نطبقها على سكان الولايات المتحدة كلها لكان في ميسورنا ان نحشرهم جميعاً في نصف مدينة نيويورك ... »

وبسبب من القيود الرسمية وغيرها من الوسائل « الشرعية » وبسببٍ من الاضطهاد الشعبي الآثم اضطرّ الزنوج إلى ان يتكأكأوا في احيائهم السوداء ... وفي ما بين ١٩٤٤–١٩٤٦ شُنّ في مدينة شيكاغو وحدها تسعة وخمسون هجوماً على منازل المواطنين الزنوج الذين حاولوا السكنى في مناطق البيض. ولم يُلق القبض على متهم واحد في هذه الجرائم جميعاً ...

وفي تقرير نشره « مكتب التربية الاميركي » درسَ الاستاذ براون احوال العيش في الأحياء الزنجية في كثير من انحاء الولايات المتحدة فقال: «إن تعبيد الطرق، وإنارة الشوارع ، ومدّ انابيب الأقذار، وحماية البوليس كثيراً ما تنتهي حيث يبدأ القسم الزنجيّ من المدينة ... وليس يوجد في كثير من المناطق أيما مستشفى يستطيع الزنجي ان يطرق بابه . أما الخدمات الطبية والتمريضية فهي في الاعم الاغلب غير وافية او مفقودة بالكلية . »

وفي شيكاغو ونيويورك بلغت نسبة الاصابات بالسل ، بين المواطنين الزنوج، سنة ١٩٤٧، خمسة اضعاف نسبتها بين المواطنين البيض. وبلغت في نيوارك Newark ، نيوجيرزي ، سبعة اضعاف هذه النسبة تقريباً . وبلغت نسبة الوفيات بين الأمهات الزنجيات اللواتي وضعن أحمالهن ضعفَ نسبتها بين الواضعات من الأمهات البيض . في حين سجلت نسبة الوفيات بين الاطفـــال الزنوج ارتفاعاً قدره ٧٠ ٪ عما هي عليه بين الاطفال غير الملوّنين .

اما متوسط عمر الانسان بين الاميركيين الزنوج فكان أدنى من متوسط عمر الانسان بين الاميركيين البيض بعشر سنوات كاملة!

« ب » في عاصمة البلاد

« ان عاصمة البلاد ، وإن تكن واقعة شأن عاصمتنا على ساحل البحر ، ينبغي ان تشيّد ، بمعنى حقيقي ، على شَرَف من الارض حتى ليتعذر حجبها او اخفاؤها ... يجب ان تكون العاصمة رمز الجمهورية الكبيرة وتمثالها المنظور . »

هكذا صرّح القاضي وندل فيليبس ستافورد Stafford ذات يوم .. والذي أراه ان واشنطون ما بعد الحرب ، بأبنيتها المشيدة بالحجر السماقي الجميل ، ومعالمها التاريخية الفخمة، وشوارعها العريضة المزنّرة بالاشجار ، ما كانت ، الا في الظاهر ، رمزاً جديراً بتقاليد الجمهورية الاميركية العظيمة ... والواقع ان الجمال الظاهري كان يخفي وراءه قباحات صارخة من التعصب العرقي الشنيع ضد جميع أولئك الآدميين الذين وُلدوا وبشرتهم غير بيضاء ...

فعلى مرمى النظر من البيت الابيض، وفي ظل نُصُب لنكولن التذكاري الجميل ، ينبسط حيّ بشع يعيش فيه مئتان وخمسون ألف زنجي ، اي ربع سكان العاصمة ، كما تعيش الحيوانات في زرائبها . وفي عاصمة البلاد ، بلادِهم ، يُحظّر على الزنوج ان يَلجوا ابواب الفنادق والمطاعم والمسارح الخاصة بالبيض ، ويُنكر عليهم حق الاختلاف الى المخازن الرئيسية، ويكرَهون على ان يعلّموا أولادهم في مدارس مستقلة ويعالجوا مرضاهم في مستشفيـــات خاصة ، ويُرغمون على ان يتناولوا طعامهم ، واقفين غير قاعدين، في المحالّ التي تقدم الى زبائنها المآكل الخفيفة ...

وفي سنة ١٩٤٧ أعلن صاحب مقبرة للكلاب في واشنطون، انه لن

يقبل، منذ اليوم، جثث الكلاب التي يملكها زنوج. وقد شرح موقفه ذاك بقوله انه يعلم ان جماعة الكلاب لن تجد غضاضة في ان تُدفن كلها في جبّانة واحدة، ولكنه لاحظ ان زبائنه البيض قد ساءهم ان تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة، بعد الوفاة ...

وبعد زيارة قام بها الى عاصمة الولايات المتحدة، صرح احد الهنود بقوله: « إني لأوثر ان أكون منبوذاً من منبوذي الهند على ان اكون زنجياً في واشنطون ! »

وفي الكتيب * الذي نشرته، في تشرين الثاني ١٩٤٨، اللجنة القومية للقضاء على مبدأ النبذ العِرقي في الولايات المتحدة، وردت الفقرة التالية:

« كثيراً ما وجّهتْ وزارة الخارجية الاميركية احتجاجات شديدة اللهجة الى بعض الدول التي تحاول تحديد تنقّلات ممثلينا في الخارج. ولكن واشنطون هي العاصمة الكبرى الوحيدة التي يتعين فيها إحاطة الضيوف الأجانب بمرافقين يلازمونهم حيثما قصدوا خشية ان توجه اليهم صنوف الاهانة بسبب من لون بشرتهم. »

وضرب الكتيّب بعض الامثلة على ذلك فقال:

« دعت وزارة الخارجية الاميركية، اثناء الحرب الماضية، وزير خارجية احدى الدول الافريقية، لزيارة واشنطون، وحجزت له نزلاً في بعض الفنادق. واتفق ان وصل الوزير الافريقي الى العاصمة الاميركية في موهن من الليل، فما كان من المسؤولين في الفندق الا أن أبوا استقباله. ولم تنته هذه المأساة الا بعد ان انتزع احد موظفي وزارة الخارجية الاميركية من فراشه وبذل غاية الجهد لاقناع

* Segregation in Washington — A Report of the Nation Committee on Segregation in the Nation's Capital.

ادارة الفندق تلفونياً، باستقبال الوزير على اعتبار ان ذلك الاستقبال « ضرورة من ضرورات الحرب »...

ومن تلك الامثلة ايضاً هذه الحادثة المضحكة المبكية:

دخل احد مواطني جمهورية بناما الاتقياء الى كنيسة كاثوليكية في واشنطون. وفيما هو مستغرق في صلاته سعى اليه أحد القسس وقدم له قصاصة من ورق. وكان مكتوباً على تلك القصاصة عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية. وحين سئل القس عن السبب الذي من اجله تصرف هذا التصرف أجاب قائلاً إن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الاسود ان يقف فيها بين يدي ربه ...

ولكن واشنطون تميز عادة بين اصحاب الجلدة القاتمة من الضيوف الاجانب، وبين اصحاب الجلدة القاتمة من المواطنين الاميركيين. « فالكثرة الساحقة من مطاعم العاصمة ومحالها التجارية تحرص أشدّ الحرص » -- كما تقول اللجنة القومية لمكافحة مبدأ النبذ العرقي -- « على أن تميز بين الزنوج الاميركيين وبين الاجانب من ذوي البشرة الداكنة، وتسعى الى ان تعامل هؤلاء الاجانب معاملة الاشخاص ذوي البشرة البيضاء ... وكثيراً ما يُسمح للزنجي الاجنبي بأن يتناول طعامه، وهو قاعد، في تلك الاركان التي تقدم الى الناس المآكل الخفيفة، اذا ما كان يحمل جوازاً ديبلوماسياً، او اذا ما استطاع ان يقيم الدليل، بطريقة ما، على أنه ليس زنجياً اميركياً ».

●

وليس يحق لأصحاب الأراضي والعقارات في الجزء الابيض من واشنطون أن يبيعوا أو يؤجروا أو يهبوا أيما أرض أو عقار لشخص ملوّن، أو لجماعة ملوّنة.

ان على الزنوج ان يبقوا حيث هم ، في حيهم الأسود الرهيب .

وقـــد وصف آغنس ماير Meyer الحي الزنجي في واشنطون بمقال نشره في صحيفة « واشنطون بوست » وصفاً يشيب لهوله الولدان . واليك مقاطع من ذلك المقال :

« لقد طوفت اثناء الحرب في مناطق تعتبر مثلاً يضرب في سوء الاحـوال المعيشية العامة . ولكني لم أشاهد ، لا في الحي الزنجي القذر في ديترويت ، بل ولا في الاحياء الزنجية النتنة في المدن الجنوبية ، مخلوقات بشرية تعيش في مثـل البؤس الذي يتردى في حمأته زنوج العاصمة ، واشنطون ..

لقد جزئت البيوت ليسكنها عدة أسر ، بل لقد جزئت الغرف الصغيرة ، وهي اقذر من أن تزرب فيها الحيوانات ، ليكون في امكانها ان تؤوي أكبر عدد ممكن من البشر .

ففي ساحة « يورك » غرفـــة تغص بأربعة عشر زنجياً وزنجيـــة ، وفي « الشارع التاسع » منزل صغير يشرق بتسعة عشر ساكناً . في حـــين تعيش امرأة وثلاثة اولاد في الدور الأدنى من البناء ...

وليس نادراً أن تجد في ذلك الحي ستة اشخاص يقطنون غرفة واحدة ، وينامون في فراش واحد في بعض الاحيان ... »

وفي ١٤ نوار سنة ١٩٤٨ ظهرت صحيفة « نيويورك تايمس » وفي احدى صفحاتها الأولى عنوان ضخم يقول : « التعصب العرقي في واشنطون يحرم واحداً وخمسين فتى متعة الرحلة الى العاصمة . »

أما القصة فاليك طرفاً منها نقلاً عن الصحيفة الآنف ذكرها :

« لقد بددت أمس أحلام واحـــد وخمسين فتى نيويوركياً في قضاء بضع ساعات بين معالم الحرية والتاريـخ في العاصمة ، بسبب من التعصب ضد الزنوج وما يلزم عنه من قواعد التمييز العرقي المعمول بها في واشنطون . وكان هؤلاء الفتيان جميعاً من رابحي الانواط في مسابقات « السلامة المدنية » في نيويورك ..

ذلك بأنه كان بين هؤلاء الفتيان المجلين في تلك المسابقات أربعة فتيان زنوج ... فلما حاول نادي السيارات ان يحجز لهم جناحاً ينزلون فيه مـــع

رفاقهم البيض طوال مقامهم في العـــاصمة أغلقت فنادق واشنطون أبوابهـــا دونهم . وهذا ما أدى الى الغاء الرحلة أمس ... »

وقد علقت صحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون » على هـذه الحادثة في افتتاحية لها فقالت : « ان الاهانة التي أُلحقت بفتيان نيويورك هؤلاء هي في الواقع سبة قومية ... »

ومما يزيد مأساة الزنوج ايلاماً ان حكومة واشنطون تبنت في السنوات الاخيرة سياسة التعصب المجرمة ضد أولئك البائسين فاذا هي تعمد الى اقصاء الزنوج من دوائرها جميعاً باستثناء بعض الوظائف الصغيرة ، الحقيرة .

« ج » هول في تنيسي

في صباح اليوم الخامس والعشرين من شباط سنة ١٩٤٦ وفي مدينة كولومبيا الصغيرة بولاية تنيسي ، قصد جيمس ستيفنسون ، وهو زنجي في التاسعة عشرة من عمره ترافقه أمه الى محل كاستنر ونوت Castner & Knot ليسترجعا جهازاً من اجهزة الراديو كانا قد عهدا الى ذلك المحل في إصلاحه .

ودفعت السيدة ستيفنسون فاتورة الاصلاح البالغة قيمتها ثلاثة عشر دولاراً . حتى إذا جربت الجهاز وجدته كعهدها به ، مايزال . فصاحت متعجبة : ثلاثة عشر دولاراً والراديو لايزال أخرس ! ؟.. »

وكأنما أثار هذا الكلام ، تطلقه زنجية سوداء ، حفيظة وليم فلمنغ Fleming ، مصلح الجهاز ، فهبّ من مكانه غاضباً يتوعد ، وأمر المرأة وابنها بمغادرة الدكان . وفيما هما يبرحان المكان دفع احد المستخدَمين جيمس ستيفنسون من خلاف ، ورفسَ فلمنغ السيدة

ستيفنسون بعقبه فخرّت لوجهها ...

عندئذ انقضّ الزنجي الشاب – وهو من مجندي الحرب الماضية – على فلمنغ ولكمه لكمة طرحته أرضاً، وحطمت واجهة العرض. فما كان من جارٍ له بدّال إلا ان هرع لنجدته صارخاً : « اقتلوا ابن الزانية !»، وتجمهر جمع غفير، وصاح بعضهم : « فلنقتصّ * منهما ! »

ووصل نفرٌ من رجال الشرطة الى مكان الحادث، ورفع أحدهم هراوته الفارعة فوق رأس ستيفنسون. فصرخت السيدة ستيفنسون في وجهه : « لا تضربْ ولدي ! » فما كان من الشرطي إلا ان انقلب إليها وضربها بالهراوة في غير ما رحمة ولا استبقاء .

وألقي القبض على ستيفنسون وأمه .

وفي قاعة المدينة سأل قاضي الشرطة المعتقلين : « هل كنتما تتقاتلان مع وليم فلمنغ ؟ »

فأجابا أن نعم .

فقال القاضي : « اذن أحكم عليكما بخمسين دولاراً . »

وهرع رجل الى قاعة المدينة. وابلغ القاضي ان الناس محتشدون في الخارج، وانهم يتحدثون عن ضرورة « الاقتصاص * » من الشاب وأمه .

فتلفت القاضي الى مأمور التنفيذ قائلاً: يحسن بك ان تتدبر أمر

* المقصود بالاقتصاص هنا انتقام الجمهور من زنجي ما وقتله، لسبب من الأسباب، بمعزل عن القضاء ومن غير ما انتظار لحكمه. وهو امر مألوف في الولايات المتحدة ويطلقون عليه لفظ Lynching [المعرب]

إخراج هذه المرأة وابنها من هنا فليس في استطاعتنا نحن ان نحميهما من غضب الجمهور . »

وأقبل مأمور التنفيذ ورجاله وحملوا الزنجيين الى السجن، وأوصدوا من دونهما الباب ...

ولم يُطلق سراح السجينين البائسين إلا بعد ان دفع احد التجار الزنوج الغرامة المفروضة عليهما .

وعند الغروب اجتمع نحوٌ من مائة شخص مسلح في باحة محكمة كولومبيا. وفيما كانت زجاجات الخمر تنتقل من يد الى يد، شرع المهيّجون يخطبون الجمعَ، ويحثونهم على السير الى حيّ الزنوج للانتقام من ستيفنسون وأمه ...

ولكن الجمع المحتشد لم يكن متلهفاً على غزو الحيّ الزنجي. فقد سرت اشاعة تقول إن المحاربين القدماء من الزنوج كانوا يعبّئون قواهم لمواجهة الاعتداء، وكلهم مسلح بالاسلحة الالمانية واليابانية وغيرها ...

وفي الحي الزنجي طاف نفر من المواطنين الزنوج الحي الأسود بيتاً بيتاً يحضّون السكان على إيصاد الابواب واجتناب الخروج الى الشوارع . وكان المحاربون القدماء من الزنوج قد جمعوا حفنة من الاسلحة ابتغاء اللجوء اليها، حين تمس الحاجة، دفاعاً عن ذويهم وبيوتهم .

حتى اذا هبط الليل كان الحيّ الأسود ساكناً سكون المقابر، فخلت الطرق من السابلة، ولم يبق فيها غير وحدات الاستطلاع والمراقبة. وغُلّقت الابواب والنوافذ، وخبيء الاطفال في الغرف

الخافية وفي العلالي . كان الحي كله صامتاً، مطفأ المصابيح، ممسكاً أنفاسه في انتظار المجهول ...

وبعد هنيهة طفقت السيارات المثقلة بالمسلحين من البيض تجوس خلال الحي . وشرع هؤلاء المسلحون يطلقون نيرانهم ، كيفما اتفق ، على الابنية الغارقة في الظلام ...

وهرعت سيارة تقلّ اربعة من رجال الشرطة الى الحي الزنجي . وإذ كانت هذه السيارة لا تحمل أيما علامة تنبيء عن هويتها فقد حسبها حُماة الحي إحدى سيارات المغيرين فصاح صائح منهم : « ها قد أقبلوا » وكان طبيعياً ان يطلق الزنوج النار دفاعاً عن انفسهم ، فارتد رجال الشرطة على اعقابهم ورجعوا الى ساحة المدينة ...

وفي الحال اتصل محافظ كولومبيا بالحاكم العام ماككورد McCord في ناشفيل Nashville وسأله ان يسيّر ، على وجه السرعة ، قوات الولاية المسلحة الى كولومبيا ...

وقبل ان يرتفع الضحى هبط خمسمائة رجل من قوات الولاية المزودين بالسلاح الكامل على مدينة كولومبيا الصغيرة؛ وكان على رأس هذه القوات اللواء يعقوب ديكنسون Dickinson وهناك انضم الى هذه القوات خمسة وسبعون رجلاً من حرس الولاية ، بقيادة لين بومار Bomar مدير شعبة السلامة العامة .

ومن غير ان يلقي بالاً الى جماهير البيض المسلحين الذين كانوا ما يزالون محتشدين في الساحة ضرب الجنرال ديكنسون نطاقاً من قواته حول الحي الأسود . حتى اذا تمّ له ذلك صرّح لرجال الصحافة بقوله : « لقد طوقنا العبيد السود . »

وفي الساعة الخامسة صباحاً شنت الغارة على الحي الزنجي . والحق ان الهجوم جرى في دقة عسكرية بالغة ... فقد تقدم رجال الشرطة الحملة، حاملين مدافع التومي والبنادق الاوتوماتيكية وتبعهم على الاثر صفوف من جنود الولاية المسلحين، وعلى رؤوسهم الخوذ الفولاذية وفي ايديهم بنادق مسددة الحراب، فاذا بالرصاص ينطلق دفعات إثر دفعاتٍ ، صوبَ المحال التجارية والبيوت ، فيما كانت القوات المسلحة تجوس خلال الشوارع المختنقة بالدخان .

وقد وصفت صحيفة « راية ناشفيل » Nashville Banner الهجوم فقالت :

« وبينما كان رجال الشرطة يتقدمون نحو الحي الاسود ، هذا الصباح ، أمطروا عدداً من المؤسسات التجارية بنيران مدافعهم وبنادقهم ... منزلين اكبر الاذى بالنوافذ والابواب وما تحويه من صنوف البضاعة ... »

اما صحيفة « كولومبيا دايلي هيرالد » فعلقت على الحادث بقولها : « لقد تذكر المحاربون القدماء لدن رؤيتهم هذا المشهد كيف كانت القوات الاميركية تدخل مدينة من المدن الاوروبية اثناء الحرب العالمية الاخيرة ... »

فتحتَ قيادة لين بومار الشخصية انقضّ بوليس الولاية على دكاكين الزنوج ومطاعمهم ومكاتبهم فحطم الاثاث وألقى بالمؤن والمعدات في عرض الشارع . ليس هذا فحسب ، بل لقد اطلقوا نيران مدافع التومي على المرايا والصور، وحطموا الآلات المسجلة للموارد النقدية وافرغوا بطونها .

وحطم رجال البوليس ابواب المنازل والشقق الخاصة . وساقوا الرجال والنساء والاولاد الى الشوارع، وضربوهم باعقاب

البنادق ، ثم امروهم بأن يرفعوا ايديهم الى ما فوق رؤوسهم .

وفي موكب ذليل طويل، سار الأسرى الزنوج عبرَ شوارع المدينة ، الى السجن .

وعند الظهيرة وصل الحاكم ماككورد الى كولمبيا . وبعد اجتماع عاجل عقده مع السلطات البلدية تمّ الاتفاق على ضرورة الكفّ عن الخوض في حديث « الاقتصاص » الشعبي . واجمعت الآراء على ان تُخلع على تلك الاحداث ، رسمياً ، صفة « ثورة زنجية مسلحة » تنبهت لها السلطة فقضت عليها في الوقت المناسب .

وفي اليوم التالي صدرت الصحف الاميركية حاملةً الى القراء نبأ « الفتنة الزنجية » في كولومبيا ، من اعمال ولاية تنيسي ...

•

واتُّهم المعتقلون الزنوج بالشروع في القتل .

وبديء في استنطاقهم، فكانوا يساقون من حجيراتهم، واحداً إثر واحد ، الى حجرة كان مأمور التنفيذ يتناول فيها ، عادةً ، طعامه . وهناك قيل لهم إنهم اذا « تكلموا » وكشفوا النقاب عما يعرفون عن « المكيدة» كانوا خليقين بأن يُحاسَنوا ويُتلاطف في معاملتهم . وعلى الرغم من التملق والتهديد والأغراء لم « يتكلم » احدٌ من المعتقلين .

وفي ٢٨ شباط سِيقَ ثلاثة من السجناء، في آنٍ معاً ، الى تلك الغرفة ، وهم وليم غوردون ، وجيمس جونسون ، ونابوليون ستيوارت. وبعد استنطاق متطاول لم يجد فيه الشرطة مايعتدّونه « إجابات مُرضية » اقتيد الرجال الثلاثة الى مكتب مجاور .

وفجأة سُمعت طلقات رُشيش مدوّية .

وحُمل غوردون وجونسون، والدماء تتدفق من جراحاتهما، الى «مستشفى بنات الملك»، حيث أُعطيا سائلًا دموياً ، ولكنْ لم يُسمح لهما بالبقاء رهنَ المعالجة لأن المؤسسة كانت، على حدّ قول ال «واشنطن بوست» «مستشفى أبيض». وهكذا نُقلا الى ناشفيل. وفيما هما في بعض الطريق لفظا آخر أنفاسهما ...

وترك الحادث الفاجع دوياً في الدنيا الاميركية ، فعهدت الحكومة الاتحادية في التحقيق الى لجنة من المحلفين .

وكان جميع هؤلاء المحلفين من ذوي البشرة البيضاء .

وبعد شهرين قضتهما اللجنة في الدرس والبحث وضعت تقريراً مسهباً ذهبت فيه الى «انها لم تقع على أيما خرق للحقوق المدنية» وانها لم تجد ايما دليل يؤذن بان الجمهور حاول ان يقتصّ من الزنوج في كولومبيا ، بمعزل عن السلطة والقانون ... ولم يفت اللجنة ان تسجل في تقريرها نقداً لاذعاً « للمقالات المثيرة » التي ظهرت في « الصحف الشيوعية » ...

« د » بشر أم بهائم ؟!

في ٦ حزيران سنة ١٩٤٧ نشرت مجلة «لايف» مقالاً مصوراً بعنوان : « محاكمة نفر من المعتدين على الزنوج تصنع التاريخ في الولايات الجنوبية»، وأبدت ارتياحها لتلك المحاكمة بوصفها «خطوة الى الامام » في سبيل نشر لواء « العدالة » حتى يشمل الزنوج في الجنوب .

وتفصيل الامر ان سائق سيارة ابيض طُعن طعنات قضت على حياته في غرينفيل Greenville من اعمال ولاية كارولينا الشمالية ، في شباط ١٩٤٧ ، فاعتقلت سلطات المدينة شاباً زنجياً اسمه ويلي إيرل Earle بتهمة القتل ، وزجت به في غياهب السجن . حتى اذا كان اليوم التالي ، وارتفع الضحى ، « هاجم السجن جماعة من البيض » - كما تقول « لايف » - في عربة مقفلة وانتزعوا إيرل من محبسه وحملوه الى مكان قريب يدعى بيكنز Pickens حيث انهالوا عليه ضرباً وركلاً ثم طعنوه خمس طعنات واقتطعوا مقداراً كبيراً من لحم فخذه ثم أطاروا القسم الاعظم من رأسه بثلاث طلقات من بندقية حربية كانت معهم ... »

وسيقَ ستة وعشرون متهماً بهذه الجريمة النكراء الى المحاكمة فكانت الجلسات تتخذ ، وفقَ ما ذهبت اليه مجلة « لايف » نفسها « طابعاً غير رسمي هو اشبه ما يكون بطابع النزهات العائلية » . واخيراً قضت المحكمة ببراءة المتهمين جميعاً .

وعقب صدور الحكم بالبراءة أعلن « هانت » R. G. Hunt وهو الرجل الذي أطار دماغ الشاب الزنجيّ بنيران بندقيته ، ان العدالة قد طبقت من الجانبين جميعاً . » أمادوران كينان Keenan وهو احد المتهمين المبرئين ايضاً ، فقد صرّح للصحافة بقوله : « ذلك أفضل ما وقع لهذه البلاد منذ ان كانت هذه البلاد ! »

وأوجزت « لايف » رأيها في المسألة فأطرت المحاكمة قائلة : « للمرة الاولى تُحفظ قصة الانتقام الشعبي البشع من احد الزنوج ، كاملةً غير منقوصة ، في سجلات القضاء الرسمية » . واستطردت المجلة

فقالت :

« لقد حوكموا طوال تسعة ايام ، وفي كثير من الحزم والجد .. صحيح ان المحاكمة لم تختم على نحو يرضي نفوس اولئك الذين يؤمنون بأن الديموقراطية تعني ما تقول ، بصرف النظر عن لون جلدة الانسان ... ولكن التاريخ قد صنع ، برغم ذلك . لقد كان واضحاً ان الولايات الجنوبية لم تعد مسرحاً تستطيع الجماعات المنتقمة على هواها من افراد الشعب الزنجي ان تسرح فيه وتمرح وهي آمنة مئة بالمئة ، او قل إن مثل هذا الانتقام الوحشي لم يعد عملاً يمكن كتمانه مئة بالمئة ، على الاقل ... »

وفي ١٣ آب سنة ١٩٤٧ ، بعد شهرين من صدور مقالة « لايف » ، نشرت صحيفة « نيويورك تايمس » مقالاً رئيسياً تحت عنوان « جورجيا تتقدم الى الأمام » . وكان ذلك المقال يدور على محور مجزرة قتل فيها ثمانية من المحكومين الزنوج في سجن آنغويلا Anguilla قرب برونسويك Brunswick من اعمال جورجيا .

وتفصيل المسألة ان جماعة من الزنوج المسجونين في ذلك المعسكر أُمروا ، في اليوم الحادي عشر من شهر تموز سنة ١٩٤٧ ، بالعمل في مستنقع يعج بالحيات المعروفة بذوات الأجراس . حتى اذا تردد بعض السجناء في تنفيذ الامر الصادر اليهم وطلبوا تزويدهم بنعال طويلة تقيهم غائلة الحيات ، اشتعل واردن وورثي Worthy غضباً وامرهم بالعودة الى المعسكر . وفي باحة السجن طلب وورثي الى خمسة من السجناء اعتبرهم « زعماء العصيان » ، ان يتقدموا الى الأمام . واذ تقاعس السجناء الخمسة عن تنفيذ الامر صاح وورثي بحرس السجن : « أدّبوهم » . فما كان من رجال الحرس إلا ان فتحوا النار على اولئك البائسين .

وكان محصول ذلك التأديب ان قُتل خمسة من السجناء، للتوّ والساعة ، وأصيب ثلاثة آخرون بجراحات قاتلة .

ومثلَ واردن وورثي أمام القضاء المحلي فزعم ان الزنوج كانوا يحاولون « إشعال نار الثورة في السجن . » فحكم المحلّفون بأن «الصنيع الذي قام به حرس السجن له ما يبرره» وانهم إنما اضطروا الى اصطناع هذا الاسلوب «رغبة منهم في حفظ النظام». ثم أضاف المحكّمون : « ومثل هذا الحادث ما كان يمكن ان يقع لو ان الزنوج كانوا مصفدين بالاغلال . »

وتوالت الاحتجاجات من «الجمعية الوطنية لترقية الشعب الملون» وغيرها من المنظمات الحرة ، فاضطرت الحكومة الاتحادية الى اتهام رجال الحرس الذين اقترفوا تلك الجريمة بتهمة خرق القوانين الخاصة بالحقوق المدنية الفدرالية. حتى اذا مثل المتهمون امام القضاء زعم محامي الدفاع ان اطلاق النار كان ضرورياً للقضاء على المكيدة « الموحى بها من جانب الشيوعيين » للاستيلاء على السجن. وبعد مذاكرة دامت ثماني دقائق خرجت هيئة المحكمة ، وهي تتألف من ثمانية محلفين كلهم ابيض البشرة ، وبرأت المتهمين .

وقد علقت صحيفة « نيويورك تايمس » في افتتاحيتها «جورجيا تتقدم الى الامام » فقالت :

« ان الظاهرة المشجعة في ما يتصل بهذه الاضطهادات العرقية التي لا يزال الجنوب مسرحاً لها هي انها أخذت تحدث ، على الاقل ، رد فعل صالحاً نحو الاصلاح والتقويم ... ففي جورجيا ، كما في سائر ولايات الجنوب ، تتسع دائرة الاستنارة بشكل ملحوظ ، ويرحب معنى الحرية يوماً بعد يوم ... »

وفي ١٤ آذار سنة ١٩٤٧ صرح وزير الخارجية جورج مارشال

Riyad Nassar Library

في اجتماع وزراء خارجية الدول الأربع بموسكو ، فقال :

« إني ادرك ان لفظة « ديموقراطية » تُفسر تفسيرات عديدة. ولكن لها في عُرف الحكومة الاميركية والمواطنين الاميركيين معنى أساسياً. فنحن نعتقد ان للكائنات البشرية بعض الحقوق التي لا يمكن ان تُنتزع ...

«هذه الحقوق تشمل حق الفرد، أيما فرد، في تنشيء عقله وروحه بالطرائق التي يختارها، في نجوةٍ من الخوف والأرغام ... وعندنا ان المجتمع لا يكون حراً اذا ما عاش المواطنون الخاضعون للقوانين في خوفٍ من ان يُنكر عليهم حق العمل او ان يُحرموا الحياة والحرية والتماس السعادة . »

ومع ذلك فان يوماً من ايام السنة التي ألقى فيها جورج مارشال خطابه لم ينقضِ من غير ما انتهاك لحقوق الزنوج الاميركيين « التي لا يمكن ان تنتزع » . واليك بعض الامثلة :

آتلانتا ، جورجيا ، شباط ١٩٤٧ : بعد اسبوعين انقضيا على توجيه عصابة من البيض انذاراً الى القس الزنجي ايبس A. C. Epps بضرورة الانتقال من منطقة مجاورة للاحياء البيض ، نسفت دار القس ، وشوهد أفراد العصابة يتطارحون النكات مع رجال الشرطة إثر اقترافهم جريمتهم .

ممثفلد ، كارولينا الشمالية ، نيسان ١٩٤٧ : كان فليتشر مارتن، وهو زنجي يعمل في احد مستشفيات بلتيمور ، راجعاً بالقطار الى مسقط رأسه، في كارولينا الشمالية. حتى اذا اعترض على ما صدر اليه من امر يقضي بأن ينتقل الى حافلة خاصة بالزنوج اطلق عليه المفتش النار فصرعه . وقد زعم المفتش انه انما قتل مارتن دفاعاً عن النفس » .

روكي مونت ، كارولينا الشمالية ، نوار ١٩٤٧ : وجد ويلي

بتمان Pittman ، وهو سائق سيارة زنجي ، قتيلاً على قارعة الطريق ، قرب روكي مونت ، وقد مثل الجناة بجثته أشنع تمثيل ، فسحقوا رأسه ، وقطعوا يديه ورجليه .

سارديس ، جورجيا ، نوار ١٩٤٧ : جـو ناثان روبرتس Roberts محارب زنجي قديم في الثالثة والعشرين من عمره ، يطلب العلم في جامعة تامبل . وقد لقي حتفه لانه لم يخاطب رجلاً ابيض بقـوله : « سيدي » . (Sir) . أما القاتل فلم يسق الى المحاكمة قط .

هامليون ، جورجيا ، نوار ١٩٤٧ قتل هنري جيلبرت ، وهـو فلاح زنجي ، في سجن « هاريس كاونتي » ، بيد رجال البوليس . وقد سحق الجناة رأس جيلبرت ، وحطمو اضلاعه .

لتوارث ، لويزيانا ، تمـوز ١٩٤٧ تجادل أحد مراقبي القنص مع وليم براون ، وهو زنجي عجوز في الثالثة والثمانين من عمره ، وكان يصطـاد السنجاب في احدى الغابات . فما كان من مراقب القنص الا ان اقتاد براون الى اقصى الغابة وأطلق النار على مؤخرة رأسه . وقد جاء في التقرير الطبي ما نصه « ان القتل مبرر لأن مراقب القنص أطاق النار دفاعاً عن النفس . »

كالهون لويزيانا ، تموز ١٩٤٧ عندما ترك ويزلي توماس ، وهـو قاطع أخشاب زنجي ، العمل عند مزارع من البيض أعلن هـذا الاخير عن استعداده لدفع خمسين دولاراً ثمناً لرأس توماس ، زاعماً ان الزنجي المستضعف تهدد حياته بالخطر . فتطوع للنهوض بهذه المهمة مزارع ابيض آخر ، ظـل يتعقب آثار توماس حتى عثر به فقتله . وقد اعتبرت هيأة المحلفين التي نظرت في المسألة « ان للقتل مبرراته، وان القاتل كان في موقف «الدفاع عن النفس».

نيويورك ، نيويورك آب ١٩٤٧ كان لويـد كورتس جونز ، وهو زنجي عاجز ومحارب قديم ، يغني مع جماعة صغيرة في « حلقة كولومبس » عند مدخل الـ « سنترال بـارك » فاذا بالشرطي فرنسيس لومير Le Maire يصدر امره الى جونز بمغادرة المكان ، مثيراً الزنجي العاجز بهراوته . ورفض جونز تنفيذ الأمر فما كان من الشرطي الا ان ضربه على ام رأسه ضربـة

انكسرت لشدة عنفها الهراوة . ورفع جونز ذراعيه ليقي نفسه، فسارع لومير الى افراغ ثلاث رصاصات في معدة الزنجي البائس فأصيب بجراح خطيرة ولكنها غير قاتلة . وبعد التحقيق برئت ساحة الشرطي الجاني .

●

وفي ٧ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ صرّح الرئيس هاري ترومان في خطابه أمام الكونغرس بقوله :

« إن المصدر الأساسي لقوتنا روحي خالص . ذلك بأننا شعب ذو إيمان . إننا نؤمن بكرامة الانسان ..

اننا نقدس خير الفرد وحقوقه بوصفه انساناً .

وهدفنا الأول هو ان نصون ، أكملَ ما تكون الصيانة ، حقوق مواطنينا الانسانية الرئيسية .

وكل إنكار لحقوق الانسان هو إنكار لمعتقدات الديموقراطية الأساسية ، ولاحترامنا لقيمة كل فرد وكرامته . »

ومع ذلك فان يوماً من ايام السنة التي ألقى فيهـا ترومان خطابه ذاك لم ينقض من غير ما انتهاك لحقوق الزنوج الاميركيين الانسانية . واليك بعض الأمثلة :

ماكون ، جورجيا ، شباط ١٩٤٨ بعد محاكمة دامت يومـاً واحداً جرمت هيئة المحكمين المؤلفة من اعضاء كلهم ابيض البشرة ، السيدة روزا لي انغرام Ingram ، وهي امرأة زنجية ، وابنيها البالغ اكبرهما مـن العمر سبعة عشر عاماً والبالغ اصغرهما اربعة عشر عاماً ، بتهمة القتـل ، وحكمت عليهم بالموت . اما «الجريمة» المنسوبة الى هذه الاسرة الزنجية فتتلخص في ان الشابين الزنجيين ذادا عن امهما مزارعاً ابيض اراد بها شراً . وفي غمرة الصراع بين الشابين والمعتدي الأثيم لـكم احدهما المزارع على رأسه لكمة

قاضية . وبعد احتجاجات كثيرة نجت الاسرة من الموت ، وحكم عليها بالسجن مدى الحياة .

ممفيس ، تنيسي ، نوار ١٩٤٨ : شكا الزنجي ايلي بلاين Blaine الى رجال مخفر البوليس ان مقداراً من المال قد سلب منه اثناء قيام الشرطة بالتحقيق في بعض حوادث الاضطراب والشغب . فما كان من رجال المخفر الا ان ضربوا بلاين ضرباً مبرحاً واوقعوا اعظم الاذى بأحدى عينيه فهي بيضاء لا ترى ...

ديترويت ، ميشيغان ، حزيران ١٩٤٨ بعد ان أوسع رجلان من رجال البوليس الفتى الزنجي ليون موزلي Moseley، وعمره خمسة عشر عاماً، ضرباً وركلا ، اطلقا النار عليه فقتلاه . وقد نص تقرير الشرطة الموضوع عن الحادث على ان سيارة موزلي لم تكن مزودة بمصابيح كهربائية .

كالهون فولز، كارولينا الجنوبية، آب ١٩٤٨ تحدى القس الزنجي آرتشي وير Ware الانذارات الموجهة اليه بضرورة عدم التصويت في الانتخابات الاولية ، فانقض عليه نفر من المواطنين البيض يدوسونه بنعالهم ، ويجلدونه بسياطهم ، ويطعنونه بمداهم ، ثم لم يتركوه الا بعد ان فارق الحياة. وقد جرى ذلك كله على مرأى ومسمع من شرطيين اثنين لم يحركا ساكناً، وكأن الامر لا يعنيهما في قليل او كثير .

مونتغومري، جورجيا، أيلول ١٩٤٨ تحدى د . كارتر D. C. Carter رئيس الشعبة المحلية « للجمعية الوطنية لـترقية الشعب الملون » ، الانذار الموجه اليه واشترك في انتخابات الولاية الاولية . فهاجمته عصابة من الرجال البيض وضربته بالقضبان الحديدية ثم اصدرت امرها اليه ، بالكف عن نقل جيرانه الى صناديق الاقتراع .

لايونز ، جورجيا ، تشرين الثاني ١٩٤٨ اغتال جماعة من البيض روبرت مالارد Mallard فيما كان عائداً وزوجته وطفله وزوجته وزنجيين آخرين من اداء الصلاة في الكنيسة . وقد اهملت السلطات المحلية الاخذ بشهادة السيدة مالارد والزنجيين اللذين شهدا الحادث ...

١١ الشبح الأحمر

•

« ان كل من يذود عن مصالح الشعب كله يتهم بانه « احمر » ، حتى لقد غدا هذا الوصف وسام شرف بالنسبة الى اولئك الذين يؤمنون بكرامة الانسان وبأن البشر كلهم سواسية »

الجنرال ايفانز ف. كارلسون

٧ نوار ١٩٤٧

« أ » خطر مصنوع

في سنة ١٨٤٨ استهل كارل ماركس وفريدريك انجلز « البيان الشيوعي » بهذه الجملة : « هناك شبح يقضّ مضاجع أوروبة ، هو شبح الشيوعية . »

وها هو شبح الشيوعية يقضّ اليوم ، وبعد مئة عام من اذاعة « البيان الشيوعي » ، مضاجع الولايات المتحدة الاميركية .

والواقع ان هذا الوباء الذي عصف بالذهن العام في الولايات المتحدة ، باكثر مما عصف بالذهن العام في ايما بلد من بلدان العالم عقب الحرب العالمية الثانية ، كان على خلاف معظم الاوبئة ، من

عمل الانسان نفسه ، أو قلْ من عمل الاميركيين أنفسهم .

فقد بدا واضحاً ، عند انقضاء الحرب، أن المخاطر المصطنعة فيما يتصل بنشوب حربٍ جديدة والمخاوف من اتساع حركة الجاسوسية في البلاد لم تكن كافية ، في ذاتها ، لأقناع الشعب الاميركي بأن بلاده مهدّدة بعدوان سوفياتي مسلّح يأتيها من الخارج ، أو بثورة شيوعية موحى بها من موسكو تجتاحها من الداخل .

كان ينبغي قبل كل شيء إزالة كل أثر للذكريات الحية التي تمثل التعاون الاميركي السوفياتي في ميادين الحرب الماضية ، وعظم ما قدمته الروسيا من تضحياتٍ في سبيل انتزاع النصر ، لتُطبع مكانها صورٌ راعبةٌ عن الروسيا السوفياتية كدولةٍ من دول الطغيان تسعى الى فتح العالم بالمكيدة والحرب ، وعن الحزب الشيوعي الاميركي كمنظمة يوجهها جواسيس الكرملين والمخرّبون العاملون على قلب الحكومة الاميركية .

وقد نُفذَ هذا التحول من طريق انقلابٍ في الدعاية .

فوسائل الدعاية ، وأجهزة الدولة الفدرالية والمحلية ، والهيئات الصناعية والتجارية ، والجماعات الدينية ، والجمعيات الغالية في التعصب القومي ، واتحادات المحاربين القدماء ، كل اولئك عُبيءَ في حملة موصولة مكثفة ضد الشيوعية استغرقت مظاهر الحياة كلها في البلاد .

كتبت مجلة « نيوزويك » في عددها الصادر في ٢ حزيران سنة ١٩٤٧ تقول : « تسلّط على الشيوعية في اميركا ، اليوم ، أحمى نارٍ سُلطت عليها في أيما عهد من العهود ... وإنها لحملةٌ أوفر

ذكاءً واكثر واقعيةً من تلك الحملة الهستيرية التي شُنت على الشيوعية عقب الحرب العالمية الاولى. وليس يقضّ مضاجع القائمين بها غير خطر واحد ، هو ان يتعب الجمهور – كما قد فعل بعد الحرب العالمية الاولى – من الكفاح ضد الشيوعية ... »

ولكن الجمهور لم يُسمح له ان يتعب من الحرب الصليبية .

فبينما كان ضجيج الدعاية المناوئة للشيوعية يرتفع يوماً بعد يوم كانت الحكومة تخطو خطوات واسعة في سبيل تطهير الخطر الشيوعي للأمة تطهيراً مسرحياً . فأصدرت برنامج الولاء ، ودعا رجال الكونغرس الى اقصاء الحزب الشيوعي عن صناديق الاقتراع . وسنت عدة قوانين تهدف كلها الى ان تجعل من الحزب الشيوعي الاميركي منظمةً غير شرعية .

وبلغت الحملة ذروتها ، سنة ١٩٤٩ ، بمحاكمة اثني عشر عضواً من اعضاء اللجنة القومية للحزب الشيوعي .

« ب » محاكمة الاثني عشر

في ٢٠ تموز سنة ١٩٤٨ اتهم اثنا عشر عضواً من اعضاء اللجنة القومية للحزب الشيوعي « بالدعوة الى تقويض دعائم الحكومة الاميركية بالقوة والعنف » وذلك من طرق ثلاث : اولها تنظيم حزب سياسي يدين بالمبادىء الماركسية اللينينية ، وثانيها « نشر وتذييع الكتب والمقالات والمجلات والجرائد الداعية الى المبادىء الماركسية اللينينية ، وثالثها إنشاء « المدارس والصفوف لدرس المبادىء الماركسية اللينينية ، حيث يمكن ان يُبشر بضرورة تقويض حكومة

الولايات المتحدة الاميركية وقلبها بالقوة والعنف . »

وكان لهذا الاتهام صدى بعيد في نفس الشعب الاميركي . فقد كان يحمل في ذاته معنىً أعمق جداً من اتهام اثني عشر رجلًا من قادة الحزب الشيوعي . وبحسبنا للدلالة على ذلك ان ننقل ههنا ما اذاعه في هذا الصدد القاضي وولف Wolfe وآرثر غارفيلد هايز Hays عضو « اتحاد الحريات الاميركية المدنية » وتشارلز هوستون Houston عميد كلية الحقوق بجامعة هاورد سابقاً وغيرهم من مشاهير رجال الولايات المتحدة :

ان محاكمة الحزب الشيوعي هذه هي محاكمة لحرية الرأي والكلام نفسها ، وجميع الاجراءات القانونية المتخذة في ما يتصل بها انما تمثل انحرافاً كاملاً عن مهمة الحكومة بمفهومها المعروف في الولايات المتحدة منذ مئة وتسع وخمسين سنة ...

ومن عجب ان التهم المنصوص عليها في هذه القضية منحصرة في تعليم الماركسية واللينينية والايمان بها ...

واذا ما عد مثل هذا التبني لذلك المذهب جريمة يعاقب عليها القانون فعندئذ يكون من الجائز ان يصبح التغيير السياسي في البلد الديموقراطي امراً متعذراً .

ومثل هذا الوضع خليق به ان يجعل من الحزب الشيوعي وسائر الجماعات اليسارية في الولايات المتحدة منظمات غير شرعية ، بطريقة لا تكاد تختلف عن تلك التي حل بها هتلر وموسوليني وفرنكو الحزب الشيوعي ... »

وقد بدأت محاكمة الزعماء الشيوعيين في ١٧ كانون الثاني ١٩٤٩ في مدينة نيويورك ، برئاسة القاضي هارولد مدينا Medina البالغ من العمر ستين عاماً .

وكان الجوّ الذي استُهلت فيه المحاكمة فريداً لم يُسجّل تاريخ القضاء الاميركي ضريباً له . ففي ذلك اليوم بالذات صدرت صحف

العاصمة مُثقلةً بعناوين ضخمة تعلن محاكمة الزعماء الشيوعيين بتهمة التآمر على سلامة الدولة والعمل على « قلب حكومة الولايات المتحدة الاميركية » . وكان يطوّق قصر العدل جيش من الشرطة الممتطين صهوات الخيل ، ومن البوليس السري ورجال الامن ، وكأنما كانت الحكومة تتوقع ثورة مسلحة .

وفي المراحل الاولى من المحاكمة قدّم الاتهام ثلاثة عشر شاهداً . وباستثناء رجلين نظاميين من رجال مكتب المباحث الاتحادي F. B. I. كان جميع الشهود الذين حشدتهم الحكومة شيوعيين مرتدّين او عيوناً لمكتب المباحث الاتحادي في الحزب الشيوعي ...

وقد أشاد محامي الحكومة جون ماك جوهاي Mc Gohey بالعمل العظيم الذي قام به هؤلاء الشهود قائلًا « إن نفوسهم عامرة بأعمق عواطف الولاء لبلادهم ، وانهم ادوا مهمتهم بروح من التفاني والتضحية بالنفس ترفعهم الى أعلى مراتب الوطنية . وعندي ان العمل الذي حققوه تحت اشراف مكتب المباحث الاتحادي رائع عظيم . »

في حين عبّر القاضي هاريس Harris عن رأي مناقض فقال :

« ان محاكمة الشيوعيين لا تعدو ان تكون مهزلة . وينبغي ان يلقى الاتهام كله في سلة المهملات . ذلك بأن هذا الاتهام مبني على بينات هزيلة من اقوال الجواسيس والمخادعين . ومثل هذه البينة لا يمكن ان تنهض في المحكمة التي ارئسها . فانا امقت الجواسيس والمخادعين . وكذلك يفعل الشعب الاميركي . »

وأيّد الاستاذ زكريا تشافي Chafee ، العالم الثقة في القانون الدستوري ، والاستاذ بكلية الحقوق في جامعة هارفرد ، ما ذهب

اليه القاضي هاريس فقال :

« ... ان بينة الحكومة ... تكشف النقاب عن ان ثلاثة على الاقل من عيون الدولة كانوا ينشطون ، في الواقع ، لاقناع الناس بالانضمام الى الحزب الشيوعي وبالمشاركة فيما اعتبره مستعملوهم الرسميون مؤامرة إجرامية على الولايات المتحدة . وانما يذكرنا هذا بعمل اولئك الجواسيس الذين يحرضون المنظمات على ان ترتكب اعمالاً يحرمها القانون لكي ينتزعوا بينة تدين تلك المنظمات وتوقع بها اقسى العقوبة . »

والحق انه ليس في الذي رواه شهود الحكومة من حكايات « المؤامرة الشيوعية على الدولة » شيء جديد . فطوال عقود ثلاثة وهذه الحكايات تؤلف المحور الذي تدور عليه مقالات الصحف المناوئة للشيوعية ، وفصول الكتب المنذرة بالخطر الشيوعي ، وتقارير غرفة التجارة و« الفرقة الاميركية » عن « الراديكالية » ، والنتائج التي انتهت اليها لجان التحقيق البرلمانية « كلجنة التحقيق في النشاط اللاأميركي » .

فقد اجمع شهود الاثبات على ان الحزب الشيوعي الاميركي إنما يعمل وفقاً « للاوامر الصادرة اليه من موسكو » مباشرة ، وان الشيوعيين الأميركيين ليسوا غير متآمرين قساة القلوب ، تنتظمهم شبكة واسعة من « الخلايا السرية » المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، وان هدف الحزب الشيوعي الرئيسي هو « قلب الحكومة من طريق القوة والعنف » ...

●

وكان القاضي « هارولد مدينا » قد أوصى المحلفين ، في مستهل المحاكمة ، بأن يعتصموا بحبل التجرد والنزاهة ، وان يحاكموا القضية بعقول غير مُغرضة ، فهي « أشبه ما تكون بورقة ناصعة البياض

لوّح بها في الهواء . ومع ذلك فقد اتضح منذ البدء انه هو نفسه كان بعيداً عن جادة الأنصاف .. وقد علّق القانوني الكبير ، دومينجو فيلاّميل Villamil * على مسلك القاضي مدينا في تقرير قدمه الى « الاتحاد الدولي للمحامين الديموقراطيين » الذي كلفه ان يشهد المحاكمة كمراقب ، فقال :

« لقد وجدت في القاضي هارولد مدينا ، منذ اللحظة الاولى ، شخصاً متحزباً ، ورجلاً بعيداً عن ان يكون نموذجاً صالحاً للقضاء في اميركة الشمالية .. لقد رأيته ، أبداً ، مجاملاً لطيفاً ، وطلق المحيا تجاه الاتهام ، ومتغرضاً ، متهكماً ، وحرج الصدر تجاه المتهمين ...

وواضح ان القاضي قد قلب القاعدة القائلة بان الاصل براءة الذمة ... فبدلاً من ان يفترض براءة المتهمين حتى يثبت إجرامهم ، افترض انهم شريرون مجرمون من اول الطريق ...

لقد كان في تلك المحاكمة جبهتان اتهاميتان ولم يكن ثمة قاض على الاطلاق . وكان القاضي مدينا اشد هاتين الجبهتين قسوة وفظاعة . »

ولم يكن محامو مدينة نيويورك اقل استنكاراً لمسلك القاضي مدينا . فقد نشر جماعة منهم رسالة انتقدوا فيها المحاكمة وعددوا مواقف القاضي مدينا ، غير القانونية . ودونك بعض هذه المواقف الناضحة بالتحيز والتغرض :

(١) العمل على إسكات هيئة الدفاع وشلّ نشاطها .

(٢) وصف هيئة الدفاع بصفات مستهجنة على مسمع من المحلفين .

(٣) التهديد بأنزال العقوبة بهيئة الدفاع لمجرد قيامها بالواجب الملقى على كاهلها .

(٤) مخاشنة المتهمين وشهود الدفاع ومحاسنة شهود الاتهام

* مدير العدل في حكومة كوبا سابقاً .

والاخذ بأيديهم .

(٥) تسفيه المتهم على مسمع من المحلفين .

(٦) الزعم بأن وكلاء الدفاع تحدوهم دوافع باطنية وغير ملائمة ، في حضرة المحلفين ✲ .

وقد تجلت محاباة القاضي للاتهام أبرز ما يكون ، في ما يتصل بقضية من أهم قضايا الدعوى حيوية : وهي المعنى المقصود من « الماركسية اللينينية » . فعندما كان أحد الشهود ، لويس بودنز Budenz ، يُدلي بشهادته ، سأله محامي الحكومة ماك جوهاي أن يفسر ذلك الجزء من دستور الحزب الشيوعي الذي ينص على أن الحزب يقوم على أساسٍ من « مبادىء الماركسية اللينينية . » فاعترض محامو الدفاع على هذا السؤال باعتبار ان مصطلح « الماركسية اللينينية » محدّد تحديداً كاملًا في الوثائق الشيوعية الرسمية المقدّمة الى المحكمة كبيّنات ، وان تقرير المعنى المقصود من ذلك المصطلح صار من حق المحلفين يستنبطونه من خلال الوثائق التي بين أيديهم .

✲ من الملاحظات اللاذعة التي اكثر القاضي مدينا من توجيهها الى وكلاء الدفاع ، نجتزيء بما يلي :

« قل جميع ما تشاء ، ولكن الكلمة الاخيرة لي . »

« ذلك ضرب من الجنون في ما أري وانتم تفعلون هذا دائماً على ما يظهر . »

« كلما أقللت من ملاحظاتك كان ذلك خيراً وأبقى . »

وقد اتهم القاضي مدينا وكيل الدفاع هاري ساشر Sacher ، في احدى المناسبات ، بأنه « يكذب كذباً مروّى فيه » . حتى اذا اعترض ساشر على اللغة التي يصطنعها القاضي قال مدينا ، والغضب يعصف به : « لن أصدق منذ اليوم كلمة مما تقول . »

ولكن القاضي مدينا أغفل جميع الاعتراضات قائلًا : « كيف يستطيع المحلفون أن يعرفوا معنى الماركسية اللينينية اذا لم ينبئهم بذلك شخصٌ ما » ?

وهكذا أجاب بودنز عن سؤال القاضي فقال : « ان المبادىء الماركسية اللينينية تذهب الى ان الاشتراكية لا يمكن ان تتحقق في الولايات المتحدة الا من طريق « قلب الحكومة الاميركية ... وإقامة ديكتاتورية البروليتاريا بالقوة والعنف . » ثم اضاف : « وهذا يمثل البرنامج الاساسي للشيوعيين الذين تنظر المحكمة في قضيتهم . »

فلما مثل المتهم روبرت طومبسون رئيس الحزب الشيوعي في ولاية نيويورك بين يدي القاضي مدينا وجّه اليه محامي الدفاع ريتشارد غلادشتاين Gladstein هذا السؤال :

« هل لك ان تشرح لهيئة المحلفين حقيقة الماركسية اللينينية ? »

فاعترض محامي الحكومة ماك جوهاي على السؤال .. وأقره القاضي على ذلك .

فاحتجّ غلادشتاين على هذا التحيز الفاضح ووجّه نظر القاضي الى انه قد سمح لمحامي الحكومة ماك جوهاي بأن يوجّه ذلك السؤال عينه للشاهد بودنز ، وسمح لهذا الاخير بأن يجيب عن السؤال ...

فأخذت القاضي موجة من غضب وقال : « انت تعلم اني قلت لك الآن ، انني لا اريد ان اسمع ايما مناقشة في هذا الموضوع ، وها انت ذا تعيد إثارة هذه النقطة ، مهيناً بذلك هيئة المحكمة . »

وفيما كانت المحاكمة تتطاول فتستغرق شهور الربيع والصيف كان القاضي مدينا لا يكفّ عن وصم وكلاء الدفاع بالطيش واتهامهم باهانة المحكمة ، ولا يتورع عن تهديدهم ببعض العقوبات النظامية جزاءَ ما يبذلون من جهد شاقٍ في سبيل إيراد البينات التي يعتبرونها أساسية في قضية موكليهم .

وقد اتهم القاضي مدينا ، مرةً ، وكلاء الدفاع بالتآمر على صحته ... ومن ملاحظاته النموذجية في هذا المعرض قوله مخاطباً إياهم : « لقد أرهقتم أعصابي الى درجة تجعلني لا ادري ما اذا كنت أطيق السير في هذه المحاكمة الى النهاية . » ... « إن هذا فوق ما يستطيع الانسان أن يحتمل . » ... « كنتُ أفكر في ما اذا كان في ميسوري ان أستريح يومين او ثلاثة لانني أحس تعباً بالغاً يُوقع في نفسي أشدّ القلق . » ...

والواقع ان القاضي مدينا كان يعطل الجلسات ، في كثيرٍ من الأحيان ، ليستجمّ في مكتبه من « عناء » النظر في الدعوى ...

ومع ذلك فقد امتدحت الصحف واذاعات الراديو القاضي مدينا « لصبره اللانهائي » و « اعتداله » ...

●

وفي ٣ حزيران رفض احد المتهمين جون جايتس Gates ، وهو محرر صحيفة « الدايلي وور كر » ان يقدّم الى الاتهام اسماء رفاقه في السلاح الذين ساعدوه في إعداد كتيب يعالج مشكلات المحاربين القدماء ، قائلًا ان تسمية هؤلاء الرفاق خليقة بأن تعرضهم للاضطهاد . من أجل ذلك حكم القاضي على جايتس بالسجن ثلاثين يوماً . وعندما

احتج المتهمان هنري ونستون Winston ، امين سرّ الحزب الشيوعي ، وغوس هول Hall ، رئيس فرع الحزب الشيوعي في ولاية أوهيو ، على هذا الحكم اصدر القاضي أمره بأعادتهما الى السجن ليقضيا فيه مدة المحاكمة بطولها .

وفي ٢٠ حزيران اعترض المتهم جيلبرت غرين Green رئيس فرع الحزب الشيوعي بولاية ايلينويز ، على رفض القاضي مدينا اعتبار مقالةٍ كان غرين قد كتبها ، بينةً ودليلًا ، وقال : « لقد كنت احسب اننا أُعطينا فرصةً لبسط قضيتنا وتوضيحها ... ذلك بأن تلك المقالة ذات صلة وثيقةٍ بصميم القضية . » وقد حكم القاضي على غرين ، بسببٍ من هذه الملاحظات ، بالسجن طوال مدة المحاكمة .

وعندما احجم المتهم كارل ونتر Winter رئيس فرع الحزب الشيوعي في ميشيغان ، عن ان يعلن ما إذا كان حموه قد شهد مؤتمراً عقده الحزب الشيوعي أم لا ، حكم القاضي مدينا على المتهم بالسجن ثلاثين يوماً ...

وفي ٢٣ آب نشرت صحيفة « دايلي كومباس » Daily Compass النيويوركية حكاية خطيرةً عن محاكمة الاثني عشر ، تذهب الى ان راسل جاني Janney ، وهو أحد المحلفين في تلك الدعوى ومؤلف كتاب معجزة الاجراس *The Miracle of the Bells* ، كان قد عبّر عن كراهيته العنيفة للحزب الشيوعي ، على رؤوس الاشهاد ، قبل ان يقسم اليمين القانونية بأقلّ من شهر واحد ليس غير ...

أما ناشر الحكاية في صحيفة « دايلي كومباس » فكان المحرّر المناضل تيد ثاكري Thackrey . وقد ضمّن مقاله مقتطفات من

خطاب ألقاه جاني في ماكون ، بولاية جورجيا ، في الحادي والعشرين من سنة ١٩٤٩ . قال جاني :

« ليس ثمة مجال لتسوية بين الشيوعية والديموقراطيـــة ... وعلى اولئك الاميركيين الذين يريدون الشيوعية ان يذهبوا الى الروسيا ويعيشوا هناك... نحن نخوض اليوم حرباً ضد الشيوعية ، وهي حرب يجب ان تستمر حتى النفس الاخير . »

وأوضح ثاكري ايضاً ان جاني قد أدلى، خارج قاعة المحاكمة، بتصريحات وتعليقات تؤذن بتعصّبه الصارخ ضد المتهمين، ثم خلص الى القول : « إن لديّ من الأدلة ما يقطع بصحة ما روَيْت . وهذا الذي رويته كافٍ للشك في ما إذا كان مستر جاني، في يوم من الأيام، بريئاً من الفكرات السابقة في ما يتصل بالمتهمين براءة تجعل منه قاضياً عدلاً ، او محلفاً نزيهاً ... »

وعلى اثر صدور هذا المقال الخطير في صحيفة «دايلي كومباس» طلب محامو الدفاع إقصاء راسل جاني عن هيئة المحلفين ...

ولكن القاضي مدينا أبى ان يلبي الطلب ! .

●

وفي ١٤ تشرين الاول ، وبعد تسعة أشهر من بدء المحاكمة ، أصدرت هيئة المحلفين حكمها بتجريم المتهمين .

ولم يكد المحلفون يقدّمون قرارهم الى القاضي مدينا حتى طلب الى هيئة الدفاع ان تقف . وبعد ان وجّه ضروب الاهـانة الى المحامين الخمسة والى يوجين دانيس * الذي تولى بنفسه الدفاع عن نفسه ، أعلن حكمه على الرجال الستة بالسجن مدّاتٍ تتراوح

* سكرتير الحزب الشيوعي الاميركي العام .

ما بين الثلاثين يوماً والستة اشهر .

وبعد أسبوع لفظ القاضي مدينا حكمه على عشرة من الزعماء الشيوعيين بالسجن خمس سنوات وبغرامة مقدارها عشرة آلاف دولار يدفعها كلٌّ منهم .

أما روبرت طومبسون فقد حُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات وبغرامة مقدارها عشره آلاف دولار. وقد أوضح القاضي السبب الذي من اجله خصّ طومبسون بهذا الحكم، فقال إن طومبسون ابلى بلاءً حسناً في الحرب الماضية فهو جدير بان يُخفّف عنه العذاب .

وعلقت صحف البلاد من اقصاها الى اقصاها على هذه الاحكام، وهللّت لها كرمز على العدالة الاميركية. واذاع «صوت اميركة» تفصيلها على العالم كدليل على « ان لكل امرىء في اميركة، سواء أكان غنياً أم فقيراً ، وبصرف النظر عن لونه او معتقده ، يوماً يُنصف فيه أمام القضاء . »

ولكنّ جمهرةً كبيرةً من الاميركيين المستنيرين لم تصفق لهذه الاحكام ، ذاهبة مع صحيفة « *St. Louis Post - Dispatch* » الى ان « تجريم هؤلاء الرجال يتعارض مع تقليد من اعظم التقاليد في التاريخ الاميركي ، وهو ذلك الذي يصرّ على قيمة المواطن الفرد كشخص لا كجزء دقيق من الدولة... اننا حين نعاقب الشيوعيين بسبب من آرائهم إنما نشقّ الطريق واسعةً الى معاقبة غيرهم لسبب أوهى وأضعف ، أو لغير ما سبب على الاطلاق ... »

الفهرست

١ - أعمدة الاستعمار الأميركي

١ . نشوء الاستعمار الأميركي ٧
جذور التوسع الاستعماري ٩
طرائق التوسع الاستعماري ١٤
أشكال الحكم الاستعماري ونصف الاستعماري ١٨

٢ . أمبراطورية وول ستريت ٢٢
شركات النفط المتحدة تقتسم العالم في ما بينها ٢٥
الامبراطوريات الصناعية ٣١
نظام المحالفات الدولية الاقتصادية ٣٢
امبراطورية المصارف ٣٥
الأمبراطورية الاقليمية ٣٦

٣ . وول ستريت ومأساة الزنوج ٤١
استغلال الزنوج استغلالاً فاحشاً ٤٤
مظاهر الاضطهاد السياسي ٥٠

٤ . النقطة الرابعة والدول غير المتطورة ٥٥

٥ . ستراتيجية السيطرة على العالم ٦٥

٦ . محاولة استعمار أوروبة ٨٢

أسلوب الفتح التدريجي ٨٤

التعاون مع العناصر الرجعية ٨٥

تعاظم السيطرة السياسية ٨٧

« توحيد » أوروبة ٩٠

٧ . السيطرة الاقتصادية على أوروبة الغربية ٩٤

المبالغة في اغراق الأسواق ٩٥

خفض الأجور ٩٨

سحق الاقتصاد الوطني ١٠٢

الدولار يستعبد أوروبة ١٠٥

٨ . الولايات المتحدة ترث الامبراطوريات القديمة ١١١

مبدأ ترومان والشرق الأوسط ١١٤

مستقبل الاستعمار في آسية ١٢٥

غزو كوريا ١٣١

٢ – مصرع الديموقراطية في العالم الجديد

القسم الأول: أيام الفزع

١ . نهاية كالحة... ١٤١

٢ . الغارات ١٥٣

القسم الثاني: الحرب في الداخل

٣ . المسلك الجديد (نيوديل) ١٦٩

٤ . ملك قامعي الاضرابات... ١٧٨

٥ . داخل امبراطورية فورد ١٨٦

٦ . مجازر في الغرب الأوسط.. ١٩٩

القسم الثالث: «ديوان التفتيش» الحديث...

٧ . نهاية «المسلك الجديد» ٢٠٧

تراث الحرب ٢٠٧

عودة هربرت هوفر ٢١٤

السر العظيم ٢١٧

٨ . واشنطون تقتبس أساليب الطغيان النازي... ٢٢٣

مرسوم الولاء ٢٢٣

خلف الأبواب الموصدة ٢٢٨

٩ . أنماط من الكبت والاضطهاد ٢٣٨

برنامج عبوس ٢٣٨

الخوف نفسه ٢٤١

استرتيجية فرق الصاعقة ٢٤٦

هل هذه هي أميركة ٢٥٠

١٠ . مأساة الزنوج... ٢٥٧

باسم الحرية ٢٥٧

في عاصمة البلاد ٢٦٥

هول في تنيسي ٢٦٩

بشر أم بهائم ٢٧٥

١١ . الشبح الأحمر . . . ٢٨٣

خطر مصنوع ٢٨٣

محاكمة الأثني عشر ٢٨٥

فهرس

مَطبَعة العلوم

حارة حريك - لبنان

صدر حديثاً

عن دار العلم للملايين

سلسلة الشريط الحريري

مكتبة لكل بيت ومدرسة

١ – ألفباء المرض والشفاء – للدكتور كوبلان
تعريب منير البعلبكي

٢ – علم النفس الحديث – للأستاذ سارجنت
تعريب منير البعلبكي

٣ – كيف تكسب السعادة – لبرتراند راسل
تعريب منير البعلبكي

٤ – كيف تفكر – للدكتور جبسون
تعريب منير البعلبكي

٥ – قصة التغلب على الألم – للدكتور فياض

٦ – المسخ – فرانز كافكا
تعريب منير البعلبكي

٧ – ساعات حاسمة في حياة محمد – لمولانا محمد علي
تعريب منير البعلبكي

ثمن النسخة الواحدة مجلدة ٨٠٠ ق. ل.

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت